AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

Cat. Jan. 1950

منشورات مكتبة المثنى :

LAU UNIVERSITY
LIBRARY
OF DETROIT

177.6
J41hA
c.1

# الحب العذري

## نشأته وتطوره

تأليف

أحمد عبد الستار الجواري

ماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً
مع مرتبة الشرف من جامعة فؤاد الأول
مدرس في دار المعلمين العالية ببغداد

68942

طبع بدار الكتاب العربي بمصر
شارع فاروق — تليفون : ٥٠٩٣٨

Cat. Jan. 1955

P. 67

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

# الحب العذرى

## نشأته وتطوره

وهو البحث الذى تقدم به المؤلف لنيل درجة الماجستير فى الآداب
( قسم اللغة العربيـــة ) من كلية الآداب بجامعـــة فؤاد الأول
ونوقش فيه أمام الجمهور فى ١٣ تموز ( يولية ) سنة ١٩٤٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

# إلى . . .

القلوب الكبيرة التى اتسعت للحب ، فتلمذت بحميمه ، وتقلبت فى أعطاف نعيمه ، وصبرت على بلواه ، ورضيت به غاية فى الحياة ، وفنيت فيه ، فارتفع بها الى معارج القدس ، وأخرجها من ظلمة المادة الى نور الروح . . .

أحمد

## مدخـــل

# بسم الله الرحمن الرحيم

يكاد الأدب العربى يكون أسبق آداب العالم إلى تصوير الحب والتعبير عن عاطفته . ويقر النقاد الأوربيون بأن عاطفة الحب لا وجود لها فى الشعر اليونانى القديم ، بل لم تتفتح أزاهيرها إلا فى مفتتح عصر النهضة Renaissance ، ولم تنضج بواكيرها إلا بعد أن اتصلت أوربا بالشرق اتصالا أدبياً واجتماعياً .

والحب العذرى صورة مصفاة مهذبة من صور الحب تسمو على لذة الحس وتتعالى عن شهوة الجسد ، وهو ظاهرة أدبية اجتماعية عرفها الأدب العربى بعد الإسلام واشتهرت بها قبيلة عربية عرفت بالدماثة والرقة وكثرة الجمال وشيوع العشق بين أفرادها . تلك هى قبيلة عذرة التى نسب إليها هذا الحب فسمى الحب العذرى .

وهذا البحث — الذى أضعه بين يدى القارىء — محاولة قصدت فيها إلى دراسة هذه الظاهرة الأدبية الاجتماعية دراسة أدبية تقوم على أساس مما كشفه العلم الحديث فى درسه للعواطف والمظاهر النفسية وتتبعت مبدأ هذه العاطفة فى الشعر العربى وألممت بتاريخها وأسباب نشأتها ، وعرضت لصورتها الأولى التى عرفت فى الأدب العربى ، ثم انتقلت فى النصف الثانى من هذا البحث إلى الحب العذرى بعد أن حل فى بيئة أهل العلم والفقه ، حيث لونته الثقافة الدينية والفلسفية بلون مثالى فلسفى بعد به عن أصله الغريزى بعداً ما .

( وما يكن فى هذا البحث من محاسن فمرده إلى الإرشاد والمعونة الصادقة التى لقيتها من أساتذتى الأماثل فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وفى مقدمتهم أستاذى الجليل الأستاذ أحمد أمين بك فقد كان لإشرافه الحكيم وتوجيهه السديد أبلغ الأثر وأعظم الخطر فى تمهيد مسالك البحث والأخذ بيدى إلى أقربها من الحقيقة وأخلقها بطالب العلم ، وكان فى سعة صدره وكبر قلبه وتقبله لما لا يوافق عليه من آراء تلميذه أكبر عون على البحث الجامعى الحر . )

(كما أنى مدين بمثل ذلك إلى) أستاذى الجليلين الأستاذ أحمد الشايب والأستاذ مصطفى السقا فقد كان لى من شعورهما الأبوى النبيل وتوجيههما السديد خير معين لى على البحث والدراسة .

وفى الختام أرى من واجبى أن أقدم وافر الامتنان إلى الأستاذين الفاضلين الدكتور حسين مؤنس والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة فقد منحانى من وقتهما الثمين ما يسر لى الاطلاع على كثير من مصادر البحث .

أما الأستاذ المستشرق الكبير لويس ماسينيون فقد كان له الفضل الكبير فى إرشادى إلى مصادر البحث وإطلاعى على أبحاث الأساتذة المستشرقين فيما يتعلق بهذا الموضوع فله منى جزيل الشكر .

(وبعد فهذا البحث بداية أرجو أن أتزود منها خبرة انتفع بها وأنفع ، وعسى أن لا يضن على القراء الكرام بالإرشاد إلى مواطن النقص والكمال لله وحده)

بغداد فى جمادى الأولى ١٣٦٧
آذار ١٩٤٨

أحمد عبد الستار الجواري

# الفهرست

## الحب العـــذرى

### نشأته وتطـــوره

صفحة


الكتاب الاول — نشأته ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١

الباب الأول — الحب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣

الفصل الأول — الحب . قديماً وحديثاً ... ... ... ... ... ... ... ٣

( ١ ) الحب فى الفلسفة القديمة . أفلاطون فى الفلسفة الإسلامية . إخوان الصفاء . ابن سينا . نظرة عامة ... ... ... ...

( ٢ ) الحب عند المحدثين . تركيب عاطفة الحب . رأى فرويد . رأى مكدوجل وأيهما أدنى إلى طبيعة الإنسان . بويس جبسون . رأيه فى الحب . نظرة عامة ... ... ... ... ...

( ٣ ) رأى فى الحب . الفلسفة والعلم واختلافهما فى بحث الحب . السرور بالشىء لذاته . الألفة ومقامها فى الحب . قوام عاطفة الحب . لماذا يقع الحب ... ... ... ... ... ...

الفصل الثانى — أصناف الحب ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٧

( ١ ) أسماء الحب فى العربية ... ... ... ... ... ...

( ٢ ) تصنيف ستندال للحب ... ... ... ... ... ...

( ٣ ) مذهبان فى الحب عند العرب ... ... ... ... ...

— الحب العذري صورة صادقة لعاطفة الحب ... ... ...

الباب الثانى — الحب العذرى ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٣

الفصل الأول — ماهيته ومقوماته ... ... ... ... ... ... ... ٣٣

( ١ ) ما الحب العذرى وكيف ينشأ ... ... ... ... ...

( ٢ ) معالمه العامة ... ... ... ... ... ... ...

( ٣ ) متى نشأ . عذرة وتاريخها ... ... ... ... ... ...

الفصل الثانى — كيف نشأ ولماذا ... ... ... ... ... ... ... ٤٥

( ١ ) رأى الأستاذ ماسينيون ونقده ... ... ... ... ...

( ٢ ) رأى الدكتور طه حسين ونقده ... ... ... ... ...

( ٣ ) رأى فى نشأة الحب العذرى : الإسلام ونظامه الاجتماعى وأثره فى نشأة الحب العذرى ... ... ... ... ...

صفحة

**الفصل الثالث** — صورته الأولى فى الأدب العربى ... ... ... ... ... ٥٧
تمهيد . عبث الرواة فى أخبار القوم وشك المعاصرين فيها ... ...
( ١ ) عروة بن حزام وحبه لعفراء ... ... ... ... ...
( ٢ ) قيس بن ذريح وحبه للبنى ... ... ... ... ... ...
( ٣ ) مجنون ليلى ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٤ ) جميل بثنية . صورة الحب العذرى فى شعره ... ... ...
( ٥ ) خصائص الحب العذرى ... ... ... ... ... ...
**الكتاب الثانى** — تطوره ... ... ... ... ... ... ... ... ٨٣
**تمهيد** : الحب عند الفقهاء ... ... ... ... ... ... ... ٨٤
( ١ ) عبيد الله بن عتبة ... ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) عبد الرحمن القس ... ... ... ... ... ... ...
**التأليف فى الحب** : ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٠
( ١ ) فى مجلس يحى بن برمك ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) رسالة الجاحظ ... ... ... ... ... ... ... ...
**الباب الأول** — محمد بن داود ... ... ... ... ... ... ... ٩٦
**الفصل الأول** — حياته وحبه ... ... ... ... ... ... ... ٩٦
**الفصل الثانى** — كتاب الزهرة ... ... ... ... ... ... ... ١٠٧
( ١ ) ضبطه ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) لماذا ألف ... ... ... ... ... ... ...
( ٣ ) تاريخ تأليفه ... ... ... ... ... ... ...
( ٤ ) تحليل ... ... ... ... ... ... ... ...
**الفصل الثالث** — آراؤه فى الحب ... ... ... ... ... ... ... ١٢٠
( ١ ) الحب ومراتبه ... ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) أحواله ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٣ ) أصنافه ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٤ ) أماراته ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٥ ) ملابساته ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٦ ) نهايته ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٧ ) آدابه ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٨ ) خبرة ابن داود فى الحب ... ... ... ... ... ...
( ٩ ) أهو مذهب فى الحب ... ... ... ... ... ...
**الباب الثانى** — ابن حزم ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٤
**الفصل الأول** — حياته وحبه ... ... ... ... ... ... ... ١٥٥

صفحة

الفصل الثانى — طوق الحمامة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٦٧
( ١ ) تاريخه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) متى ألفه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٣ ) لماذا ألفه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٤ ) تحليل ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
الفصل الثالث — آراؤه فى الحب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧٨
( ١ ) ما الحب وما سببه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٢ ) كيف يقع ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٣ ) مراتب الحب ... ... .. ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٤ ) علاماته ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٥ ) سبيل الوصول إلى المحبوب ... ... ... ... ... ... ...
( ٦ ) أحوال الحب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٧ ) آفاته وملابساته ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٨ ) نهايته ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
( ٩ ) آدابه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
شخصيتان ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...
خاتمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢١٠
المراجع ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢١٣

# الكتاب الأول

## الحُبُّ العُذري

## نَشأتُه

# الباب الأول

## ما الحب ... ؟

---

## الفصل الأول

### الحب قديما وحديثاً

ما الحب . سؤال يجدر بالباحث أن يتأمل فيه وأن يجتهد فى الكشف عنه ما وسعه الاجتهاد إذ أن مفهوم الحب أصبح فى هذا العصر ولعله كان كذلك فى غابر العصور مجالا لاختلاف بعيد فى إدراكه والإحساس به والتعبير عنه .

لذلك آثرت أن أعرض لمفهوم الحب فى عصور مختلفة لعلى أخرج من ذلك بفكرة عامة عن الحب حتى لا أقع فى الخلط الذى يقع فيه من يتكلم فى الحب ومن يكتب فيه . وقد آثرت أن أبدأ بالفلسفة القديمة وأثنى بعلم النفس الحديث الذى حاول أن يدرسه درسا علميا يقوم على التجربة العميقة والملاحظة الدقيقة .

١

والعواطف الإنسانية تكاد تتفق فى القديم والحديث ويكاد الاختلاف ينحصر فى وصفها وفى تحليلها . لهذا أخذت نفسى بأن أعرض لشىء من بحث الفلسفة القديمة فى الحب وقصرت همى على أفلاطون من اليونان لأنه أشهر من كتب فيه من فلاسفتهم ولأنه اشتهر بمذهب فى الحب يكاد يتردد على كل لسان ويعرف فى كل مكان وإن كان فى صورته التى يتناقلها الناس نظر . وسبب آخر سيتضح فيما بعد وهو العلاقة المزعومة بين الحب الأفلاطونى وبين الحب عند العرب فى العصور الإسلامية الأولى وبالتالى العلاقة المحتملة بينه وبين الحب عند العرب فى العصور الإسلامية الوسيطة .

وقد عرجت بعد الفراغ من أفلاطون على فلاسفة المسلمين فعرضت لما كتبوا فى الحب . بل لما أعرف مما كتبوا فى الحب .

لأفلاطون كتاب صغير فى الحب ضمنه محاورات أجراها على ألسنة زمرة من الفلاسفة اجتمعت فى وليمة ويعرف هـذا الـكتاب فى اليونانية باسم سمبوزيوم (Symposium) واشتهر باسم الوليمة أو المائدة الأفلاطونية (Banquet) .

يروى خبر هذه الوليمة أبولودورس - Appolodorus - فيقول . — إنه خرج من بيته ذات يوم فأبصره صديق له واستوقفه يسأله عن الوليمة التى جمعت سقراط وأجاثون والـكبيادس وغيرهم وما دار فيها من الـكلام فى الحب .

فيخبر أبولو دورس صـديقه كيف التقى سقراط باريستوديموس فصحبه إلى الوليمة وفى الطريق تخلف سقراط منشغلا بتأملاته وأشار على صديقه أن يواصل سـيره إلى بيت أجاثون صاحب الدعوة ولما سأله القوم عن سقراط أخبرهم بخبره فأرسلوا إليه فلم يجىء إلا بعـد أن فرغوا من العشاء حتى إذا حضر استقبلوه مرحبين مداعبين ولما أتم عشاءه أخذوا بأطراف الحديث عن الشراب وأى طريقة فيه أليق بهم لأنهم كانوا يشكون خمار الأمس ، واتفقوا آخر الأمر على أن لا يكون مجلسهم للشراب وأن يقصروه على الحديث فاقترح أحـدهم وهو أريكسيماخوس أن يكون الحب موضوع حديثهم ، وذكر أن صديقه فايدروس - Phaedrus - هو الذى طالمـا شـكا إليه أن إلهَ الحب ذلك الإلهَ العظيم ليس له نشيد أو ترتيل ينشده الناس فى تمجيده والثناء عليه . وبناء على هذا فهو يقترح أن يقصروا جلستهم على تمجيد هـذا الإلهَ ويظفر اقتراحه الأول بالقبول فيردفه باقتراح آخر ؛ أن يتكلم كل منهم بدوره من الشمال إلى اليمين مثنيا على الحب الثناء الجميل .

ويبدأ فايدروس يمجد الحب ماشاء فيقول : إن إلهَ الحب أحق الآلهة بالعبادة وأولاهم بالتمجيد فهو مصدر البركات وليس فى الوجود أثمن ولا أقوم من حب فى أول الشباب . وليس شىء أحق من الحب بأن يكون المثل الأعلى للحياة الهانئة السعيدة ولا أفضل ولا أسعد من أمة يكون مواطنوها مجموعة من المحبين إلى جانبهم محبوبوهم ، إذن يكون التنافس بينهم على المجد والشرف وينفخ الحب فيهم روحا من الشجاعة والإقدام والفضيلة ويربط بينهم برباط أقوى من رباط القرابة

والأبوة . ويختم فايدروس حديثه بقوله : إن للحب من القوة والسلطان ما يمد به الناس بالسعادة والفضيلة أحياء وأمواتا[١] .

ويتكلم من بعده باوسانياس ( Pausanias ) فيقول : إن هناك إلهتين للحب فهناك إذن حبان . الإلهة الأولى هى الكبرى التى ليس لها أبوان فهى سماوية علوية والإلهة الأخرى هى بنت الإله زيوس ( Zeus ) والإلهة ديون ( Dione ) وهذه هى الإلهة الأرضية العامية « Popular » فالحب إذن حبان حب سماوى وحب أرضى . فأما الثانى فيحدث بطريق الصدفة وهو الذى نجده عند الطبقات الوضيعة ويجمع فيه هؤلاء بين حب الأناث وحب الذكور وينصب حبهم على الجسد لا على الروح ولذلك يقع اختيارهم على أقل الناس نصيباً من الروح لأنهم يهتمون بالغاية التى يسعون إليها فى الجسد غير مبالين بالوسيلة ، وهنا نجدهم يسلكون سلوكا غير منضبط من غير تمييز بين الحسن والقبيح أو النبيل والوضيع . وأما الحب العلوى الذى تلهمه الإلهة الكبرى فيمتاز بالعظمة والاتساع . وهذا الصنف من المحبين لا يميل إلى الذكور ، حيث يغريهم بحبهم الحيوية الطبيعية والمواهب العقلية فهم إنما يعشقون فيهم هذه المواهب العقلية ولا يتخذونهم هزوا .

والحق أن الحب فى ذاته ليس خيراً ولا شراً ولكن ذلك يأتى من الوسيلة الذى تصطنع فيه فهو شر إذا كان حبا أرضيا يعبد الجسد من دون الروح .

ثم يقول باوسانياس فى ختام حديثه إنه أشرف للمحب أن يعلن حبه من أن يخفيه وبخاصة حين يكون المحبوب عل حظ من العقل والفضل والنبل يزيد على حظه من الجمال ، ومن الشرف للمحبوب أن يواصل محبه ويساعده وذلك حين يكون المحب من ذوى المواهب العقلية التى يفيد المحبوب منها فى التربية وتعلم الفنون . وهو يعيب على الآباء فى أثينا أنهم يتخذون الرقباء على أولادهم حين يحبون حتى لا يتحدثوا إلى محبوبيهم أو يواصلوهم[٢] .

ويتحدث بعده أريكسيماخوس - Eryxymachus - فيذكر أنه علم لاحترافه الطب أن الحب ليس مقصوراً على البشر يجذبهم إلى الأشياء الجميلة بل إنه يشيع فى جميع المخلوقات من حيوان وغيره مما يوجد فوق الأرض ومن الطب تعلم أزلية هذا الإله وعالميته وجلاله وهيمنته على جميع الأفعال إنسانية كانت أم علوية .

---

(١) Plato's : Lysis Symposium Gorgias, edited by Lamb PP 105—107.

(٢) المرجع السابق PP 109—121

وهذا الحب المضاعف (Double) يرجع إلى طبيعة الأجسام المختلفة . فبين الصحة والسقم اختلاف والمختلف (Dissimilar) يحب ما يخالفه ويعبده والرغبة المنبعثة من جسم كامل الحيوية تختلف تمام الاختلاف عن تلك التى تنبعث من جسم سقيم وهكذا ترى أن الرطوبة والجفاف أو الحرارة والبرد إذا اجتمع كل منهما بنقيضه جاء بالخير والخصب والمنفعة للناس والدواب والأنعام[1] .

ثم يعقبه أرستوفانس (Aristophanes) فيعود بحديثه إلى الماضى السحيق حيث كان بنو الإنسان ثلاثة أجناس . الذكر والأنثى والخنثى (Man-Woman) فالذكر صدر عن الشمس والأنثى صدرت عن الأرض والخنثى عن القمر ؛ وكان الفرد منهم بوجهين وأربع آذان وأربع أعين وهكذا باقى الأعضاء وكان يسير معتدل القامة رغم أنه يمشى على أربع . وكان انئذ على حظ عظيم من القوة والبأس حتى إنه ما كان يتورع أن يستخدم تلك القوة فى عصيان الآلهة وتحديهم .

واجتمع الآلهة وفيهم الإله زيوس وتداولوا الأمر بينهم وتبادلوا الرأى فيما ينبغى أن يفعلوا ليقفوا هذا التطاول على مقامهم وعلى ملكتهم الحيرة لأنهم ما كانوا يريدون للإنسان الفناء . وأخيراً أشار عليهم زيوس بوسيلة تحد من قوة هذا الإنسان وتضعفه ولكنها لا تفنيه. تلك هى أن يجزأ كل منهم فيقسم نصفين كل يمشى على رجلين حتى إذا عاد إلى سيرته الأولى فلم يكف عن عصيان الآلهة قسم هذا النصف نصفين كل يمشى على رجل واحدة عرجا . واتفق الآلهة على ذلك وعهدوا إلى زيوس بالتنفيذ ففعل وقطعهم أجزاء كما تقطع التفاحة الطرية ليحتفظ بها مجففة وطلب إلى — أبولو — أن يدير وجه كل جزء إلى قسيمه حتى يروا فعل المدية فيهم فيكونوا أشد طاعة . . . ثم شفاهم . بعد هذا أصبح كل منهم يحن إلى حاله الأولى فيبحث عن نصفه ويشتاق إليه فتراه إذا وجده ضمه إليه وطوقه بذراعيه وعانقه فعز عليه أن يفارقه .

وهكذا المحبون كل يبحث عن قسيمه ويجرى وراء نصفه فالذى يحب النساء ويغرم بهن هو الذى انشق من الخنثى والذى يحب الذكور هو الذى انشق من الذكر فهو لا يألف إلى الرجال ولا يلتذ بصحبة غيرهم . وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد .

وفى الختام يقول باوسانياس :

---

(١) المرجع السابق PP 125—191

« وإذا اتخذنا الآلهة أولياء فأطعناهم وأرضيناهم فسيظفر كل منا بنصفه الذى انفصل عنه . وطريق السعادة فى هذه الحياة أن نمكن للحب فى حياتنا فيجد كل منا محبوبه الحقيقى ويرجع إلى حياته الأولى حياة الاتحاد والشمل المجتمع[١] » .

ويتحدث بعده أجاثون (Agathon) عن رقة الحب وأنه لا يأوى إلا إلى أرواح الآلهة والأناسى ويفر من الأرواح الفظة الغليظة ؛ ويصفه بأنه لين ليست القسوة من صفاته فهو رهن برغبات الناس طوع موافقتهم وهو إلى جانب هذا أقوى من أى شىء وأشجع . وهو بعد ذلك يجعل المحب شاعراً مهما كان بعيداً عن إلهة الشعر (Muse) .

أما سقراط فيروى لهم حديثاً جرى بينه وبين ديوتيما (Diotima) قالت له فيه . إن إله الحب ليس بفان ولا خالد ولكنه فى منزلة بين الفانى والخالد أو بين الأرضى والمقدس ، وهو لذلك حلقة الوصل بينهما يصل الفانى الأرضى بالمقدس الخالد ويعرفه به والإله لا يتصل بالناس ولا يخالطهم وسبيل الاجتماع به والتزلف إليه هو الحب ؛ الحب الروحى الذى ينزل منزلة بين الإله والإنسان ويصل أحدهما بالآخر .

ثم يخبرهم أنه سألها عن والدى الحب وكيف ولد ، فقالت له : « كان ذلك ليلة ولدت أفروديت (Aphrodite) وقد ضم الاحتفال بمولدها طائفة من الآلهة كان بينهم إله الفيض (Resource) ومدت الموائد فجاءت إلهة الفقر (Poverty) تستجدى وكان الفيض ساعتئذ سكران بالنكتار (Nectar) لأن الخمر لم تكن إذ ذاك معروفة ، ولما غلبه السكر وأحس بالإعياء عرج على بستان زيوس وهناك غلبه النعاس فنام واتبعته إلهة الفقر وكانت عقيما لاتعقب فاضطجعت إلى جانبه وحملت بالحب .

ومن ههنا كان تعلق الحب بأفروديت إذ حمل به فى ليلة مولدها فهو لذلك مغرم بالجمال يتبعه ويهيم به .

وقد ورث الحب عن أبويه الفيض والفقر صفات جعلت له وضعاً خاصاً فهو أولا فقير وما هو بجميل وليست الرقة من صفاته بخلاف مايظن الكثيرون ولكنه فظ قاس حاف لامأوى له ، يفترش الأرض ويستريح على عتبات الأبواب

---

(١) المراجع السابق PP 135 - 147

وجوانب الطرق فى الهواء الطلق . وهو شديد الإخلاص لما ورث من طبيعة أمه فلا يقيم إلا على الحاجة وهو كذلك مخلص لما انحدر إليه من أبيه فهو لايفتأ يقتفى كل جميل ويتبع كل حسن وهو شجاع نشيط قوى المراس صياد ماهر يحبك خططه ( الستراتيجية ) راغب فى الحكمة مشغوف بها باحث عن الحقيقة وهو بعد ذلك على جانب عظيم من الاحتيال والسحر والكلام المعسول .

والحب بحكم مولده ليس بخالد ولا فان ، ففى يوم حياته وازدهاره تمتلىء نفسه وتفيض ، وبعد لأى يموت ثم لا يلبث أن يعود إلى الحياة بقوة الفيض التى ورثها عن أبيه ثم يتبدد هذا الفيض ويغيض . وهو بعد هذا ليس بفقير مدقع ولا غنى مكثر بل هو فى منزلة بين الإدقاع والإثراء ، وفى مكان وسط بين الحكمة والجهل .

والحكيم لاينشد الحكمة ولا يسعى إليها لأنه ليس فى حاجة إليها والجاهل لا يدرك الحكمة فيطلبها ولكنما ينشدها الوسط الواقع بين الحكمة والجهل فكذلك الحب إذ هو من أب فياض حكيم ومن أم جاهلة عقيم .

« وأنت يا عزيزى سقراط كنت تتوهم أن المحبوب هو الحب وهذا قادك فيما أظن إلى أن تصف الحب بأنه جميل رقيق كامل سماوى » .

ثم يسألها سقراط ما فائدة الحب للجنس البشرى فتجيبه : « إنه يجعلهم سعداء والسعادة تأتى من السعى فى إثر الخير والجمال ولا حاجة بك إلى أن تسأل ما غاية من ينشد السعادة لأن السعادة تطلب لذاتها » .

وليس البحث عن القسيم — كما مر فى كلام ارستوفانس — هو الحب إلا أن يكون القسيم خيراً لأن العضو السقيم يبتر إذا أيس من شفائه .

أما الوسيلة التى يعمل فيها الحب فهى السعى للاتصال بالجميل والاتحاد به عن طريق الجسم والروح معاً . ففى سن معينة يظهر فينا هذا الميل للاتصال والاتحاد — وهو ميل مقدس لأنه سبيل الخلود للمخلوق الفانى — وهذا الاتصال لايمكن أن يكون مع البغيض المنفور منه . والقبيح منفور منه والجميل محبب . وحين ينضج فى الفرد هذا الدافع يشعر بالميل إلى الاتحاد بالجميل ليحمل عنه وزرا يشعر بثقله ؛ فالحب إذن ليس للجميل ولكنه للاتحاد بالجميل وهذا الاتحاد المقدس الخالد يحفظنا من الفناء .

والحب وما يصحبه من المتاعب أحد أشكال الكفاح من أجل الخلود ، فالخلف

يحفظ السلف بشكل آخر يشبهه ويختلف عنه كما أن الانسان نفسه يختلف فى شبابه عنه فى شيخوخته وهكذا .

والناس فى الحب أحد اثنين . ذلك الذى لايعبأ بغير المادة ولا يرغب إلا فى الجسد فهؤلاء يحبون النساء وبالنسل ينشدون الخلود ؛ وأولو الأرواح الكبيرة التى تضم فى ثناياها الفضائل ، وهؤلاء ينشدون الجمال والأشياء الجميلة ، وإذا وقع أحدهم على روح شريف نبيل فى جسم لطيف جميل كان سروره بذلك عظيما .

ثم تحدثه ديوتيما عن التربية على الحب فتخبره أنها تبدأ بالجمال المشاهد ثم يرتقى حتى يحب الأجسام الجميلة كلها ويرتقى فيحب المشاهد الجميلة ، ثم يصل إلى المرتبة العليا وهى حب الجمال المطلق وينتهى به المطاف إلى معرفة جوهر الجمال .

« وبهذا يا عزيزى سقراط يجد الإنسان قيمة الحياة ، فهو حين يتأمل ذلك الجمال لايورثه التأمل خيالات وأوهاما وإنما يمده بالفضيلة لأن اتصاله يكون حينئذ بالحق لا بالوهم ، وحين يتحد الحق فى نفسه بالفضيلة يصل إلى صداقة السماء وهو دون الناس الخالد[1] » .

نستخلص مما تقدم أن الحب فى رأى أفلاطون حبان ، حب سماوى علوى وحب أرضى عامى ، ويمتاز الحب السماوى بأنه ليس موضوعه المرأة وإنما هو حب الذكور وأنه يتعلق بالروح فلا يعبأ بالجسد ولا يحفل بلذاته والمحب ينشد فى حبه أولى الأرواح الصافية والنفوس العالية والعقول الراجحة .

وهو حب عقلى غايته الأولى تحرر العقل وتبادل المنفعة الفكرية وغاية المحب فيه أن يربى المحبوب على التفكير والتأمل والفلسفة ويعينه على التعلم .

والحب فى رأيه قوة كونية كبرى ترمى إلى الجمع بين المختلفين لينتج من اجتماعهما الخير لهما ولمن حولهما .

أما أساس هذه العاطفه فى الإنسان فالخرافه التى أجراها أفلاطون على لسان ارستوفانس عن تقسيم الأرواح وشطر الأجسام وكيف أصبح كل شطر يحن إلى الشطر الذى فارقه ويبحث عنه ويتوق إلى الإتحاد به ، وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد واجتماع الشمل .

---

(١) Lysis Symposium. etc p 207.

والحب ليس فى ذاته خيراً أو شراً ، ولـكن ذلك يأتيه من الوسيلة التى يصطنعها المحب فيه .

وهو بعد وسيلة يسعى بنو آدم من طريقها إلى الخلود ، وهذا الخلود يختلف فهم الناس إياه فمنهم من يسعى إليه من طريق النسل ومنهم من ينشـده بالروح والعقل ، وهؤلاء هم الخالدون حقا .

والحب بعد ذلك الطريق لإدراك الحقيقة الأولى وتذوق الجمال المطلق .

وصفوة القول أن أفلاطون كان كأهل عصره ينظر إلى الحب على أنه حب الذكور للذكور وهو ماتسميه السيكولوجية الحديثـة « Homosexual love »

أما الحب الجنسى وهو العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة فـكانوا يعتبرونها حاجة جسمية لاتختلف عن الحاج الجسمية الأخرى مثل الطعام والشراب [١] ويفسر بعضهم ذلك بأن الخدمة العسكرية المستمرة التى كانت تفرض على الجنود البعيدين عن النساء صرفتهم إلى حب الذكور ، ولما جاء سقراط وهو طليعة الفكر اليونانى لم يزد على أن جعل هذه العلاقة الشاذة حبا عقليا يقوم على تربية المحبوب وترقية تفكيره [٢] .

هذه أمور ينبغى أن نلتفت إليها بإمعان لأن لها أثرها البعيد فى دراسة الحب عند العرب بعد أن ترجموا إلى لغتهم أدب اليونان وفلسفتهم .

فإذا نحن تركنا اليونان إلى الفلسفة الإسلامية كان لنـا فى هذا المقام منزلان لا بد أن نقف فيهما وقفة المستعرض المتأمل .

أول هـذين إخوان الصفا وخلان الوفا فى رسائلهم المشهورة ففيها فصل عن الحب أو بعبارة أخرى عن العشق ، أقول بعبارةأدق لأن العشق عندالعرب مرتبة فى الحب خاصة ومنزلة فيه قبلها منازل وسنوفى هذا حقه من البحث فى الفصل الآتى إن شاء الله .

يعرض كاتب هذا الفصل الأقوال الحكماء فى العشق وماهيته ثم يرجح قول من قال إنه شدة الشوق إلى الاتحاد [٣] .

---

(١) Greek Love in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.

(٢) المرجع السابق .

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ٣ ص ٦٥ ط بومبى .

ثم يقسم العشق إلى أصناف ثلاثة كما أن النفوس المتجسدة اصناف ثلاثة فهناك النفس النباتية الشهوانية وهناك النفس الغضبية الحيوانية وهناك النفس الناطقة . فأما النفس الأولى فتعشق لذات الجسد من مأكول ومشروب ومنكوح وأما النفس الثانية فتعشق القهر والغلبة والتسلط وحب الرياسة وأما النفس الأخيرة فمعشوقها المعارف واكتساب الفضائل[١] .

وهكذا المعشوقات « فهى مفننة بحسب مراتبها — مراتب النفوس — فى العلوم ودرجاتها فى المعارف وذلك أن النفس الشهوانية لا يليق بها محبة الرياسة والقهر والنفس الحيوانية لا يليق بها محبة العلوم والمعارف واكتساب الفضائل . والمحبوبات أصناف فمنها محبة الحيوان أو من هو كمثله الازدواج لما فيه بقاء النسل ومحبة الوالدين للأبناء ومحبة الرؤساء للرياسة والسيطرة وللمدح والثناء . . . . ومنها محبة أبناء الجنس وما يسمى العشق وما تصف العشاق من أحوالهم وأحوال معشوقيهم وما يجدون فى نفوسهم من الأفكار والهموم والأحزان والفرح والسرور والنشاط[٢] .

ثم يعلل المحبة التى تكون بين شخصين فزعم أن سببها « اتفاق مشاكلة الأشخاص الفلكية فى أصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض »

ولا يكتفى بهذا التعليل الفلكى فيردفه بتعليل فلسفى ميتافيزيقى قوامه أن العناية الإلهية قد ربطت أجزاء الكون وأطرافه برباط من العلية والمعلولية فكل شىء معلول لشىء فوقه وعلة لشىء آخر تحته . فالمعلول يشتاق إلى علته وينزع إليها والعلة ترأف بالمعلول وترأمه وتتحنن عليه . وذلك ظاهر فى عاطفة الآباء والأمهات نحو أبنائهم وفى شعور الأقوياء نحو الضعفاء وهكذا . ثم يتحدث عن حنو الأستاذ على طلابه وحبه لهم ورغبته فيهم ومن هنا يفسر ظهور هذا الحب — حب الذكور — فى الشعوب التى أخذت من العلوم والحضارة بنصيب[٣] .

ويعود بعد ذلك إلى تفسير الاتحاد الذى اختاره من بين أقوال الحكماء فيزعم أنه يختص بالأمور الروحانية والأحوال النفسانية لأن أمور الجسم لا يمكن أن يكون فيها اتحاد بل كل ما يمكن أن يكون هو المجاورة والممازجة والمماسة .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ٣ ص ٦٨ . يقارن بكلام أفلاطون .

والعاشق لا يزال يتمنى القرب والمجاورة من معشوقه فإذا أتيح له ذلك تمنى الخلوة فإذا أتيحت له تمنى ما بعدها وهكذا لا يقنع بشيء . ولهذا يقول ابن الرومى :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يجتمعان

وله فى تعليل اشتداد الشوق وازدياد اللهفة من العاشق والمعشوق كلام أنقله على سبيل التفكهة . يقول : « ويفسر اشتداد شوق العاشق إلى المعشوق بأن كلا منهما إذا بلع ريق صاحبه نزل إلى المعدة وامتزج بتكوين جسمه وكذلك إذا تقاربت أنفاسهما فشم كل نفس الآخر ودخل إلى الرئة واختلط بالدم فلذلك يزداد شوق كل منهما إلى الآخر[١] » .

ويختم الفصل بلمحة قيمة مجملها أن الإنسان إنما يحب من يحب لصفات ومحاسن يشهدها فيه ثم إذا تغير المحبوب ورجع المحب إلى نفسه وجد تلك المحاسن والصفات منقوشة فيها باقية لم تتحول ثابتة لم تتغير ووجد أن ما كان يحبه فى الشخص الآخر موجود فيه مكنون فى داخل نفسه[٢] .

والناس عوام وخواص فالعوام هم أولئك الذين إذا رأوا منظراً حسناً أو مخلوقاً جميلا اشتاقوا إلى النظر إليه والقرب منه والتأمل فيه ، والخواص أولئك الذين إذا رأوا مثل ذلك تشوقوا إلى مبدعه وتطلعوا إلى صانعه .

* * *

وللشيخ الرئيس أبى على بن سينا رسالة فى العشق تحوى سبعة مباحث أولها سريان العشق فى كل واحد من الهويات ، وثانيها وجود العشق فى الجواهر البسيطة غير الحية وثالثها وجوده فى الموجودات ذات القوة المغذية ، ورابعها وجوده فى الجواهر الحيوانية من حيث لها القوة الحيوانية وخامسها عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان ، وسادسها عشق النفوس الإلهية وخاتمة .

والعشق عند ابن سينا هو النزوع إلى الكمال والكمال هو الخيرية المنبعثة عن الخير المحض وكل من الهويات ينزع إلى الكمال وينفر عن النقص والموجود إما أن يكون مستعداً لنهاية الكمال أو أن يكون خالياً من الكمال أو متردداً

(١) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٢) يلوح لى أن هذا شبيه بنظرية المثل عند أفلاطون ولعله مقتبس منها .

بين النقص والكمال . فأما الخالى من الكمال فهو موجود كالمعدوم أو فى حكمه ، وأما المتردد بين النقص والكمال فهو الذى لا يزال ينزع إلى الكمال وينفر من النقص فهو يشتاق إلى كماله فى حالتى حضوره وغيابه ؛ أما فى حالة الحضور فرغبة فى الاحتفاظ به وإشفاقا من عدمه وأما فى الغياب فقلقاً لبعده (١) .

وهذا العشق أو نزوع الشىء إلى كماله موجود فى البسائط الحية الثلاث وهى الهيولى والصورة والأعراض . أما الهيولى فيتجلى العشق فى نزوعها إلى الصورة إذ لا يتم لها وجود بدونها ، والصورة يبدو عشقها فى مظهرين أحدهما ملازمتها للهيولى ونزوعها إليها والثانى نزوعها إلى الكمالات وعشق العرض ظاهر فى ملازمته للجوهر (٢) .

والعشق موجود أيضا فى النفوس النباتية بأقسامها الثلاثة : قوة التغذية ويظهر عشقها فى الشوق إلى حضور الغذاء عند الحاجة إليه وبقائه فى المغتذى بعد أن يصبح جزءاً منه ، وقوة التنمية ويبدو ذلك فى شوقها إلى الزيادة فى أجزاء المغتذى ، وقوة التوليد ويتجلى العشق فى نزوعها إلى إيجاد المثل (٣) .

وهو كذلك موجود فى القوى الحيوانية يصرفها فى مسالكها ومنافعها ؛ فالحواس الخارجية تألف بعض المحسوسات دون بعض ، وترتاح إليها ولولا هذا النزوع إلى ما تألفه وترتاح إليه لكان وجودها فى النفس عبثا لا طائل تحته ولما تورعت عن مباشرة المضرات . والحواس الباطنية ترتاح إلى بعض التخيلات المروحة وتشتاق إليها والقوة الغضبية يظهر عشقها فى نزوعها إلى الانتقام ونفورها من الاستكانة والذل .

والقوة الشهوانية الحيوانية هى أظهر القوى وأجلاها ، وعشقها يبدو فى الشوق إلى التكاثر والتناسل إلا أنه عشق أعلى من عشق باقى القوى وأرفع ، والطريق التى تسلكها فيه أقوم وأفضل ، وهى قد توافق القوة النباتية فى الغرض من حيث حصوله لا بقصد اختيارى كما هو الأمر فى الحيوان غير الناطق فهو لا يدرك بعد إشباع الشهوة غرضا .

---

(١) جامع البدائع — ط مطبعة السعادة . الرسالة الثامنة فى العشق لابن سينا ص ٦٩ — ٧٠ . يقارن هذا بكلام أفلاطون عن الحب ومنزلته بين الحكمة والجهل .

(٢) المرجع السابق ص ٧٢ — ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٤ .

والعشق بعد هذا نوعان عشق طبيعى يندفع فيه العاشق إلى معشوقه ولا يقف حتى يظفر بغرضه إلا أن يصده عنه « قاسر خارجى كالحجر فانه لا يمكن أبداً أن يقصر عن تحصيل غايته وهى الاتصال بموضعه الطبيعى والسكون فيه من ذاته اللهم إلا من جهة عارض قهرى » وعشق اختيارى وهو الذى قد يعرض فيه العاشق عن معشوقه إذا وجد ضرراً يعترض طريقه إليه [١] .

ثم يخوض فى الحديث عن العشق الإنسانى فى الفصل الذى يسميه « عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان » فيمهد له بالحديث عن القوى النفسية وأن كلا منها تستفيد من انضمامها إلى قوة أعلى منها فى المرتبة فتزيد الأفعال الصادرة عنها زيادة فى الكم أو الكيف « بحسن الإتقان ولطف المأخذ » فإذا جاورت القوة النطقية القوة الشهوانية وانضمت إليها استعانت بها على حفظ النوع واستدامته ثم نتج من تجاورهما أن تعشقا حسن النظم واعتدال التركيب « فالقوة الحيوانية تفعل ذلك أداء لغرضها الأصلى وهو التوليد والتكاثر وأما النطقية فلعلمها أن ما حسن نظامه واعتدل تركيبه قرب من المعشوق الأول [٢] .

وهكذا تتعاون هاتان القوتان بالتجاور والامتزاج وينتج من ذلك قوة العشق الإنسانى — عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان — وهو نزوع إلى الصور الجميلة فيه الشهوة وفيه الإدراك .

* * *

ولنا بعد الذى مر وقفة عند أمور أهمها : —

١ — رابطة العلية والمعلولية وكونها سبب العشق ؛ وقد مر شرحها .

٢ — إن ما يعشقه الإنسان فى محبوبه من الصفات والمحاسن قائم فى نفسه — نفس المحب — فالعشق إذن أمر ذاتى « Subjective » وليس الموضوع فيه إلا أنه صورة لما فى النفس . أو بعبارة أخرى إن العاشق يعشق صورة فى نفسه يجد مثلها فى العالم الخارجى .

٣ — تفسير ابن سينا للعشق بانه نزوع الأشياء إلى كمالها وهو بذلك ينبسط على كثير من مظاهر الكون . والكمال عنده منبعث عن الخير المحض فالعشق إذن وسيلة لمعرفة الخير المحض وللتقرب منه . والعشق الإنسانى إذن مرحلة لها مابعدها وما بعدها هو العشق الإلهى وهذا يعيد إلى الذهن كلمة صوفية جميلة مرادها أنه

---

(١) جامع البدائع .

(٢) نفس المرجع ص ٧٧ — ٨٠ .

لا يصل إلى الحقيقة من لم يقطع إليها المجاز ، والمجاز هو الحب الانسانى والحقيقة هى الحب الإلهى الذى يفضى إلى المعرفة فالاتحاد .

٤ — وأخيراً يجدر بنا أن نتأمل فى حديث ابن سينا عن تجاور القوى وكيف تسمو القوة النطقية بالقوة الشهوانية فتحيل الشهوة حبا .

## ٢

وإذا نحن انتقلنا إلى الحب فى رأى المحدثين وجدناهم يقولون إن الحب حال نفسية تستمد معينها من الغرائز والدوافع الحيوية فى الإنسان وتخلق من تلك الغرائز والدوافع نظاماً مرتباً من الانفعالات تتحد فى عاطفة واحدة قوامها تعلق بالشىء المحبوب وسرور لوجدانه وانقباض لفقدانه ولا تزال تتطور حتى تبلغ بالمحب مراتب يشعر فيها بدوام الشوق واللهف إلى المحبوب فى حالتى حضوره وغيابه ويتمنى أن لو تمكن أن يتحد به فلا ينفصل عنه فيصبح الاثنان واحداً والروحان روحاً .

وهناك حقائق جديرة بالاهتمام فى هذا الباب منها ما يقع فيه كثيرون من الخلط بين الشهوة الجنسية[١] وبين الحب . فالحب عند كثير من الناس لا يزيد على توجيه الدافع الجنسى[٢] إلى شخص معين وهو إذن لا يعدو أن يكون مظهرا خاصاً من مظاهر الغريزة الجنسية ينتهى بإشباعها وتطمينها ولا يمتد إلى أكثر من ذلك .

وهذا خلف من القول فعلينا فى هذا المقام أن نميز بين أمرين : الدافع الجنسى وهو المظهر الغريزى الذى يبدو فى الاشتهاء الجنسى وبين الحب وهو الدافع الجنسى مقرونا بدوافع أخرى مستمدة من غرائز أخرى[٣] .

فالشهوة حاجة فسيولوجية تشبه الحاجة إلى الطعام تلك التى يعبر عنها بالجوع ويعبر عن الأولى بالجوع الجنسى (Libido)[٤] .

من علماء النفس من يرى أن الحب عاطفة[٥] ومنهم من يرى أنه انفعال مركب[٦] والفرق بين هذين أن الأولى مجموعة مرتبة من الانفعالات[٧] تدخل

---

(١) Lust

(٢) Sexual impulse

(٣) Havelock Ellis : Psychology of Sex, p 275.

(٤) S. Freud : Trois Essais sur la Theorie de la Sexualite, p 19.

(٥) Sentiment ....

(٦) Passion .....

(٧) Emotions .....

فيها عناصر عقلية وتمتاز بالثبات والاستقرار والثانى عقدة أو تركيب انفعالى ذو قوة دائمة فيه حماس وفيه شدة وفيه تركيز الانتباه إلى شىء يعينه وهو إذن مجموعة من الانفعالات مصدرها دوافع غريزية إذا تحللت من تركيبها ظهرت فى شكل رغبات شعورية وميول واضحة تثار فى وجهات متضاربة[١] .

وليس هذا الاختلاف ضرورياً إذ يبدو أن هاتين مرحلتان فى الحب تسلم أحداهما إلى الأخرى وهذا فيما يظهر أدنى إلى الصواب . فالحب فى أول ظهوره انفعال معقد مركب من دوافع غريزية أبرزها وأظهرها الدافع الجنسى الذى ينبعث عن الغريزة الحيوية التى ركبها الله فى الحيوان لحفظ النوع وكلما تقدم به الزمن انضافت إليه — إلى الانفعال المركب — عناصر من الحياة النفسية بعضها عقلى إرادى تقويه وتثبته فى النفس .

فالفرد فى أول مراحل الحب يحس به ولا يستطيع أن يعلله أو يفسره فهو لا يشعر بأكثر من انفعال شديد يملك عليه جوارحه ويسيطر على أجزاء نفسه ثم إذا طال عليه العهد استقر وثبت وامتزج بانفعالات شعورية وعناصر عقلية فيستطيع المحب آنئذ أن يعلل الحب تعليلا لا شأن لنا به من حيث الموضوعية أو الواقعية ولكنه تعليل على كل حال ومنفذ للقوى الشعورية والإرادية تبرر فيه سيطرة هذه العاطفة عليها وامتلاكها إياها .

نخرج من هذا الذى بسطناه بأن الحب عاطفة مكونة من انفعالات بعضها غريزى فسيولوجى وبعضها شعورى عقلى . أما الغريزى الفسيولوجى فذلك الدافع الجنسى الذى يعرف بالشهوة وهو حاجة جسمية تشبه حاجة الجسم إلى الغذاء — كما سبق — وأما العقلى الشعورى فهو الذى يهدف إلى ضبط النفس وتنظيم الدوافع الفسيولوجية لتنسجم مع حاجات الإنسان وما تفرضه عليه البيئة التى يعيش فيها .

ومن العجيب أن الدافع الجنسى — وهو كما سبق أن قلت — حاجة فسيولوجية أصلها أنانى[٢] مبعثه حاجة جسمية يصبح فى آخر مرحلة من مراحل تطوره عاملا إيثاريا[٣] فيه التضحية ونكران الذات . ولا يقف هذا العامل

---

(١) Boyce Gibson : Love Psychologicaly & Ethicaly in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٢) Egoist. (٣) Altruist.

الإيثارى عند حد ، بل قد يسيطر على الأنانية ويكبح جماحها فيمحوها فلا تعود تظهر بجلاء . على أن ذلك لاينبغى أن ينسينا الارتياح الأنانى[١] الذى يهدف إليه هذا الإيثار[٢] .

والحب فى حقيقة أمره ليس إلا مظهرا من مظاهر التكيف وفقا للمحيط ، فالنفس الإنسانية لاتعدو أن تكون فى الأصل مجموعة من الغرائز والدوافع الحيوية إذا أطلق عنانها أخذت طريقها الطبيعى وسارت فيه إلا أن ذلك لابد أن يكون داعيا للتصادم والاحتكاك بين الأفراد فاقتضى تجنب هذا التصادم أن تنظم هذه الغرائز والدوافع ، وتتكيف بحيث يضمن المحيط للمجموعة البشرية حياة أقرب إلى الهدوء والاطمئنان والنظام .

وهكذا مظاهر السلوك الإنسانى فهى ليست إلا غرائز ودوافع طبيعية مكيفة بحيث تفى بحاج الإنسان من غير أن تؤدى إلى اصطدامه بغيره ، على أن قابلية التكيف هى الأخرى طبيعية فى الإنسان .

ونعود إلى ماسبق الكلام فيه من تركيب عاطفة الحب وتكوينها فنقول : إنها تحتوى على العنصر الإدراكى فى الأرجح . ومن العلماء من يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن الغريزة وهى عنصر أولى بسيط من العناصر المكونة للحب تحتوى على العنصر الإدراكى أيضاً . يقول الأستاذ مكدوجل : « وقد سبق أن بينت أن تكوين الغريزة يشمل على العموم اتجاها إدراكيا واحداً أو أكثر يجعل الفرد قادرا على إدراك الأشياء أو الأوضاع التى تتطلب نشاطا غريزيا .

« والغريزة الجنسية التى لاتنضج فى الفرد قبل أن تتطور فيه قابلية الإدراك والقدرة على ضبط النفس أحرى بأن يلاحظ فيها ذلك »[٣] .

ولقد حلل هربرت سبنسر[٤] عاطفة الحب إلى تسعة عناصر : —

(١) الدافع الجنسى Sexual Impulse

(٢) الشعور بالجمال

(٣) الانجذاب Affection

(٤) الإعجاب والاحترام Admiration and Respect

---

(١) Egoistic gratificatiou.

(٢) Havelock Ellis : Psychology of Sex, p 276. .....

(٣) W. Mc Dougal : Introduction to Social Psychology, pp 340—341.

(٤) Herbert Spencer : Principles of Psychology .....

(٥) حب الاستحسان The Love of Approbation

(٦) إكبار النفس Self Esteem

(٧) الشعور بالملك Appropriety Feeling

(٨) اتساع حرية الفعالية نتيجة تحرر الشخصية Extended Liberty of Action from the Absence of Personal Barriers

(٩) صفاء المودة Exaltation of Sympathies

ويضيف ( هافيلوك إليس ) إلى ذلك عنصر الأبوة فى حب الرجل وعنصر الأمومة فى حب المرأة وهو يلاحظ هـذا فى سلوك الرجل المحب نحو حبيبته وكيف يحيطها بحنان يشبه حنان الأب ويستشهد لذلك بما ينادي كل منهما الآخر مثل Mon Petit,O child الخ وكذلك يفعل الأستاذ مكدوجل إلا أنه يزيد على غريزة الأبوة (١) دافع الحماية (٢) وانفعال الرحمة (٣) .

أما علاقة الحب بالغريزة الجنسية ففى ما اطلعت عليه من أبحاث علماء النفس اتجاهان . أحدهما يجعل الحب تطوراً محضاً للغريزة الجنسية أو بعبارة أخرى انحرافا جنسياً "perversion" وهذا رأى الاستاذ سيجمند فرويد رأس مدرسة التحليل النفسى والاتجاه الآخر يرى — كما أسلفت — أن الحب عاطفة أو انفعال مركب يدخل فى تكوينه دوافع غريزية عديدة وينضاف إليها عناصر من الإدراك والتعقل وليس الدافع الجنسى إلا واحداً من دوافع غريزية عديدة .

ولا ينكر القائلون بذلك أن الغريزة الجنسية هى نقطة البدء فى مرحلة الحب ولكنها تجتمع إليها بعد التطور الجنسى الكامل انفعالات متحدة مستمدة من العلاقة بالوالدين فيكون حب المرأة ممزوجاً بالحنان والصبر وحب الرجل مشوبا بانفعالى المحافظة والحماية وكل تلك مشتقة من العلاقة الأبوية (٤) . يضاف إلى ذلك أن الغريزة الجنسية وهى — كما سبق — نقطة البدء فى مرحلة الحب لا تنضج من قبل أن تتطور فى الفرد قابلية الإدراك والقدرة على ضبط النفس (٥) .

هذه العناصر التى أتينا على طائفة منها تتضافر للعمل على تلطيف الشهوة والحد من عنفها وحدتها ، ولا تزال تفعل ذلك حتى إذا اكتمل نماء الحب

---

(١) Paternal Instinct.

(٢) Protective Impulse.

(٣) Tender Emotion.

(٤) Ellis, p 276.

(٥) Mc Dougal : Introduction.... p 341.

واتسع مجاله وتم تركيبه لم تعد الشهوة — وهى التعبير عن الدافع الجنسى — إلا عنصرا ثانويا بين العناصر الأخرى الكثيرة[١] .

أما الأستاذ سيجمند فرويد فيعرف عنه أنه يرجع بكثير من ألوان النشاط الإنسانى إلى الغريزه الجنسية [٢] .

وهو فى دراسته لهذه الغريزة يصطنع اصطلاحين أساسيين هما : الموضوع الجنسى[٣] والغاية الجنسية[٤] .

وهو يلاحظ أن الاختبار العلمى قد أثبت أن هناك انحرافات تتصل إما بالموضوع الجنسى أو تتعلق بالغاية الجنسية .

أما الانحراف فى الموضوع الجنسى فيبدو فى طائفة من الأفراد يكون الموضوع الجنسى عندهم فردا من جنسهم لا من الجنس الآخر وهم الذين يقال لهم «Homosexuel» وهم الشواذ «Invertis» [٥] ولا شأن لنا بهم .

وأما الغاية الجنسية فهى إشباع الغريزة عن طريق الاتصال الجنسى وهو شبيه بتطمين الجوع . ويلاحظ فرويد فى بعض الأحوال الجنسية السوية ميلا إلى إلى التطور تتصل به انحرافات قد تبلغ بالفرد إلى الامتناع الجنسى . ويرجع فرويد بهذا الامتناع وما يقاربه إلى ظاهرة يطلق عليها « إكبار الموضوع الجنسى [٦] » أو « المبالغة فى قيمته » وذلك بأن يراه الفرد أكثر من أداة لتطمين الغريزة عن طريقها الطبيعية . ويتجلى هذا الإكبار فى سيطرة الموضوع الجنسى على نفسه سيطرة يصحبها شىء من الذهول وفقدان للمعيار الذى به يقومه ويتذوقه . وتفعل العقيدة «credulité» فعلها فى تمكين هذه الحال وتثبيتها [٧] .

وعرض فرويد لحال تتصل بالإكبار الجنسى ويستعاض فيها عن الموضوع الجنسى السوى [٨] بأشياء تتصل به وتعود إليه ولكنها ليست على أية حال صالحة لأن تكون موضوعا جنسيا سويا من هذه الأشياء جزء من جسم الموضوع

---

(١) Ellis, p 278.

(٢) Mc Dougal : Psychoanalysis & Social Psychology, p 62.

(٣) L'objet sexuel.

(٤) Le but sexuel.

(٥) S. Freud : Trois Essais sur la Theorie de la Sexualite, p 20.

(٦) Surestmation de l'objet sexuel.

(٧) Freid : Trois Essais ...., p 38.

(٨) L'objet sexuel normal.

الجنسى أقل صلاحا للغاية الجنسية كالشعر والاقدام أو يتصل بجسمه ويلامسه كالملابس وما إليها . وهو يسمى هذه الحالة « Fetichisme » ويلاحظ أن التحول الجنسى الذى يحدث عن طريق الاكبار يشبه أن يكون ضرورة سيكولوجية لذلك تلاحظ هذه الظاهرة فى الحب السوى وبخاصة فى فترة الحب التى لا يمكن فيها الوصول إلى الغاية الجنسية أو لايمكن بلوغها فى وقت قريب (١) وأكثر هذه الأحوال يرجع سببها إلى الأثر القوى لانطباع جنسى عنيف يكون غالبا فى دور الطفولة ، وهذا يذكر بالمثل السائر عن الحب الأول (٢) .

مما تقدم يتضح لنا أن فرويد لا يكاد يعتبر فى الحب شيئاً آخر غير الغريزة الجنسية أو الدافع الجنسى الذى إما أن يمهد له السبيل وتفتح أمامه الأبواب فيسلك الطريق الطبيعية المعروفة ، وإما أن توصد فى وجهه ويعسر ولوجها عليه فينحرف إلى سبيل أو سبل أخرى هى فى رأى فرويد تحول وانحراف .

ولقد مر بنا أن فرويد حاول أن يفسر أوجه النشاط النفسى فى الإنسان عن طريق الغريزة الجنسية فى نظريته المعروفة باسم « The Theory of the Libido » وتعسف فى رد الفعاليات الإنسانية إليها ولكنه أدرك فيما بعد أن هنالك قوى خارجة عن الغريزة تستطيع أن تكبتها أو تقاومها أو تعليها (٣) .

ومن ثم فقد قرر فى كتابه « محاضرات جديدة فى التحليل النفسى » أن هناك غريزتين أساسيتين فى الإنسان تتصادمان وتتعارضان هما غريزة الجوع وغريزة الحب أولاهما تهدف لحفظ النفس والثانية لحفظ النوع .

وإذا جاز لنا أن نرجح أحد هذين الاتجاهين فليس لنا إلا أن نميل إلى رأى مكدوجل وإليس ومن شاكلهما فهو فيما أظن أقرب إلى طبيعة النفس الإنسانية وما تشتمل عليه من قابليات الإدراك والتفكير بالإضافة إلى الغرائز الحيوية الأخرى .

وإذا كانت النفس الإنسانية وهى مجموعة هذه الغرائز والدوافع تعمل كوحدة وهى كذلك فى الواقع فلا ريب أن مظاهر السلوك الإنسانى وألوان نشاطه ثمرات

---

(١) Freud : Trois Essais ...., p 43—46.

(٢) On revient toujours a ses premiers amours.
وهو مثل قول أبى تمام :
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

(٣) Mc Dougal : Psychoanalysis & Social Psychology, p 62.

تتضافر هذه القوى فى تكوينها والحب كمظهر من مظاهر الحياة الإنسانية وجانب من جوانب السلوك الإنسانى لابد أن تشترك فى تكوينه القوى النفسية العديدة التى ذكرناها .

* * *

وهناك عنصر أساسى يعتبره بويس جبسون[1] ضرورة أولية فى الحب ، ذلك هو انفعال السرور « Joy » وهو أن يكون لك سرور بالشىء لذاته لا لأنه يطمئن فيك رغبة أو يسد فى نفسك حاجة وهو شىء آخر غير الارتياح « Pleasure » وهو الذى يتأتى من سد حاجة أو قضاء وطر .

وأنت إذ تسر بالشىء لذاته يتصل سرورك بالموضوع ولا يتصل بشخصك . وأنت إذ تقوم الشىء لذاته تنعدم فيك الرغبة المنبعثة من دوافع غريزية .

وهذا السرور ليس فيه محاولة الحصول على الشىء وإنما هو توجيه النفس إليه وانفرادها به وبقاؤها فيه مع احترامها لفرديته .

وإلى جانب السرور هناك الأسف « Sorrow » وهو يقابل السرور فكما يسرك حضور الحبيب يؤسفك غيابه وأسفك هذا تصحبه تخيلات وتصورات تزيد فى قيمة الحبيب وتقف بك على ما يمتاز به مما يثير فيك السرور بقربه حتى إذا ابتعد أخذ الأسف لبعاده يبالغ فى قيمه وصفاته ويضاعفها فيزداد سرورك بقربه ويعمق ويقوى .

وهكذا يتعاون السرور والأسف فى تمكين الحب من النفس على أن السرور أثبت وأقوى وأدوم بخلاف الأسف فهو وقتى يظهر عند اختفاء السرور . أو هو على حد تعبير بويس جبسون باحث دائب عن سرور مفقود ولا كذلك السرور .

## ٣

وبعد أن عرضنا لألوان من تفسير الحب فى الفلسفة القديمة وفى العلم الحديث نريد أن نجول جولة عامة لعلنا نستطيع أن نخرج منها بفكرة عامة . وقد حرصت على أن أعرض للفلسفة وللعلم الحديث من بعدها وكل منهما يصور مرحلة من مراحل التفكير الإنسانى تختلف عن الأخرى فى الأساس الذى تقيم قواعدها عليه وفى السبيل الذى تسلكه إلى الحقيقة .

---

(١) Love : Psychologically and Ethically in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.

فأما الفلسفة فنحن نعلم أنها تمتاز بالنظرة الواسعة الشاملة للكون وتحاول أن تربط بين أجزائه وتكشف عن علاقات بعضها ببعض وهى لا تكاد تؤمن بالجزئية فى بحثها . وأما العلم فيقر بعجزه عن مثل ذلك ويعلن يأسه من الوصول إلى الحقيقة عن هذا السبيل فهو يستعين على ذلك بالتجزئة والتقسيم وبغير ذلك يستحيل عليه أن يقرر نتائج ثابتة لأبحاثه أو بعبارة أدق يتعذر عليه أن يضطلع بمهمته التى تقوم على قاعدته العتيدة — التجربة والملاحظة .

وقد تبين هذا بشكل واضح فيما سبق أن عرضته من كلامهما فى الحب فرأينا الفلسفة تميل إلى اعتباره ظاهرة عامة فى الكون تنتظم كثيراً من أجزائه وتشيع فى كثير من ثناياه . وشاهدنا كيف يتلمس الفلاسفة خاصة أو صفة مما يختص به أو صفة مما يمتاز به تصدق على مظاهر الكون كلها أو أكثرها فيجعلونها الصفة الأساسية فيه ليستقيم لهم بحثهم وتسلم لهم طريقتهم .

ورأينا كيف تناول العلم هذه المسألة فجاءها من أقرب طريق إليه وأهون سبيل عليه فعدل عن التعميم إلى التخصيص وقصر همه على الحب كظاهرة نفسية إنسانية .

ولعل العهد بكلام أفلاطون غير بعيد فإنه لا يمكن أن يعتبر فلسفة بالمعنى الدقيق للفلسفة بل هو إلى الأدب أقرب وإلا فما قيمة تلك الإفاضة فى الحديث عن الآلهة وفى الخرافات التى تدور حول بنى آدم فى ماضيهم السحيق . على أننا قد وقفنا فيه على لمحة أو لمحات فلسفية قيمة أجدرها بالتنويه ما جاء على لسان أريكسيماخوس من أن إله الحب إله عظيم يسيطر على أجزاء الكون ويؤثر فيها فهو بجمعه بين المختلفين ينتج الخير والخصب والنماء كما هو الأمر فى تأليفه بين الجفاف والرطوبة وبين البرد والحرارة . وفيه لمحات تدخل فى الفلسفة الخلقية من أوسع الأبواب مثل كلامه عن مكان الحب بين الحكمة والجهل وبين الغنى والفقر وأنه لذلك ينشد الحكمة ويشغف بها ويغرم بالجمال ويتبعه وأنه ضمان من الفناء ووسيلة إلى الخلود .

وأخيراً هذه الصفة العقلية التى يخلعها على الحب العلوى الذى لا يقوم من الحب غيره . وكيف جعله أداة فى يد المحب يربى بها محبوبه ويرفع من شأنه عقلياً وروحياً حتى يصل إلى إدراك الحقيقة الأولى وتذوق الجمال المطلق .

وإذا انعطفنا إلى الفلسفة الإسلامية بدا لنا ما سبق أن أشرت إليه من توسيع

ظاهرة الحب وتعميمها على مظاهر الكون ما أمكن ذلك والتماس صفة من صفاتها تصدق فى أجزاء الكون فيجعلونها هى الأساس فيه . فقد أخذ إخوان الصفا ما أسموه « شدة الشوق إلى الاتحاد » فجعلوها الصفة الأساسية للحب وسعوا فيها ما استطاعوا حتى طووا تحتها القوى الحيوية وغيرها .

وهكذا فعل ابن سينا فعقد فصلا لسريان العشق فى كل واحد من الهويات وفصلا آخر لوجود العشق فى الجواهر البسيطة غير الحية وآخر لوجوده فى الموجودات ذات القوة الحيوانية . . . الخ وجعل العنصر الأساسى فى العشق هو النزوع إلى الكمال المنبعث عن الخيرية .

ولآراء ابن سينا فى الحب الإنسانى قيمة كبيرة وبخاصة ما يتصل منها بالقوى النفسية وتجاورها وما يحدثه ذلك من زيادة فى نتاجها كماً وكيفاً، وكيف تؤثر القوة النطقية فى القوة الشهوانية فتزيدها شرفا وبهاء وتجعل الأفعال الصادرة عنها أرقى وأفضل وأشرف فتصبح الشهوة — التى مرادها الاتصال الجنسى لغاية التوليد — تعشق اعتدال التركيب وحسن النظم . وهذا الكلام يتفق إلى أبعد مدى مع ما يقرره علم النفس الحديث فى تركيب عاطفة الحب ووجود العنصر العقلى فيها وعمله على تلطيف الشهوة .

فإذا وصلنا بعد ذلك إلى علم النفس الحديث نجد أنه سلك فى بحثه الحب سبيلا غير التى سلكتها الفلسفة فهو قد عدل عن التعميم إلى التخصيص وشغل نفسه بما يقع تحت الحس وما يخضع للمشاهدة والتجربة فقصر همه على الحب كما تظهر آثاره فى بنى آدم وأعرض عن الكلام الميتافيزيقى الذى مر بنا فى الفلسفة من انتظام الحب للقوى النفسية والمظاهر الكونية وشيوعه فيها .

فأما فرويد فقد أغرق فى المادية حتى أسف بالحب إلى حضيض الشهوة الجنسية ولم يقم لإنسانية الإنسان كبير وزن ولا اعترف بغير هذه الشهوة قوة تسيره مباشرة أو بالواسطة . ولعل ذلك جاء من إفراطه فى التعويل على التجربة المحسوسة وإغفاله لما لا يقع فى نطاقها من القوى التى تسير الإنسان ولا تعرف إلا بنتائجها . على أن هناك فريقاً من علماء النفس أكد التمييز بين الحب والاشتهاء واعترف للحب بأنه عاطفة مركبة من دوافع غريزية وعناصر عقلية فيها ثبات وقوة وضبط للنفس .

وقد اكتشف بويس جبسون عنصراً أساسياً فى عاطفة الحب يوسع أفقه ويفسح

تأثيره ذلك هو انفعال السرور بالشيء لذاته . وما اظن ذلك يقاصر على الحب الإنسانى الذى لم يبحث علم النفس فى غيره ، بل لعلنا واجدوه فى حب الإنسان لذوات الحياة ولغير ذوات الحياة أيضاً .

ولعلى لا أركب شططاً إذا اتخذت هذا السرور بالمحبوب لذاته تكأة ألوذ بها واستند إليها فى تكوين فكرة عامة عن الحب لا أدعى فيها الدقة ، فأقول إنه ظاهرة إنسانية قوامها الميل والألفة والتعلق ، تأتى نتيجة لتجربة نفسية ملائمة ترتاح لها النفس وأنا إذ أقول النفس أعنى القوى الشعورية والعقلية المختلفة التى تعمل مجتمعة وتنتج السلوك "Behaviour" .

هذه الألفة ميل معقد تعمل فيه الحاج الجسمية والنفسية التى تكلم عليها علماء النفس أثناء تحليلهم لعاطفة الحب ثم تقوى هذه الألفة وتشتد كلما مرت بتجارب موافقة حتى تبلغ بالإنسان إلى ما نشهده فى العشاق وما نقرؤه عنهم من شديد التعلق بمعشوقيهم .

ولعل من المفيد أن نشرح الألفة شرحا علمياً مبنياً على قاعدة نفسية معروفة ؛ فالألفة ليست إلا استجابة نفسية موافقة تتصل بأولية من أوليات علم النفس تلك هى ما يسمى بقانون المثير والرجع "Stimulus-Response" وهى فى غير حاجة إلى الإيضاح .

والحياة كلها مثيرات تستجيب لها النفس استجابة تتوقف فى كمها وكيفها على حال النفس وحال المثير . ولعلنا فى غنى عن أن نقول إن أشد المثيرات أثراً فى النفس ما صدر عن الأشياء التى للنفس بها حاجة ومن هنا تنشأ الألفة . وعلى سهولة الاستجابة وسرعتها تتوقف الألفة أو النفرة .

ومن هنا يبدو أن الألفة ليست قاصرة على أفراد الإنسان ولكنها عامة فى مايثير ويستجيب ، وقد لاحظ ذلك بعض علماء النفس فذكرها فيلوك إليس : أن من الطير مايموت لفقد أليفه ، واعترف بأن ذلك لايمكن أن يكون بسبب الغريزة الجنسية بل إنه آت من اشتباكها بمظاهر الحياة إلى درجة نادرة بين كثير من الإنسان المتمدن (١) .

على أن هذه الألفة أوضح صورة فى بنى آدم وأبين معالم ؛ ذلك لأن نفوسهم قابلة للمشاهدة ، وحركاتها خاضعة للتتبع والملاحظة ، ولنضرب مثلا على ذلك بما

---

(١) Havelock Ellis : Psychology of Sex, p 277.

نعرف وما نشهد من ألفة بين بعض الناس للحيوان وألفة آخرين لأشياء من غير ذوات الحياة ، ولعلنا لو رجعنا إلى نفوسنا لوجدنا فيها من ذلك أشياء وأشياء ، وصحيح أن هذه الألفة ليست على شيء من القوة بحيث يصح أن تضاف إلى الحب ولكنها على كل حال مرتبة من مراتبه والعنصر الأساسى فى تكوينه .

ولعلى بهذا أستطيع أن أقول إن الحب قوة لها من الشمول حظ أى حظ ولكن أظهر مظاهرها وأوضح صورها هذا الحب الإنسانى الذى تقوم أواصره بين فردين من بنى آدم فتحلو لهما فى ظله الحياة ، وتعذب رغم ما فيها من مرائر ولولاه لكانت أشبه بعيش البهائم حوائج جسمية ورغبات ماديه ليس بعدها شيء وليس فوقها شيء . وللحب فى حياة الإنسان مظاهر عديدة لا يمكن أن تخلو منها فمن حب الوالدين وهو أسمى صنوف الحب وأحفلها بالايثار ونكران الذات إلى الصداقة إلى الحب الجنسى . وهو — بل جزء منه — موضوع البحث فى هذا السفر .

وقوام عاطفة الحب كما مر بنا فى البحث النفسى أمور ثلاثة :

١ — انصراف المحب إلى محبوب واحد وقصر اهتمامه عليه وانتباهه إليه . وإذن فهؤلاء الذين يدعون الحب وهم يقتفون الجمال والظرف والرقة ويتبعونها حيث كانت هؤلاء ليسوا بمحبين وإنما يصح أن يقال إنهم ذواقون للجمال يتهافتون عليه أين رأوه وأنى لقوه . وينبغى هنا أن نتنبه إلى التمييز بين المعجب بالجمال أو ذلك الذى يظن شيئاً أبلغ فى الوفاء بحاجه الجسمية من شيء آخر وبين المحب المنصرف إلى محبوبه لا يتجه إلى غيره ولا يفكر فى سواه .

ولما أبى إلا جماحا فؤاده ولم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها فإذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

٢ — أن يكون شعور المحب نحو المحبوب من سرور بحضوره وأسف لغيابه بريئاً من الغرض أى أن يسر به لذاته لا لأنه يطمئن فيه رغبة أو يقضى له شهوة . وإذن يخرج من بين المحبين أولئك الذين يمتزج شعورهم نحو من يحبون بالرغبة فى قضاء وطر أو اشباع شهوة . ليس هؤلاء بمحبين ولكنهم يرون فيمن يدعون حبهم موضوعا جنسياً أبلغ فى إشباع الغريزة .

٣ — وأوضح ما يبدو لنا فى الحب أنه عاطفة ثابتة مستقرة لا تعصف بها النزوات وهو على حد التعبير السيكولوجى « نظام مرتب من الانفعالات الصادرة عن دوافع حيوية فيه استقرار وفيه ثبات وفيه ضبط للنفس » أما الذى يدعى الحب

ولا يقيم عليه ولا يثبت فيه فأحد اثنين محب لم تكتمل عاطفة الحب فى نفسه بعد فهى قلقة كالريشة فى مهب الريح أو طائش ليس فى نفسه الاستعداد للحب وإنما هى نزوات الغريزة تنزو به فيحسبها حباً وما هى بالحب .

هذا ولست أنكر أن هذه قيود ثقيلة قد تسخر منها نفوس القرن العشرين ولكنها ليست لحسن الحظ من صنع المثالية الفلسفية فى القرون الأولى وإنما هى نتائج لأبحاث ودراسات علمية معاصرة ولو كانت من عند غير العلم لوجدوا فيها اختلافا كثيراً .

وهناك سؤال جدير بالتأمل خليق بالتفكير أطرحه ولا ألزم نفسى الإجابة عليه فقد جهد الباحثون فى الحب فى الكشف عنه فما استطاعوا أن يأتوا بما ينقع الغليل . ذلك السؤال هو . لماذا يختص المحب بحبه هذا دون ذاك من الناس ؟ لقد شغل هذا السؤال أفلاطون فماذا فعل . إنه لم يجىء بغير خرافته المشهورة عن شطر الأجسام وتقسيم الأرواح . وحاول الذين كتبوا عن الحب بالعربية أن يردوا الأمر إلى المشاكلة فى الطبائع والمناسبة فى الخلائق[1] فما شفوا فى النفس غلة ولا بلوا فيها أواما .

وهو سؤال لا أظن العلم الحديث يملك أن يجيب عليه ذلك العلم الذى لانزال نشهد تعثره فى البحث عن النفس الإنسانية لذا رأيناه يعرض عن هذا المشكل ويتجاهله ولا ينبه إليه .

ويسلمنا هذا إلى الكلام فى الجمال وهل يكون السبب للحب. وقد تعرض له كثير ممن كتبوا فى الحب وكادوا يجمعون على أنه ليس السبب الأول ولكنه يمكن أن يكون واحداً من أسباب عديدة تؤدى إلى الحب وتهيء النفس إليه .

وقد عقد ستندال فى كتابه عن الحب فصلا جعل عنوانه « الحب ينزل بالجمال عن عرشه[2] » وعد فيه أحوالا كثيرة شهدها أو سمع بها تؤيد ماذهب إليه من أن الحب لا يتعلق بالجمال ولا يتوقف عليه .

ومهما يكن من شيء فالجمال شيء ترتاح إليه النفس وتطمئن وتستسلم وفى غمرة الإعجاب والاستسلام لسلطانه تستولى قوى الحب الأخرى التى نجهل بعضها فتدخل النفس عنوة ، فهو طليعتها يمهد لها ويسر أمرها أو هو المثير الذى يوقظ فى النفس الاستعداد لتلقى الحب .

---

(١) يراجع فى ذلك مثل « مصارع العشاق » و « روضة المحبين » و « تزيين الأسواق » وغيرها .

(٢) Stendhal : On Love, p 44—45 « Beauty is dethroned by love »

# الفصل الثانى

## أصـــناف الحب

معلوم أن العواطف الإنسانية تتحد فى أصولها وفى مبعثها وفى جوهرها ولـكنها بعد ذلك تختلف فى أشكالها وفى مظاهرها تبعاً لاختلاف النفوس فى الاستعداد وفى غلبة بعض القوى النفسية على بعض.

وعاطفة الحب كـكل العواطف إذن يختلف مظهرها باختلاف النفوس. والنفس تخضع لعاملين طبيعيين: الوراثة والبيئة فباختلاف الوراثة يختلف شـكل العاطفة وبتغير البيئة يتغير مظهرها.

### ١

والعربية حافلة بأسماء للعلاقة بين المتحابين حتى لقد بلغ بعضهم بها إلى الستين (١) وكلها مراتب لهذه العلاقة أو أصناف كثر ورودها فى الأدب العربى وانبثت فى شعره ونثره وفيها ما هو صفة من صفات الحب أو حال من أحوال المحب.

وقد عقد أبو منصور الثعالبى فى كتابه « فقه اللغة » فصلا فى ترتيب الحب وتفصيله قال فيه:

« أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب ثم الـكلف وهو شدة الحب ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه الحب ثم الشغف وهو إحراق القلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج . . . . ثم الشغف وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهى جلدة دونه، ثم التتيم وهو أن يستعبده الحب . . . ومنه رجل متيم ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل متبول ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى ومنه رجل مدله ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم (٢) ».

---

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية — ط دمشق ص ١٨ .

(٢) فقه اللغة للثعالبى ص ١١٦ .

وقد أفاضوا فى الكلام على اشتقاق الحب وأسمائه المختلفة وما تحمل من معان مختلفة إفاضة لا نرى داعيا للخوض فيها[١] . ووضعوا لكل اسم من أسماء الحب حدوداً تحده ومعالم تميزه عن الأسماء الأخرى .

وصنف بعضهم المحبة صنفين محبة غرضية وهى التى يبتغى المحب من ورائها ما يسد فى نفسه حاجة وهذه لا تتقيد بالمشاكلة والمناسبة بين الروحين ، ومحبة روحانية لا بد فيها من المناسبة والاتفاق بين الروحين[٢] .

## ٢

وقد عرض ستندال Stendhal وهو فرنسى من القرن التاسع عشر لتصنيف الحب فجعله أربعة أصناف :

(١) الحب العاطفى . Passion Love

(٢) الحب الاستلطافى . Sympathy Love

(٣) الحب الحسى . Sensual Love

(٤) الحب العابث أو الكمالى . Vaniy Love

فأما الصنف الأول فهو الحب الذى يمتاز بالقوة والعنف وشدة التعلق ويقترن بالشوق الشديد الجارف .

وأما الثانى فلا يعدو أن يكون ألفة وصداقة قوامها خفة الظل والقرب من النفس .

والصنف الثالث هو الاشتهاء الجنسى وهو لا يستحق أن يضاف إلى الحب ، إنما هو ضرب من الايثار الجنسى لشخص دون غيره .

والصنف الرابع ضرب من الترف هو كما يقول فيه ستندال ولع الرجل بامرأة جميلة كما يولع بالفرس الجميلة على اعتبارها شيئاً لا بد منه للشاب المترف[٣] .

## ٣

ونحن إذا نظرنا فى أدب العصر الإسلامى الأول وجدنا فيه صورتين من صور الحب وصنفين من أصناف المحبين ، أحدهما ذلك الذى يتمثل فى بعض شباب المدن

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب « روضة المحبين » .

(٢) روضة المحبين ص ٨٨ .

(٣) Stendhal : on Love.

فى الحجاز ممن أوتوا بسطة فى الرزق ورفعة فى المكانة الاجتماعية ورقة فى الدين وقسطاً وفيراً من الفراغ ، يعيش فى خفض من العيش يغشى مجالس السمر والغناء ، ولا يتحرج عن اللهو الحرام ، وإلى جانبهم شباب البادية القريبة نفوسهم من الفطرة ، النقية قلوبهم من أدران المدنية ، هؤلاء كانوا أدنى إلى التأثر بالإسلام والانضواء تحت لوائه ، وذلك بالإضافة إلى تقاليد القبائل التى تأخذهم بالتزام العفة وتمنعهم من التطلع إلى هتك الحرمات . وفريق من شباب المدن [1] اشتغل برواية الحديث ومدارسة القرآن وعلوم الدين فظهرت فى بعضهم نزعة فى الحب شبيهة بالنزعة البدوية

كان على رأس الفئة الأولى عمر بن أبى ربيعة وهو أشهر من أن نجمل ترجمته أو نعرف به تعريفاً سريعاً . ذلك الفتى القرشى المخزومى الثرى الوسيم الذى كان ديدنه السعى وراء النساء ينشدهن شعره فيهن ويمازحهن ويمازحنه .

وكانت مواسم الحج عنده مواسم لهو وعبث واستهتار تضرب فيها مواعيد اللقاء فى البيت الحرام وفى البلد الحرام .

وقد ترك لنا عمر بن أبى ربيعة شعراً كثيرا صور فيه حياته العابثة وقص فيه حوادث غرامه .

ثم خلفه فى هذا الصنف من الحب فريق من أبناء مكة والمدينة من قريش والأنصار تغنوا فى شعرهم بهذا الحب واشتهر منهم الأحوص بن محمد الأنصارى والعرجى الأموى . أما الطائفة الأخرى فهؤلاء الذين عرفوا بالعفة فى الحب وبالفناء فيه والاستغراق فى ملكوته . وسنفصل القول فيهم بعد قليل إن شاء الله .

وهكذا نرى أن ابن أبى ربيعة ومن على شاكلته فئة عابثة تغنت فى شعرها بالحب الحسى ولم تكن من الحب الحقيقى على شىء .

ولست أول من يخرج عمر بن أبى ربيعة من بين المحبين فقد سبق أن اتهمه فى حبه الدكتور زكى مبارك وقال إنه ليس بصادق الحب وعلل ذلك بالأمور الآتية : —

١ — أنه حضرى لا بدوى وقلما يصدق للحضريين حب أو تبقى لهم صبابة [2] .

---

(١) هذه طائفة من أبناء الصحابة أو أحفادهم وقفت نفسها على حفظ القرآن ورواية الحديث ووقع بعض أفرادها فى الحب .

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك ص ٤١ .

٢ — أنه ما قصر نفسه على امرأة واحدة [١] .

٣ — غروره بشبابه وفتونه بجماله وتحدثه بحب النساء له وإقبالهن عليه وقلما يكون المعشوق عاشقا والمحبوب محباً [٢] .

٤ — كثرة دعواه توحيد حبه وإفراد غرامه [٣] . فهو يقول لكل من محبوباته إنه لم يحب سواها ولن يحب سواها .

٥ — قد جاء فى شعره ما يدل على أن النساء عرفن فيه التلون وعهدن منه التقلب [٤] .

أما انه لم يكن صادق الحب فهذا ما أرجحه وأعتمده لأن ما بلغنا من شعره وأخباره يدل على أنه كان شابا محظوظا عند النساء اثيراً لديهن ولابد فى الحب من حرمان يكتوى به القلب فتنضج العاطفة وابن أبى ربيعة كان فى ربيع من وصل صاحباته إذا هجر ليلى أو هجرته واصل الرباب أو واصلته وهكذا كان يتنقل كالنحلة بين الأزهار يشم هذه ويرشف تلك .

ويبدو أن ابن أبى ربيعة كان نحل الشعور سطحى العاطفة أو هكذا يبدو فى شعره ، فشعره لا يعدو أن يكون قصصاً لحوادث طريفة جرت له مع صاحباته وأغلب مافيه من المعانى إعجابهن بجماله وفتونهن بشبابه وركونهن الأخطار من أجله :

بينما ينعتنى أبصرتنى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى لها هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

هو إذن متيم لا متيم ومعشوق لا عاشق . ولا عجب أن يكون المعشوق عاشقاً والمحبوب محبا بخلاف ما يذهب إليه الدكتور زكى مبارك الأن الحب يكون فى كثير من الأحيان متبادلا بين الحبيبين كل يكن بين جنبيه ما يكنه له صاحبه ولكن المعشوق العاشق مشغول بنفسه ومستغرق فى حبه عن أن يزهى بكونه معشوقا أو أن يفخر بأنه تيم محبوبه .

والحب الصادق يحتاج فيما يظهر إلى فضل من الرجولة فى الرجل وفضل من الأنوثة فى المرأة وابن أبى ربيعة شاب مائع يلذه حديث النساء ويألف مجالسهن وهو فى حديثه عنهن أشبه بإحداهن :

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك ص ٤٤ .
(٢) « « « « « « « « « « ٤٦ .
(٣) « « « « « « « « « « ٥٠ .
(٤) « « « « « « « « « « ٥٥ .

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تتبرد
أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها حسن فى كل عين من تود
حسدا حملنه من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد

والحب الصادق يحتاج أيضاً إلى تبادل الإعجاب والاحترام بين المتحابين وما أظن أن عمر بن أبى ربيعة كان يحظى من صاحباته بمثل ذلك . يعجب المرأة فى الرجل ثباته واتزانه واحترامه لنفسه ورجل كعمر يودع هذه ليلقى غيرها علنا فى غير إسرار ولا تحفظ ويودع ذلك شعراً تسير به الركبان لا أظن النساء يتخذن منه أكثر من تسلية يروحن بها عن نفوسهن . ليقل من شاء ما شاء فى جماله وفى خفة ظله وفى حلاوة حديثه فإنى أقول إنه لم يوهب الرجولة التى تفتن بها النساء ولم يمنح القلب الكبير الذى يتسع لعاطفة الحب .

وصفوة القول أن عمر بن أبى ربيعة ما كان محباً ولا كان طبعه يقبل الحب ، فمن الخطأ أن يزعم دارس الأدب أن له فى الحب مذهباً قائماً بذاته ، وفرق بين أن يكون الرجل غزلا يحسن أن يفتن النساء بحديثه ويخلبهن بجماله ويعجب هو من جانبه بهن وتحلو له مجالسهن وبين المحب الذى تدفعه إلى الحب قوة كونية قاهرة فهو نجم فى فلك الحب يدور فيه ويسير وفق نظامه .

أما الشرذمة التى خلقت عمر بن أبى ربيعة فيما يسميه الدكتور طه حسين « غزل المحققين » فما كانت أقرب منه إلى الحب بل هى أشبه به فى بعدها عن الحب الصادق . تلك شرذمة من الشباب أوتيت سعة من المال ومنحت فضلا من شباب وفراغ فراحت تتفنن فى اللذة وتفتن فى الشهوة ولم يكن يميزها عن غيرها إلا أنها أوتيت طبعاً شعرياً .

كل هؤلاء قوم كانت اللذة الحسية قوام تعلقهم بمن تغزلوا بهن وما كانت اللذة الحسية تكون هى الحب .

إلا أن الدكتور طه حسين يرى أن عمر بن أبى ربيعة « لم يكن مغروراً ولا تياهاً كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ، وإنما كان صادق الحب قويه أيضاً » . وهل أبلغ فى الدلالة على غروره وتيهه من زهوه فى شعره بأنه فتن فلانة وتيم فلانة .

أما صدق الحب فلعل الدكتور طه يريد به مفهوما لا يسعنا أن نسلم به ، ذلك أنه لا ينفى أن يكون الحب الحسى صادقا وقويا ، ويرى أن عمر كان صادقاً فى حبه الحسى . ومتى كان الحب حسياً . إنه حينئذ لا يزيد على الاشتهاء ، ومثل

الرجل فيه كمثل الذى يشتهى لوناً من الطعام ويلتذ به ولا تعدو علاقته به حاسة التذوق والتطعم . كذلك هـذا الحب الحسى ، فهو لا يعدو أن يكون علاقة قوامها الإشتهاء الجنسى فحسب . وقد عرضنا لمقام الشهوة فى الحب بمافيه الـكفاية .

هذا على أننا لانـكاد نعترف بأن ابن أبى ربيعة كان يحب حباً حسياً إذ لا يعقل أن يكون قد بلغ ممن تحدث عنهن فى شعره ما يبعث فيه الحب الحسى وحتى فى هذه الحال لا يمكن أن يحب هذا العدد العديد من النساء حبا حسيا .

ثم يقول الدكتور بعد ذلك « كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب أبداً امرأة كما أحبها وأنه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة وكان صادقا فى هذا كله ولـكنه لم يكن يلبث أن يقول هذا حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد [1] » .

ولست أظن ذلك يصدق على عاطفة الحب المركبة المستقرة الراسخة فى نفس المحب وقد يصدق على الإعجاب .

ولننتقل بعد ذلك إلى بادية الحجاز حيث يشتهر فيها قوم بكثرة العشاق وسنسمع هناك بجميل بن عبد الله بن معمر العذرى صاحب بثينة وبعروة بن حزام العذرى صاحب عفراء وبالمجنون قيس بن الملوح العامرى وليلاه وقيس ابن ذريح الـكنانى ولبناه . هؤلاء فئة عاشت للحب وماتت على الحب ولم يكن فى حياتها أمر ذو بال غير الحب .

حبهم هو الحب الذى ينتظم النفس ويستولى على الروح ويخضع لسلطانه العقل وتذل له الإرادة ؛ ليس من جنس الحب العابث فما كان هؤلاء بعابثين ولا هو بالحب الحسى إذن لالتمسوا إخماده بإشباع الشهوة الحسية ولـكنه شىء آخر لاهو هذا ولا ذاك هو صورة صادقه لعاطفة الحب ومثل عال لسموها .

---

(١) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين — ج ١ ص ٣٩٣ .

# الباب الثانى

## الحب العذرى

---

## الفصل الأول

### ماهيته ومقوماته

### ١

الحب العذرى ظاهرة اجتماعية جديدة بعض الجدة فى حياة العرب، هو ضرب من الحب الجنسى[1] تقوم أواصره بين فتى وفتاة يألف أحدهما الآخر فى زمن مبكر من عهد الطفولة، وتبدأ هذه الألفة فى البيت، أو المرعى، أو الملعب، أو غير ذلك.

ثم تنمى هذه الألفة كلما تقدمت بهما السن، حتى إذا بلغ الأليفان الحلم واستيقظ فى نفسيهما الميل الجنسى، وأحسا بحرارة العاطفة تتأجج، زاد ذلك فى ألفة بعضهما لبعض وشعر كل منهما باللذة التى يصيبها من الحديث إلى أليفه والقرب منه.

وهكذا يصبح للنظرة معنى لم يكن لها من قبل، وللبسمة مدلول ما كانت تدل عليه.

وههنا يدخل فى الألفة الأولى عنصر جديد هو إحساس الفتى والفتاة بحاجة كل منهما إلى أليفه، تلك الحاجة التى يحس بها إحساساً مبهما لا يهتدي إلى اكتناهه فيتحول الاستلطاف الأول تعلقا فيه شىء من القوة غير قليل.

---

(١) أريد بالحب الجنسى الحب الذى تتصل أسبابه بين الذكر والأنثى وهو الذى يعرف فى علم النفس باسم « Sexual Love » تمييزاً له عن الحب الشاذ الذى يكون بين أبناء الجنس الواحد ويسمى : « Homosexual Love »

وكلما التقى الأليفان وأخذا بأطراف الأحاديث وتبادلا النظر والابتسام أحسا بارتياح وشعرا بسرور تشتد به الألفة وتقوى به العلاقة حتى إذا افترقا تذكرا لذة القرب وتخيلا متعة الحديث والنظر والابتسام فأحس كل منهما بالشوق إلى أليفه فإذا اجتمعا أقبل كل على صاحبه إقبال اللهوف يريد أن ينعم بقربه ويأنس بالنظر إليه ويستمتع بحديثه .

هكذا يولد الحب وهكذا ينشأ ألفة واستلطاف أشبه ما يكون بالصداقة ثم تجتمع إليه الحاج النفسية فتزيد أواصره قوة وكلما تقدم الأليفان فى مدارج النضج النفسى قوى الإحساس بحاجة كل منهما إلى أليفه وشعوره بالافتقار إليه فهو لا يطيق بعده ولا يرتاح إلا بقربه .

ثم يبلغ الفتى مبلغ الرجال فتضطرم فى نفسه الحاجة إلى المرأة وتنضج وتبين وتبلغ الفتاة مبلغ النساء فتثور فى نفسها الحاجة إلى الرجل وفى نفس كل منهما صورة صاحبه لاينفك يتخيلها ويضفى عليها ما شاء من أسباب الكمال ويتصور فيها المثل الذى يطمح إليه فى حياته التى يسعى إليها فيبدأ التفكير فى وسيلة تجمع بينهما فلا يفترقان وتوحدهما فلا ينفصلان ثم لايلبثان أن يجدا فى الصلة الأزلية المشروعة التى نسميها « الزواج » حلما باسما يداعب خيالهما ، وأملا حلوا يطمحان إليه .

## ٢

بعد هذا أريد أن اخط صورة عامة للحب للعذرى ، فلنتبين معالمه ، ونتأمل خصائصه .

وأول هذه المعالم أنه حب ليس له غاية يسعى إليها حتى إذا بلغها خمد سعيره وانطفأت جذوته . هو ضرب من ضروب الصداقة البريئة والاستلطاف البعيد عن الغرض فى مبدأ أمره . أسيقال وهل للاستلطاف غاية أو غرض . وأجيب بأنى أزعم أن ليس للاستلطاف غاية وليس له غرض . اللهم إلا عند أولئك الذين لا يؤمنون فى الوجود بغير المادة . وهؤلاء لا شأن لنا بهم وبتفسيرهم الضيق لمظاهر الكون .

ولا تحسبن أنى سأهدم مابنيت فأوافقهم على ذلك إذا اعترضوا بالزواج ولماذا يسعى إليه الحبيبان فالزواج ليس فى نظرهما محض وسيلة لما يفكر فيه الماديون من

قضاء الحاجة الجسمية وإنما هو قبل ذلك وفوق ذلك الوسيلة الشرعيـة لاجتماع حبيبين لاطاقة لهما بالافتراق ولا صبر لأحدهما عن الآخر .

ولست أريد أن أقول إن هذا الحب يفطم الحاجة الجسمية فلا يكون له فيها شأن وإنما أزعم أنها ليست هى كل شىء فيه ، وإنما هى كما قرر علماء النفس عنصر ثانوى فى تكوين العاطفة ، ليس هو الأساس الذى يقوم عليه تركيبها، ولـكنه يدخل فيها بعد تمكن الألفة . ومن هنا وجه امتياز هذا الحب على ما يعرف بالحب الحسى ذلك الذي يبدأ من الشهوة ثم تنضاف إليه بعد ذلك عناصر من الحياة النفسية للإنسان .

ولست أظن أنى أغلو فى دعواى هذه أو اشتط فيها فلقد مر بنا فى الفصل الأول أن بويس جبسون Boyce Gibson قد أفاض حين تحدث عن عاطفة الحب فى عنصر السرور وميزه بأنه سرور المحب بالمحبوب لذاته لا لأنه يسد فيه حاجة أو يشبع فيه شهوة[١] .

وقد تحدث عن ذلك من قبله بقرون الإمام أبو حامد الغزالى فقال فى كلامه على أسباب الحب :

« والسبب الثالث أن يحب الشىء لذاته لا لحظ ينال من وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيق البالغ الذى يوثق بدوامه[٢] » .

ولعل من نافلة القول أن أخوض فى الـكلام على العفة فى الحب العذرى فقد رأينا أنها من ضروراته الأولى بشهادة العلم الحديث وما أظن أن بنا حاجة لتفسير سرور المحب بالمحبوب لذاته لا لغرض يرمى المحب للوصول إليه أو حاجة فى نفسه يروم تطمينها وإشباعها — بأنه العفة .

ومن هنا كان اشتهار الحب العذرى بالعفة وعدم احتفاله باللذة أو تعلقه بالجسد وامتياز المحب العذرى بأنه مثالى لا غاية له فى المحبوب ولا غرض يسعى إليه .

ومن خصائص الحب العذرى أنه توحيـد لا إشراك فيه فهو يملأ على المحب نفسه وينتظم أجزاءها فلا تلتفت إلا إلى الواحد المشغولة به . وليس الحب الصادق

---

(١) Love : Psychologically & Ethically in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى — كتاب المحبة — جـ ٤ ص ٢٣١ .

لهواً من اللهو أو عبثاً من العبث حتى تسهل فيه النقلة ويطيب فيه التغير والتحول وإنما هو عاطفة قوية جبارة تصرف المحب إلى محبوبه وتشغله به عما سواه.

وما أردت بما مر أن أحدد الحب العذرى فهو صعب على التحديد صعوبة الحياة عليه — كما يقول كرولى — ولكنها صورة عامة ابتغيت بها أن أميزه عما اشتهر بين الناس عادة باسم الحب.

## ٣

وقد ظهرت صورة هذا الحب فى الأدب العربى أواسط القرن الأول الهجرى. وإذا أردنا أن نكشف عن تاريخه وجدناه وليد التطور الاجتماعى الجديد الذى أحدثه الإسلام فى الحياة العربية. على أننا لو نظرنا فى الأدب الجاهلى لوجدنا فى بعض ثناياه بذوراً لعاطفة الحب وصورة بسيطة من صوره فيها سذاجة وليس فيها السعة التى نشهدها فى الحب العذرى، ولا الأغوار البعيدة التى ينفذ إليها فى النفس والآفاق الواسعة التى ينبسط فيها. وآية ذلك أن عاطفة الحب فى الشعر الجاهلى يعوزها الاستمرار والانسياب. فلا يكاد الشاعر يلم بها حتى يستطرد منها إلى وصف الناقة التى توصله إلى الحبيبة أو المفازة التى يقطعها من أجل لقائها.

ولعل هذا بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية التى سنفصلها فيما بعد يبيح لنا أن نرجح ظهور هذا الحب بعد انبثاق فجر الإسلام وتمكنه فى نفوس العرب.

نشأ هذا الحب فى البادية وما كان خليقاً به أن ينشأ فى المدن والحواضر فلقد كانت المدن والحواضر فى إحدى حالين. حال الانشغال بالحكم والسياسة وأمور الدولة سواء فى ذلك تأييد الحكم القائم وتعضيده والامتثال لما يأمر به كما كان الأمر فى الشام؛ أو المعارضة له والتربص به والثورة عليه كما كانت الحال فى العراق؛ وحال أخرى اقتضتها السياسة الأموية فى الحجاز فقد جهدت أن تقصيه عن مجال السياسة وأتاحت لأبناء أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم من بناة الدين الجديد والامبراطورية الجديدة حياة من اللهو والعبث بما أغدقت عليهم من طائل الأموال وما شحنت به بيئاتهم من وسائل اللهو.

لقد نشأ الحب العذرى إذن فى البادية وفيها ترعرع وعرفت به قبيلة معينة وعرف بها، تلك هى قبيلة عذرة إحدى القبائل التى كانت تقيم فى بادية الحجاز. وعذرة فرع من قضاعة فجدها الذى تنسب إليه عذرة بن سعد هذيم بن زيد ابن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. ثم يختلف النسابون فى قضاعة أمن

الجنوب هى أم من الشمال وبعبارة أخرى أمن عدنان هى أم من قحطان. فبعضهم ينسبها فى حمير ويزعم أن قضاعة هو ابن مالك بن مرة بن زيد بن مالك ابن حمير بن سبأ. ويروى هؤلاء أن أم قضاعة وهى امرأة من سبأ اسمها عكبرة كانت تحت مالك بن مرة فمات عنها وهى حامل فخلفه عليها معد بن عدنان فولد قضاعة على فراشه.

وهم يستشهدون على هذا بقول الراجز:

يا أيها الداعى ادعنا وأبشر وكن قضاعيا ولا تنزر
قضاعة الأثرون خير معشر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر[1]

وهم يستشهدون لذلك أيضاً بحديث يرويه عقبة بن عامر الجهنى أن قضاعيا قال: «يارسول الله لمن نحن؟» قال: «أنتم بنو مالك بن حمير». وقال عمرو بن مرة وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يا أيها الداعى ادعنا وأبشر وكن قضاعيا ولا تنزر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير[2]

وممن يذهب هذا المذهب ابن قتيبة[3] وابن دريد[4] وياقوت[5].

وآخرون يقولون إن قضاعة هو ابن معد بن عدنان أخو نزار بن معد لأبيه وأمه. ويزعمون أن نسبهم إلى حمير (قول أحدثوه بعد وصنعوا شعراً الصقوه به ليصححوا هذا القول وهو: يا أيها الداعى... الخ وهذا شىء قيل فى آخر أيام بنى أمية[6]). وهذا مذهب الزبيريين وابن هشام روى من طريق هشام بن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قضاعة فقال: «هو ابن معد وكان بكره». قال أبو عمرو السهيلى: «وليس دون هشام من يحتج به فى هذا الحديث[7]».

ويشد أزر هذه الفئة نصوص شعرية عديدة منها قول زهير:

قضاعية أو أختها مضرية يحرق فى حافاتها الحطب الجزل

فجعل قضاعة ومضر أخوين[8].

---

(١) الأغاني — الجزء السابع ص ٧٧.
(٢) الروض الأنف للسهيلى ص ١٥.
(٣) كتاب المعارف ص ٣٤.
(٤) كتاب الاشتقاق ص ٣١٣.
(٥) معجم البلدان — ج ٣ ص ٣٦٨.
(٦) أغانى — ج ٧ ص ٧٧.
(٧، ٨) الروض الأنف للسهيلى ص ١٥.

ورجز جميل بن عبد الله بن معمر بالوليد بن عبد الملك فقال :

أنا جميـل فى السنام من معد  فى الأسرة الحصداء والعيص الأشد
والبيت من سـعد بن زيد والعدد  ما يبتغى الأعـداء منى ولقد
أضرى بالشتم لسانى ومرد  أقود من شئت وصعب لم أقد[1]

فهو كما ترى يفخر بانتسابه إلى معد . وهو قد فعل ذلك حين قال :

نحن منعنا يوم أرل نساءنا  ويوم أقى والأسنة ترعف
ويوم ركايا ذى الحداة ووقعة  بتينان كانت بعض ما قد تسلفوا
يحب الغوانى البيض ظل لوائنا  إذا ما اتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلفنا  فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
فأى معد كان فى رماحهم  كما قد أفأنا والمفاخر منصف

وهو يصف حبيبته بثينة فيقول :

ربت فى الروابى من معد وفضلت  على المحصنات البيض وهى وليد

ويبدو أن هذا الخلاف بين النسابين كان مرده أن فريقا من قضاعة انتسب فى حمير بدليل قول الكميت يعاتبهم على ذلك :

علام نزلتم من غير فقر  ولا ضراء منزلة الحميل[2]

ولعل ذلك كان بعـدما جرى بين بنى قضاعة من خطوب وما اشتبكوا فيه بينهم من حروب سيأتى القول فيها بعد قليل .

وهكذا يبدو أن نسبتهم إلى معد بن عدنان أرجح وأدنى إلى الصواب

وكان بنو عذرة يقيمون فى شمال الحجاز مع بطون قضاعة بلى وكلب ونهد وجهينة وكانت ديارهم وادى القرى وتبوك ممتدة إلى أيلة على البحر الأحمر[3] .

ويذكر أبو عبيد البكرى أن أبناء معـد بن عدنان وهم نزار وإياد وعمرو (قضاعة) اقتسموا الأرض أرض شمـالى الجزيرة على سبعة أقسام فصار لعمرو ابن معد بن عدنان وهو قضاعة لمساكنهم ومراعى أنعامهم جدة من شاطىء البحر وما دونها إلى منتهى ذات عرق إلى حيز الحرم من السهل والجبل[4] ثم ( سارت

---

(١) الأغانى — جـ ٧ ص ٩٣ .
(٢) الروض الأنف ص ١٦ .
(٣) مادة عذرة فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٤) معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى ص ١٧ .

أسلم بن الحاف وهى عذرة ونهد وحوتكة وجهينة والحارث بن سعد حتى نزلوا الحجر إلى وادى القرى[١] ).

وكانو يجاورون غطفان ويحالفونهم ، فحين أراد النعمان أن يغزو بنى حن[٢] وهم بطن من بنى عذرة ، كان النابغة الذبيانى عنده فنهاه من لقائهم ، فلما أبى النعمان ذلك بعث النابغة إلى قومه بنى ذبيان — وهم قبيلة من غطفان — يخبرهم بعزم النعمان ويأمرهم أن يقفوا فى صف بنى حن فلما التقى الجمعان انضم قوم النابغة إلى بنى حن فهزموا جيش النعمان . وفى ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان حين لقيته ... يريد بنى حن ببرقة صادر
تجنب بنى حن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر
عظام اللهى أولاد عذرة إنهم ... لهاميم يستلبونها بالحناجر
هم منعوا وادى القرى من عدوهم ... بجمع مبير للعدو المكاثر
من الطالبات الماء بالقاع تستقى ... بأعجازها قبل استقاء الحناجر[٣]

ويبدو أن منازل قضاعة ضاقت بها بعد أن تكاثرت فخرج فريق منهم إلى نجد ، وكان أول من فعل ذلك فأصحر فى صحراء نجد جهينة ونهد وسعد هذيم بنو زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة وكان يقال لهم صحار وفى ذلك يقول زهير بن جناب الكلبى مفتخراً :

فما ابلى بمقتدر عليها ... ولا حلمى الأصيل بمستعار
ستمنعها الفوارس من بلى ... وتمنعها فوارس من صحار[٤]

ولم يطب لهم المقام فى نجد فرجع بنو سعد هذيم وبنو نهد إلى حيث كانوا ، فنزلوا وادى القرى والحجر والجناب وما ولاهن ثم لحق بهم بنو حوتكة بن سود ابن أسلم بن الحاف بن قضاعة وأقاموا بها فكثر عديدهم وانتشروا ، ثم لم يلبثوا أن وقعت بينهم حرب عقد الظفر فيها لبنى سعد هذيم بن زيد ، وكان فيهم العدد والقوة والمال ، فأخرجوا نهداً وحوتكة وبطون جرم من ديارهم . وكان على

---

(١) معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى ص ٢٣ .

(٢) فى الأصل جن بالجيم المعجمة وهو غلط والصحيح ما أثبتناه ذلك لأن فى عذرة بطنا يقال لهم بنوحن وهم رهط جميل وبثنيه — الروض الأنف ص ١٦ .

(٣) ديوان النابغة الذبيانى ضمن مجموعة مطبوعة فى بيروت بعنوان خمسة دواوين العرب ص ٤٥ وورد البيتان الأولان فى كتاب الاشتقاق ص ٣٢٠ .

(٤) معجم ما استعجم للبكرى ص ٣٠ ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٣٦٨ .

رأس بنى سعد بن زيد رزاح بن ربيعة بن حرام فقال زهير بن جناب الكلبى يعاتبه على فعله ذلك ببنى عمومته :

ألا من مبلغ عنى رزاحا فانى قد لحيتك فى اثنتين
لحيتك فى بنى نهد بن زيد كما فرقت بينهم وبينى
أحوتكة بن أسلم إن قوما عنوكم بالمساءة قد عنونى[1]

ويذكر الهمدانى[2] أن فريقاً من بنى عذرة كان يقيم فى جنوبى الجزيرة . وما ندرى أكان يريد بذلك عذرة التى نحن بصدد الحديث عنها أو قبيلة أخرى بهذا الاسم فقد ذكر أبو جعفر محمد بن حبيب أربع قبائل بهذا الاسم ( ففى كلب عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب وفى قضاعة أيضا عذرة بن سعد ابن زيد بن ليث[3] بن أسلم بن الحافى بن قضاعة وفى جرم عذرة بن هداد ابن زيد مناة بن الحجر[4] ) .

ويذكر القبيلة الأولى أبو بكر بن دريد فيقول : « ومنهم — من قضاعة — بنو زيد اللات قبيل عظيم ومن قبائلهم عذرة بن زيد اللات[5] .

ويذكر ابن الكلبى فى جمهرة الأنساب خمس قبائل بهذا الاسم أيضا[6] ولعل الهمدانى يريد بعذرة التى ذكر أنها تقيم فى الجنوب عذرة بن هداد بن زيد مناة ابن الحجر وهى من الأزد والأزد قبيلة يمانية لاخلاف فى يمانيتها .

واشتهر من رجال عذرة فى الجاهلية هوذة بن عمرو وكان رجلا شريفا يقال له رب الحجاز وقد مدحه النابغة الذبيانى[7] وكان سيد بنى عذرة وبقيت رئاستها فى ذريته بعد الإسلام .

وكان لعذرة إلى جانب تحالفها مع غطفان صلات بالقبائل الأخرى المقيمة بالحجاز كقريش والأوس والخزرج . فقد كان قصى بن كلاب بن مرة جد الرسول عليه الصلاة والسلام عذرى الخؤولة وكانت أمه عذرية[8] وقد ولد فى بنى عذرة

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ص ٣٠ .
(٢) فى كتابه صفة جزيرة العرب .
(٣) هو ليث بن سود بن أسلم .
(٤) مختلف القبائل ومؤتلفها ص ٣٧ .
(٥) الاشتقاق ص ٣١٥ .
(٦) دائرة المعارف الإسلامية .
(٧) كتاب الاشتقاق ص ٣٢٠ .
(٨) كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد — جـ ١ ص ٣٣ .

فقيل له قصى وكان اسمه زيدا[١] ذلك أن أمه تزوجت بعد موت أبيه كلاب بن مرة بربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة فأولدها رزاحا. وكان رزاح سريا من سراة قضاعة وأحد اثنين اجتمعت عليهما قضاعة. ونشأ قصى فى قضاعة وتربى فى بيت ربيعة بن حرام وهو لايعلم له أبا غيره، ولما كبر ارتحل إلى قومه فكانت له الرئاسة عليهم فيما بعد[٢].

ولما قامت الحرب بين قريش وخزاعة استنجد قصى بأخيه رزاح بن ربيعة فأنجده وأعانه على طرد خزاعة من مكة فخلفتها قريش فى سدانة الكعبة[٣] وبذلك يفخر جميل بن عبد الله بن معمر إذ يقول :

ونحن حمينا يوم مكة بالقنا قصيا وأطراف القنا تتقصف
فخطنا بها أكناف مكة بعدما أرادت بهاماقد أبى الله خندف[٤]

وقد نبه شأنهم بعد الإسلام إذ بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام بكتاب فى السنة الثانية للهجرة يدعوهم فيه إلى الإسلام [٥] ولا نعرف عن موقفهم منه ومن دينه شيئا حتى العام الهجرى السابع حيث ورد إلى الرسول حمزة بن النعمان بن هوذة سيد بنى عذرة بصدقة قومه وكان أول من قدم إليه من أهل الحجاز فاقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رمية سوطه من وادى القرى [٦].

وفى العام الذى وليه كان بنو عذرة يقاتلون الروم فى مؤتة وكان أحد سراتهم على ميمنة جيش المسلمين فى إحدى المواقع ( قال ابن إسحق « ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن قتادة[٧] ) .

وفى ذلك دليل واضح على أن بنى عذرة سبقوا إلى الدخول فى الإسلام وسارعوا إلى نصرته واطمأنت نفوسهم إليه وصغت قلوبهم له، أضف إلى ذلك

---

(١) الروض الأنف ص ٦ .
(٢) « « ص ٨٤ وهو يذكر تفصيل الخبر .
(٣) « « ص ٨٤ .
(٤) ديوان جميل جمعه فرانتشيسكو جبراييلى ص ٥٠ .
(٥) طبقات ابن سعد — ج ٢ ص ٣٣ .
(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥ .
(٧) سيرة ابن هشام — ط وستنفلد المجلد الثانى ص ٧٩٤ .

علاقتهم بالرسول وبقريش وبالأوس والخزرج[١] الذين آووا الإسلام ونصروه وجاهدوا فى سبيله أصدق الجهاد .

على أن Della vida يقول برغم ذلك إن عذرة لم تدخل الإسلام إلا بعد وفاة الرسول[٢] عليه الصلاة والسلام ودليله على ذلك أنه لم يجد لها ذكراً فى القبائل التى وفد وفودها على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى العام الهجرى التاسع .

ألم يكفه أن يتوجه إليه سيدها حمزة بن النعمان بن هوذة بصدقتها فى العام السابع ؟ أو لم يكفه أن تحارب الروم فى جيش المسلمين ويتولى أحد سادتها قيادة الميمنة فى وقعة مؤته ؟

وضربت عذرة بسهمها فى الفتوح الإسلامية فاشتركت فى الحملة التى كان يقودها عمرو بن العاص لفتح سورية . وبرز من رجالها خالد بن عرفطة حليف بنى زهرة فقد ولاه سعد بن أبى وقاص الناس يوم القادسية[٣] .

وحين فاضت قبائل العرب من جزيرتها وساحت فى البلاد المفتوحة أقام فريق من بنى عذرة فى سورية[٤] وفى الكوفة[٥] واستقر فريق منهم فى صعيد مصر[٦] فلم نعد نسمع عن أثرهم فى الحياة السياسية الإسلامية شيئا يذكر .

## ٤

وفى هذا العصر — عصر الاستقرار السياسى فى الإسلام — يشتهر بنو عذرة بشىء لم يعرفوا به من قبل بل لم يعرف به أحد من قبلهم . يشتهرون بالحب القوى الصادق العفيف الذى يملك الروح وينتظم النفس ويسمو على شهوات الجسد ويشيع هذا الحب فيهم ويعرف به حتى يقال للعاشق الثابت على حبه المخلص فى وده المنزه حبه عن شهوة الحس ولذة الجسد إنه « محب عذرى » . وظل ذلك فى الأدب العربى عنوان العفة فى الحب والإخلاص له والفناء فيه حتى لقد

---

(١) كانت أم الأوس والخزرج عذرية وهى قيلة بنت كاهل التى ينسبون إليها ( دائرة المعارف الإسلامية ) .

(٢) مادة « عذرة » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٣٢٠ .

(٤) الطبرى تاريخ الأمم والملوك — ج ٢ ص ١٧٩٢ — ١٨١٨ .

(٥) الأغانى — ج ١٦ ص ٧ و ٣٧ .

(٦) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١٣٠ وفى مديرية أسيوط الآن بلدة تعرف باسم الحواتكة وحوتكة هو ابن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

عبر به الصوفية عن حبهم للذات الإلهية دلالة على نقاء هذا الحب وصفائه وسموه عن التعلق بالمادة . وفى ذلك يقول البوصيرى وهو من الصوفية المتأخرين :

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة  منى إليك ولو أنصفت لم تلم

وتحفل كتب الأدب بأخبار بنى عذرة وعشاقها وما كانوا يلقون فى حبهم من أهوال وما كان يفعل بهم الحب من مآس . يروى أبو جعفر السراج بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه سمع رجلا من بنى عذرة عند عروة بن الزبير يحدثه فقال عروة : «ياهذا بحق أقول إنكم أرق الناس قلوبا» فقال : «نعم والله لقد تركت بالحى ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء إلا الحب[1]» .

وتكاد كتب الأدب والأخبار تجمع على اشتهار بنى عذرة بالرقة والدماثة والجمال[2] وهذه إذا اجتمعت إليها الحصانة التى حاطهم بها الإسلام والعفة التى تقتضيها تقاليد القبائل العربية نتجت حباً كهذا الحب القوى العفيف ، الذى يسمو عن التعلق بالجسد ، ويعلو عن أن يكون مظهراً من مظاهر الاشتهاء الجنسى . ولقد كانت تلك حجتهم على من كان يعيب عليهم هذا الاندفاع فى الحب وهذا الاستسلام لسلطانه .

يقول ابن خلكان : « قيل لأعرابى من العذريين ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح فى الماء أما تتجلدون . فقال إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها[3] » . وقيل لآخر : «ممن أنت ؟» فقال : « أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا » فقالت جارية سمعته : « هذا عذرى ورب الكعبة[4] » .

هذا بعض ما فى كتب الأدب مما يدل على اشتهار عذرة بالرقة وبكثرة الجمال فيها ؛ والجمال من جانبه يهذب الذوق ويثقف المشاعر ويسمو بالعواطف وهو كما أسلفت فى نهاية الفصل الأول طليعة الحب يمهد له ويفتح أبواب النفس قدامه فيدخلها عنوة ويستقر فيها بلا مقاومة من جانبها ودون عناء من جانبه .

ولقد أشرت فى الكلام على تاريخ عذرة إلى أنها سبقت للدخول فى الإسلام وكان سيدها حمزة بن النعمان بن هوذة أول من ورد على الرسول صلى الله عليه

---

(١) مصارع العشاق لأبى جعفر السراج ص ٢٠ .
(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٠٠ وابن خلكان ج ١ ص ٢٠٣ .
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٣ .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٠٣ .

وسلم من أهل الحجاز ودل تاريخها فيما بعد على أنها استجابت للدعوة الإسلامية واطمأنت بها نفساً وتلك حقيقة كان لها أكبر الأثر فيما اشتهرت به من الحب العفيف كما سيأتى تفصيل ذلك فى الفصل الآتى إن شاء الله .

* * *

ولم يقتصر هذا الحب العذرى على قبيلة عذرة بل لقد وجد فى قبائل أخرى غيرها عشاق من هذا الطراز منهم المجنون قيس بن الملوح العامرى وهو من بنى عامر بن صعصعة وقيس بن ذريح صاحب لبنى وهو من كنانة بن خزيمة . وعرف بمثل ذلك كثير بن عبد الرحمن الخزاعى صاحب عزة وتوبة بن الحمير الخفاجى صاحب ليلى الأخيلية .

وشاء بعض رواة الأخبار أن يجعل هذا الحب القوى الجارف مقصوراً على اليمانية دون غيرها وحاول أن يبرىء منه النزارية . يروى أبو الفرج الأصبهانى بسنده عن ابن دأب قال : « قلت لرجل من بنى عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟. قال : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين إنهم لكثير . فقلت ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق . فقال هيهات ! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذلك إنما يكون هذا فى اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها الصلعة رؤوسها فأما نزار فلا[1] .

ومهما تكن قيمة هذا الكلام من الوجهة الموضوعة فهو كذلك لا قيمة له من الوجهة التاريخية إذ لو جاز له أن ينفى وجود المجنون كما فعل من بعده الدكتور طه حسين[2] فهو لا يستطيع أن يشك فى وجود قيس بن ذريح الكنانى أو غيره ممن اشتهر بالعشق من غير بنى عذرة .

على أن فى قالة هذا العامرى تلميحاً إلى أن بنى عذرة قوم يمانون وهو ما لم يرجح .

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢) فى كتابه حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢١٩ .

# الفصل الثانى

## الحب العذرى

### كيف نشأ ولمـــاذا ؟

قلت فيما سبق إن الحب العذرى نبت فى الحجاز حيث كان يقيم بنو عـذرة الذين عرفوا به وعرف بهم ، والراجح أنه نشأ بعـد الاسلام حيث تهيأت له أسباب النشوء بعـد أن استقر المسلمون فى امبراطوريتهم التى فتحوها فيما يزيد على نصف قرن بقليل . فانصرفوا إلى حياة الهدوء والاستقرار وانتظمت حياتهم بعد أن كان الفتح وإقرار النظام الجديد شغلها الشاغل .

فألقت عصاها واستقر بها النوى  كما قر عيناً بالإياب المسافر

وانقسم الناس فئات انصرف بعضها إلى السياسة يمكن للحكم القائم ويشد ازره وأخرى تناوئه وتعارضه وتتربص به الدوائر كما كانت الحال فى الشام والعراق . وفريق انقطعت به أسباب الحياة السياسية فقبع فى الحجاز يشتغل بلهوه ولعبـه أو ينطوى على نفسه وينحصر فى محيطه الضيق حيث ينقطع فى صحرائه إلى عيشة قوامها التأمل والانكباب على النفس لا لهو فيها لأن اللهو الحرام لا يمكن أن يلج أبوابها ولا قيان ولا خمور .

### ١

أما سبب نشأته فالأستاذ لوى ماسينيون يرى أنه مقتبس من الحب الافلاطونى عند اليونان ومشتق منه[1] .

ونحن إذا علمنا أن هذا الحب ظهر فى منتصف القرن الأول للهجرة على وجه التقريب أدركنا أن العرب لم يكونوا آنئذ على علم بفلسفة اليونان وأدبهم بله أن يتمثلوا ذلك فتتأثر به حياتهم العاطفية .

ولو فرضنا أنهم عرفوا شيئاً من ذلك — فى هذا العصر — وهـذا فرض لا يجوز من الوجهة التاريخية — لـكان لنا من ظهور هذا الحب فى البادية ونشأته

(١) مادة « عذرى » فى دائرة المعارف الإسلامية .

فيها ما يجعلنا نستبعد مثل هذا الرأى . ذلك لأن البادية يبعد أن تتأثر بالحياة العقلية التى تسود فى الحواضر ولا يتأتى لها أن تتابعها فى مضمار العلم والمعرفة بسهولة ويسر .

على أن العواطف الإنسانية أعسر على التطور والتأثر بالجديد من العقل فهى أبطأ منه وأصعب على التبدل .

ونحن اذا علمنا أن العواطف تكوين نفسى معقد ينطبع بطابع الجنس والوراثة والبيئة أدركنا أنها أصدق ما يميز قوما عن قوم ، وتفترق به بعض الأمم عن بعض .

والحب العذرى بعد ذلك ظاهرة اجتماعية عبر عنها الشعر العربى تعبيراً أدبياً والشعر لا يحتمل الأفكار الفلسفية ولا يسهل عليه أن يحتويها وبخاصة الشعر العربى فى هذا العصر الذى نحن بصدده . على أنه قد لا يضيق بالتأملات العابرة التى يخرج منها الشاعر بفكرة تشبه أن تكون فلسفية ولكنها على أية حال ليست من الفلسفة فى شىء فللفلسفة أداتها من الفكر والتعقل والتأمل العميق . والشعر لا يخضع لذلك ولا يلزم به نفسه ولا يناسب ذلك طبيعته ؛ فهو وحى الخاطر واستجابة الوجدان لما يستثيره .

وقديقع الباحث فى شعر العذريين على مثل هذه الأبيات التى تنسب لجميل بثينة :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

وفيها اشارة الى الفكرة الافلاطونية فى الحب ، تلك التى تقول بأن الحب أداة للجمع بين روحين من جوهر واحد[1] كانا كذلك من قبل أن يهبطا الى عالم الأجساد .

ولو صحت نسبة هذه الأبيات لجميل[2] — وفى نسبتها اليه شك أى شك — فليس ببعيد على الشاعر أن يصل فى تأمله واستغراقه الى مثل ذلك ، فقائل الأبيات عاشق متيم ملك الحب عليه نفسه فهو يتأمل فى هذه القوة القوية ويحار كيف تغلبه على أمره ، ويحاول أن يفسر ذلك فيدركه العجز ، ويخذله الواقع فيفر الى الغيب وما وراء الطبيعة ؛ فيوحى اليه بمثل هذه الفكرة .

---

(١) هذه هى الفكرة الأفلاطونية فى الحب كما يعبر عنها أهل الفلسفة من المسلمين .

(٢) تروى هذه الأبيات لقيس بن ذريح فى الأغانى جـ ٨ بين ص ١٠٧ — ١٢٤ وتروى لغيره .

على أن التشابه فى الأفكار والظواهر الأدبية والفكرية لا يجوز أن يكون هو الفيصل فى اقتباس بعضها من بعض إلا بعد أن يتأكد لدى الباحث طريق وصول السابقة إلى القائل باللاحقة ، وإلا فليس ببعيد على الآخر أن يصل إلى ماوصل إليه الأول مادام لديه الاستعداد الطبيعى الذى يؤهله لأن يفكر كما فكر من قبله ، ويتأمل مثل تأمله ، ويشعر بما حوله كما شعر سلفه بما حوله .

وكل هذه فروض لا يؤيدها الواقع ولا تتعلق منه بسبب . فالحب العذرى فكرة شعرية — إذا صح هذا التعبير — تصدر عن عاطفة عميقة قوية ، ففيها الألم من برحاء الوجد واللذة بالوصل ، والقلق للبعد ، والسرور بالقرب ، وما إلى ذلك . أما الحب الأفلاطونى ففكرة فلسفية تقوم على أساس من خرافات اليونان وأساطير آلهتهم التى لا يجمعها بالنفس الإسلامية جامع ، ولا يسيغها ذوق الموحد الذى اتخذ الإسلام ديناً .

والواقع أن الحب الأفلاطونى حب شاذ Homosexual وليس هو بالحب الجنسى ، إذ أن مما يمتاز به الحب السماوى عند أفلاطون أن لا تكون المرأة موضوعه ولا غايته ، وإنما هو حب الذكور للذكور .

وقد كان القوم فى عهد أفلاطون ينظرون إلى علاقة الرجل بالمرأة نظرة مادية صرفا لا تزيد على قضاء الحاجة الجسمية ، ولا تفترق عن غيرها من حاج الجسم كالطعام والشراب[1] .

وينحصر التشابه بين الفكرتين فى فكرة الحب العذرى والحب الأفلاطونى فى سمو العاطفة وتعلقها بالروح دون الجسد ، وتعاليها عن الشهوة الوضيعة ، وهذا فيما أظن أمر لا يحتاج العرب فيه إلى الأخذ عن اليونان أو التأثر بفلسفتهم ، بل لقد أحدث ذلك فيهم مؤثرات داخلية دينية واجتماعية ، سيأتى الكلام عليها فيما بعد .

ونحن إذا احتكمنا إلى التاريخ وجدنا أن العرب لم يعرفوا فلسفة اليونان وأدبهم إلا فى العصر العباسى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع حيث قامت حركة الترجمة فى ظل الخليفة المأمون وبرعايته وتشجيعه أى بعد أن عرف هذا الحب فى الأدب العربى واشتهر أمره بقرنين أو يزيد ، وكتاب أفلاطون فى الحب وهو المعروف بكتاب الوليمة أو المائدة « Symposium » أو « Banquet » لم يعرف

(١) Greek Love in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

إن كان قد عرف إلا فى هذا العصر[1] وهو حرى أن يلتمس أثره فى إقرار فكرة الحب وتلوينها باللون الفلسفى عند من كتب فيها كأبى بكر محمد بن داود الظاهرى صاحب كتاب الزهرة وكأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم صاحب الرسالة المعروفة بطوق الحمامة فى الألفة والألاف.

## ٢

وأما الأستاذ الدكتور طه حسين فيعزو نشأته إلى عوامل اجتماعية جديدة طرأت على المجتمع الاسلامى فى الحجاز. وتفصيل ذلك أن أهل الحجاز قد حيل بينهم وبين جد الأمور وصرفهم بنو أمية عن الاشتغال بالسياسة.

وكان أهل الحجاز فريقين: — أهل المدن من أبناء الصحابة الذين قام على أكتافهم البنيان الجديد للدولة الاسلامية، وكان اشتغالهم بالسياسة خطراً على الدولة يعرفه الأمويون حق المعرفة، فقد كان كثير منهم يمنى النفس باسترجاع السلطان واسترداد الحق الذى غصبه بنو أمية وهم ليسوا أسبق منهم إلى الإسلام ولا أولى منهم بميراث الرسول وخلفائه. فجهد بنو أمية أن يصرفوهم عن التفكير فى السياسة والتطلع إلى الحكم؛ فأغدقوا عليهم من الأموال ماشاءوا وشحنوا مكة والمدينة بطائفة كبيرة من المغنين والمخنثين والقيان ودور اللهو والشراب فانصرف القوم أو كثير منهم إلى اللهو حيث تيسرت لهم أسبابه من اليأس والفراغ والسعة فأخرج لنا ذلك مثل عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعرجى، أزيار نساء لايبالون بالدين ولا يرعون الحرمات، ينشدون اللذة والمتعة ويتفرغون لها. والفريق الآخر أهل البادية الذين اجتمع لهم مع اليأس الفقر وضيق ذات اليد فانصرفوا إلى التفكير فى المثل الأعلى ونشأت فيهم نزعة شبيهة بالتصوف والانصراف إلى المثل الأعلى فى الحياة الخلقية.

يقول الدكتور طه حسين:

«كان أهل مكة والمدينة يائسين ولكنهم كانوا أغنياء فلهوا كما يلهو كل يائس، وكان أهل البادية الحجازية يائسين ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة فنشأ فى

---

(١) يظن أن هذا الكتاب هو الذى عناه ابن النديم — فى كلامه على كتب الكندى النفسيات برسالته فى خبر اجتماع الفلاسفة على رموز عشقية (الفهرست ص ٢٥٩ ط فلوجل) وقد أشار إلى ذلك الأستاذ ماسينيون فى كتابه مجموعة نصوص لم تنشر عن التصوف الإسلامى:

Recueil du Textes Inedits Relatifs de l'Hist. de la Mystique Musulmane.

نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضرى الخالص وليس بالبدوى الخالص ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية . وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلى كما انصرفوا عن الحياة العملية فى الإسلام إلى أنفسهم واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ولكنها نغمة زهد وتصوف ، وأنا أعلم أن لفظ التصوف هنا لا يؤدى معناه الذى أريده فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى فى الحياة الخلقية » .

« وظهر هذا الزهد وهذا الميل إلى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافا شديدا أحدهما الزهد الدينى الخالص . . . والثانى هذا الغزل العفيف الذى هو فى حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى فى الحب ولبراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينه من جهة أخرى[1] » .

وليس من اليسير على الباحث أن يوافق على أن الفقر واليأس يصرفان إلى التفكير بالمثل الأعلى وينتجان مثل هذا الحب الذى عبر عنه القوم فى غزلهم العفيف ولعل الأولى بالفقير المحتاج أن يثور على المجتمع الذى حرمه ما أباح للآخرين وأن يفكر فى مخرج يلوذ به من فقره ومن حاجته .

وإذا قال قائل إن الثورة على المجتمع لجوره فى توزيع الثروة لا تصدر إلا عمن يدرك ذلك إدراكا واضحا وإدراك ذلك عن هؤلاء الأعراب بعيد فالجواب على ذلك أن إدراك ذلك أيسر عليهم من إدراك المثل الأعلى فى الحياة الخلقية إذ إن حاجة الجسم إلى الطعام والشراب والملبس أبلغ بلا ريب من حاجة الروح إلى المثل الأعلى .

وقد كان الجاحظ على حق حين قال :

« ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب . أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق[2] » .

وأما أن أهل البادية قد حيل بينهم وبين لهوهم الجاهلى فصرفهم ذلك إلى هذا الحب العفيف فينفيه أنا لا نعرف من الذى حال بينهم وبين لهوهم الجاهلى . أهى

---

(١) حديث الأربعاء — الجزء الأول ص : ٢٣٧ .

(٢) رسائل الجاحظ — الرسالة السابعة « فى العشق والنساء » — ص : ١٦٦ .

السلطة الحاكمة . إذن فكيف يجوز لها أن تفعل ذلك حين أباحت لأهل الحرمين وغيرهم من أهل المدن ما أباحت من صنوف اللهو بل يسرت لهم سبيل العكوف عليه وأتاحت لهم الانصراف إليه .

ولست أظن أن السلطة الحاكمة تفعل ذلك فى الأعراب وهم مصدر من مصادر الشغب وإثارة الفتنة لايسعها أن تتناساه أو تغفل عن خطره .

على أن فى حديث الدكتور لمحة قيمة مر بها مراً سريعا فلم يفض فيها ، تلك هى أثر الإسلام فى نفوس هؤلاء القوم وأثر القرآن بصفة خاصة وما أحدثه فى الحياة الاجتماعية عند العرب من تبدل .

ويبدو أن دراسة العواطف فى الأدب أصبحت فى حاجة بالغة إلى الاستعانة على فهمها بما كشفه العلم الحديث من الحقائق التى تتصل بدراسة الحياة النفسية للإنسان ، ومنها الانفعالات والمشاعر والعواطف التى تضطرم فى نفس الأديب فيعبر عنها فى شعره أو نثره وما وصل إليه هذا العلم مما يعين على فهم الظواهر الاجتماعية التى يرن صداها فى الأدب وتتجلى صورتها فيه .

## ٣

والحب العذرى مثل عال لعاطفة الحب ، وصورة من صور تساميها ، وعاطفة الحب تحتاج فى تكونها إلى نظام اجتماعى يصون المجتمع من الفوضى ، ويحوط الفرد بما يحفظ عليه إنسانيته ، والحب لذلك لا وجود له فى المجتمع البدائى . وهناك كثير من اللغات ليس للحب فيها لفظ يدل عليه (١) . وتطور الحب عن الشهوة يحتاج إلى مراحل لم يقطع منها البدائيون إلا شوطا يسيراً (٢) ، فالحب إذن لايمكن أن ينشأ إلا مستذريا بظل من المدينة التى تنظم فيها الغرائز وتهذب الدوافع (٣)

ولا شك أن المجتمع العربى حتى قبل ظهور الإسلام لم يكن مجتمعاً بدائيا ولا قريبا من البدائى ، بل المظنون أنه وارث حضارة غابرة لا نكاد نعرف عنها وعن طبيعتها مايشفى الغليل ، وليست الجاهلية المعروفة — فى الراجح — إلا فترة خمود وتفسخ ، سبقها عصر حضارة كانت تدفع العرب بقوة الاستمرار فى الحياة المدنية .

---

(١) Have lock Ellis : Psychology of sex, p : 277.

(٢) نفس المرجع — p : 276

(٣) Impulses.

ومن الحق أن نلاحظ أن علاقة الرجل الجاهلى بالمرأة لم تكن علاقة مادية (فسيولوجية) محضاً ، بل لقد كانت المرأة عند العرب فى الجاهلية مصدر إلهام شعرى يدل على أن عاطفة الحب قد قطعت فى تطورها شوطا غير قليل ، ومانسيب زهير وعنترة ولبيد وغزل امرىء القيس عنا ببعيد .

كما أن من العسير على الباحث أن يقول إن المجتمع الجاهلى قد كان فيه من القيود التى تحول دون الفوضى الجنسية شىء كثير ، اللهم إلا تقاليد القبائل المعروفة من اعتزازهم بالأنساب ، الذى جعلهم يغارون على النساء ويفخرون بحمايتهن والحفاظ عليهن .

يستطيع الباحث إذن أن يطمئن إلى وجود عاطفة الحب عند العرب قبل الإسلام ، وأن بذورها نبتت فى المجتمع العربى ، ولكنها كانت فى انتظار النظام الاجتماعى الذى يعينها على النماء ويدفعها إلى التكامل ، وقد وجدت ذلك فى النظام الاجتماعى الجديد الذى جاء به الإسلام .

لقد جاء الاسلام بدستور اجتماعى وضع للعلائق بين الرجل والمرأة نظاما محكم الأطراف ، متين القواعد ، فلم يعترف إلا بالعلاقة المشروعة التى تسمى الزواج وحرم الزنا وفرض على مرتكبه عقوبة رادعة ، فأوصد بذلك طرق التنفيس غير المشروع عن الغريزة ، وصان المجتمع من التخبط فى الفوضى الجنسية التى تهبط بأفراده إلى حضيض البهائم .

وما إخالنى فى حاجة إلى الاستشهاد بالنصوص القرآنية المتعلقة بذلك ، فهى أشهر من أن تحتاج إلى إيرادها .

وتنظيم العلاقات الجنسية يؤدى من غير شك إلى إعلاء الغريزة ويدفع إلى تساميها ويعين على تكون عاطفة الحب .

ويفعل هذا التنظيم للعلاقات الجنسية فعلا آخر فى نفس الرجل وهو الجانب الإيجابى فى هذه العلاقات فيشعره بأن المرأة شىء ذوقيمة لابد له أن يسعى إليه ليحظى به ، وأن يجمل نفسه بما يجذبها إليه . ولم يقف عمل الإسلام لإعلاء العاطفة عند هذا الحد ، بل لقد أعان على ذلك بأن أقام المرأة فى المجتمع مقاما محموداً ، فأقر لها بمكانها اللائق بها فى المجتمع وجعلها شريكة الرجل فى حياته لها حقوق وعليها واجبات ، ومكن لتبادل الشعور ونجاوب العواطف بين الرجل والمرأة «وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها» ، «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» .

ليست المرأة إذن متاعاً يستمتع به الرجل ، وليست هذه الغريزة إلا وسيلة لحفظ النوع يستودعها الرجل فى المرأة « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » .

وقد أقام الإسلام للعلاقة بين الرجل والمرأة نظاماً فصّل فيه الحقوق والواجبات ، وشواهد ذلك كثيرة مبثوثة فى ثنايا القرآن وبخاصة فى سورتى البقرة والنساء .

وصفوة القول أن الإسلام قد استحدث بنظامه الاجتماعى الجديد أمرين : أولهما أنه نظم العلاقات الجنسية فأعان بذلك على إعلاء الغريزة . والثانى أنه رفع مكانة المرأة فى المجتمع فما عادت أداة لإشباع الشهوة وتطمين الغريزة .

وهذان هما القاعدة الاجتماعية الأولى التى يقوم عليها الحب . ولعل من المفيد فى هذا المقام أن نذكر ما قال به فرويد من أن الحب فى رأيه انحراف perversion عن الغاية الجنسية يفرضه عسر الوصول إلى الموضوع الجنسى (١) وذلك لا يكون إلا بالقيود الاجتماعية التى تحول دون وقوع المجتمع فى الفوضى .

وهو قد أشار إلى ضرورة أخرى لا بد منها لعاطفة الحب تلك هى ما يسميه إكبار الموضوع الجنسى (٢) .

وفى مثل ذلك يفيض الأستاذ مكدوجل فيتحدث عن تقويم المرأة وإكبارها واحترامها كضرورة اجتماعية لقيام العلاقة بين الجنسين على أساس الحب (٣)

أضف إلى ذلك أن الإسلام قد أمر بالعفة وغض البصر عن المحارم « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله عليم بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ...الخ الآية » .

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .

وندب إلى الحياء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان (٤) .

---

(١) Trois Essais sur la Theorie de la Sexualite — objet sexuel.

(٢) Surestimation de l'objet sexuel.

(٣) Introduction to Social Psychology, pp 365 — 366.

(٤) رواه البخارى ومسلم . وروى أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : « الحياء خير كله » « الحياء لا يأتى إلا بخير » وغير ذلك .

ونحن إذا رجعنا إلى البيئة التى نشأ فيها هذا الحب وجدنا قوماً سبقوا إلى الدخول فى الإسلام وأبلوا فى نصرته بلاء حسناً فاتخذت العقيدة الجديدة فى نفوسهم مكاناً مكيناً، ومعقلا حصيناً، ولا غرو أن يكون تأثرهم بالنظام الاجتماعى الذى جاء به وندب إليه رهناً باستجابتهم للعقيدة ومسارعتهم إلى الإيمان بها .

تلك أمور يشاركهم فيها كثير ممن آمن بالإسلام واطمأنت به نفسه وصفى له قلبه، ولكنهم كانوا يمتازون باستعداد لنشوء هذه العاطفة بينهم وشيوعها فيهم ذلك ما يكاد يجمع عليه المؤرخون من اشتهار بنى عذرة بالرقة والدماثة وكثرة الجمال ، وتلك ظروف تهيء للحب وتيسر سبيله .

وثمة أوضاع اجتماعية تمتاز بها القبائل وما يشاكلها من المجتمعات المحصورة فى نطاق ضيق منها حرص أفراد القبيلة على شرفها واعتزازهم بتقاليدها هذا الحرص وذاك الاعتزاز يدعوان الأفراد إلى التزام العفة وصون المحارم ، فاذا فرط أحدهم فى ذلك فاستباح مصوناً أو هتك حرمة ، عاد على نفسه بالعار والشنار كما عاد بذلك على من هتك حرمته .

أما إمعانهم فى الحب وبلوغهم فيه مبلغاً تقاصرت عنه صور الحب فى الأدب العربى فى مختلف عصوره فراجع من الوجهة العامة إلى اشتهارهم بالرقة والدماثة وشيوع الجمال فيهم وإلى فراغ شبابهم من مشاغل الحياة والشقاء فى كسب العيش والكد فى الحصول على القوت . فيروى المؤرخون أن بنى سعد بن زيد — وعذرة فرع منهم — كانوا فى حال من اليسر وخفض من العيش[1] وبذلك يفتخر شاعرهم جميل بن عبد الله بن معمر صاحب بثينة إذ يقول :

أنا جميل فى السنام من معد  فى الأسرة الحصداء والعيص الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد  ما يبتغى الأعداء منى ولقد
. . . . . الخ

وهو يصف بثينة وأترابها فيقول :

وقالت لأتراب لها لا زعانف  قصار ولا كس الثنايا ولا ثعل
إذا حميت شمس النهار اتقينها  باكسية الديباج والخز ذى الخمل

واجتماع الفراغ والغنى إلى الرقة والدماثة وشيوع الجمال لا بد أن ينتج حباً كهذا الحب الذى اشتهر عن بنى عذرة .

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ص ٣٠ .

ومن الناس من يظن أن هذا الحب العذرى حديث خرافة لا سبيل إلى وجودها فى الواقع وكثيراً ما يلقى إلى الباحث فيه مثل هذا السؤال . أوجد الحب العذرى وهل يمكن أن يوجد ؟ . وهل تطمئن إلى صورته التى ترويها كتب الأدب ؟

وهؤلاء لو شاءوا أن يستدلوا على الماضى بالحاضر فينظروا فى الأحوال الاجتماعية لكثير من القبائل العربية التى تعيش الآن بين أظهرهم لشهدوا فيها صورة قريبة من هذا الحب العذرى .

ذلك حيث ينشأ أبناؤها وبناتها فى المراعى أو الحقول فيشاطر الفتيات الفتيان أعمالهم ويزاملنهم فيها ، ثم لا يلبث الشبان أن يألف كل منهم زميلة يستلطفها ويعجب بها ويرتاح إلى صحبتها ويلذ له حديثها ومجلسها فتقوم بينهما علاقة أشبه بالصداقة بين أفراد الجنس الواحد فتراه يؤثرها بالالتفات ويحمل عنها بعض ما يوكل إليها من الأعمال ويغشى بيتها ويصل نفسه بأهلها .

حتى إذا بلغ الفتى مبلغ الرجال أو كاد وبلغت الفتاة مبلغ النساء توثقت بينهما الألفة وقويت بينهما العلاقة فاستحالت حباً نقياً بريئاً يهدف إلى الزواج[1] ، ولا يدور بخاطر الحبيبين أن يهتكا حرمة أو يكشفا ستراً ، ذلك لأن تقاليد القبائل تحكم على الحبيبين اللذين لا يصبران على العفة ويأبيان إلا أن يدنسا الحب ويعبثا بقدسيته بالقتل . زد على ذلك أنهما يكونان فى كثير من الأحيان قريبين يجمع بينهما النسب الدانى أو البعيد ، والقبيلة بأسرها تحمل وزر الجريمة التى يقترفانها وتوصم بالعار الذى يلحقانه بها . وهكذا يشعر كلاهما أنه مسئول عن سمعة الأسرة وبالتالى عن سمعة القبيلة التى تهون حياة أفرادها بالإضافة اليها .

ويقيمان على هذه الحال لا يصدهما عن الخلوة والحديث والاجتماع مانع من أهل أو عشيرة ، ويغشى الشاب بيت حبيبته فتستقبله أمها بكل اشتياق وتخصه بما لذ من المطعم والمشرب وتخفض له جناح الحنان لا تخشى عيباً ولا تخاف ذماً .

ثم إذا تيسر الزواج كان ذلك مسك الختام ، وإلا فما نقرأ فى أخبار العشاق من المرض والسهد والوجد والهيام فى البرارى ، وكثيراً ما يصاب العاشق بمرض عضال يحار فيه الطبيب ويلتبس أمره على العراف ، وقد يؤدى إلى الموت إن لم يؤد إلى اجتماع الشمل بين الحبيبين بالزواج .

---

(١) يعبر عن هذه الحالة عند العرب فى العراق فيقال فلان يخطب فلانة .

هذه صورة مجملة لم أصدر فيها عن الخيال ولم أتنكب فيها عن الواقع وإنما هى وقائع شهدت منها كثرة كثيرة فى الريف العراقى ولا أكاد أشك فى وجودها بين القبائل العربية فى الأقطار الأخرى .

* * *

وبعد فالحب العذرى ظاهرة اجتماعية جديدة نتجت عن التطور الذى أحدثه الإسلام فى نفوس العرب وهى نقطة البدء فى تاريخ العواطف فى المجتمع الإسلامى. ومهما يكن من أمر هذا التطور وشموله واتساعه فهو برغم ذلك لم يكن له قبل بتبديل الطبع البشرى أو تغيير فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأعنى أن هذا الانقلاب الاجتماعى شأن غيره من الانقلابات الاجتماعية قد كان أثره رهناً باستجابة الناس للدين الذى أحدثه وبذر بذوره .

وليس هذا الذى ذهبت اليه من أثر الإسلام فى نشأة الحب العذرى بدعاً من الرأى فقد وقع بيدى بعد كتابة هذا الفصل كتاب فى دراسة الحب عند الأفرنج[١] .

يتحدث المؤلف عن نشأة الحب الرومانسى[٢] فيستعرض تاريخ الحب فى أوروبا ويعترف أن الحب كعاطفة لم يوجد عند اليونان ولا تغنى به شعراؤهم وهو يدلل على ذلك بشعر هوميروس وخلوه من عاطفة الحب ومثل هذا كان عند الرومان فقد كانت عواطفهم كما تظهر فى شعر فرجيل[٣] وكاتول[٤] وتبل[٥] وبروبرس[٦] عواطف بدائية ليس فيها ما نسميه فن الحب[٧] .

وهو يعزو نشأة الحب الرومانسى إلى المسيحية إذ أقامت المرأة فى منزلة غير التى كانت لها من قبل . فقد ندبت إلى الحياء واصطنعت دون الوصول إلى المرأة حوائل خلقية . وجعلت للعلاقة بين الرجل والمرأة نظاما تسير عليه وفرضت على الزوجين احترام الزواج والتزام الإخلاص فيـه وتبادل الثقة بين الزوجين[٨] .

---

(١) Andre Maurois : Sept Visages de l'Amour. (Jeune Parque).
(٢) Naissance de l'Amour Romanesque.
(٣) Virgile ... (٤) Catulle.
(٥) Tibulle ... (٦) Properce.
(٧) فن الحب هو ما يسه الأستاذ أندريه موروا بال : L'Art d'Aimer, p 8
(٨) Sept. Vis. de l'Amour, p : 9.

على أنه يعترف بأن هناك مؤثرات أخرى عاونت المسيحية على إظهار هـذا الحب الرومانسى وهى تيارات اجتماعية وأدبية دخلت إلى أوروبا عن طريق جنوبى فرنسا أرض محاكم الحب[١] حيث وضع دانتى وبترارك تقاليد الحب الظريف[٢].

ومن الطريف أن تأخذ أوروبا هذا الحب الرومانى عن العرب عن طريق التروبادور والتروفير[٣].

---

(١) محاكم الحب وقد تحدث عنها ستندال فى كتابه On Love وذكر أن لها قوانين ولوائح كانت تحاكم بها المحبين .

(٢) L'Amour Courtois.

(٣) Troubadours et Trouveres. وهم شعراء جوالون .

# الفصل الثالث

## الحب العذرى

### صورته الأولى فى الأدب العربى

---

### تمهيـــد

أسلفت أن الحب العذرى ظاهرة اجتماعية إسلامية لم نعرف لها أصلا فى العصر الجاهلى وقلت إن ضياع كثير من شعر ذلك العصر أحد الأسباب التى تجعلنا نرجح ذلك . على أنى مع ترددى فى أن أقطع برأى فى هذا الأمر أكاد أقتنع بأن هذا الحب العذرى ظاهرة إسلامية كان للدين الجديد والنظام الاجتماعى الذى جاء به الأثر الأول فى خلقها وفى إخراجها على هذه الصورة .

وقد بسطت القول فى الفصل السابق — ما استطعت — حول نشأته وأسبابها وأريد فى هذا الفصل أن أطوف بأخبار من يعرف فى الأدب العربى بالعشاق العذريين ، وهم فئة من المحبين اشتهرت بحب عفيف نزيه بعيد عن الشهوة لا يتعلق بالجسد ولا يحفل باللذة الحسية وامتازت بالإخلاص لمن تحب والوفاء له والثبات على حبه حتى لقى بعضها من جراء ذلك حتفه .

وأشهر هؤلاء فيما نعلم عروة بن حزام وجميل بن عبد الله بن معمر العذريان وقيس بن ذريح الكنانى والمجنون قيس بن الملوح العامرى وهم طائفة من الشعراء تغنوا فى شعرهم بهذا الحب وصوروا فيه نفوسا اكتوت بناره وثبتت عليه وأخلصت فيه ولم يكن رائدها فيه قضاء شهوة أو ظفر بلذة وإنما كانت تكتفى فيه بالوصل البرىء .

شغلت هذه الطائفة أهل الأدب ورواة الأخبار فجمعوا ما اشتهر عنها من حوادث الحب وأحاديثه ، وألفوا فيه الكتب وجمعوا فيها ما سمعوه وما نقلوه من أخبارها .

والباحث فى تاريخ هؤلاء يضرب فى طريق غير واضحة المسالك ولا بينة المعالم

فقد كان للخيال فى وضع أخبارهم نصيب ، وتزيد الناس فيها حتى إن كثيراً منها ليعسر على المنطق السليم التسليم به ولو وقف الأمر عند هذا لهان ولكان العقل هو الفيصل فى الحكم على صحيح هذه الأخبار من مفتعلها ولكن هناك أمراً يزيد فى حرج الباحث وفى عسر مهمته ذلك هو ما يلاحظ أحياناً من تداخل أخبار بعضهم فى أخبار الآخرين حتى ليجد الباحث عنتا فى تمييز أشخاصهم وتبع ذلك تداخل شعرهم ، فالقصيدة تروى آنا لجميل وتروى لكثير آنا آخر والأبيات تنسب إلى قيس بن ذريح تارة ولقيس بن الملوح تارة أخرى .

قد يقال : وههنا تبدأ وظيفة الناقد فهو يستطيع أن يحكم على الأسلوب ونفس الشاعر . وقد كان الأمر يكون كذلك لولا أن القوم يصدرون عن عاطفة واحدة تتشابه فى الجوهر وفى الشكل حتى تكاد تتماثل ، وهذا يجعل وظيفة الناقد عسيرة أشد العسر .

ويزيد فى هذا العسر أن الباحث يكاد يسلك سبيلا وعرة لم يتصد لتمهيدها أحد من أساتذة الأدب المعاصرين ولم يوفها حقها من الدراسة العلمية الشاملة .

وقد عرض الأستاذ الدكتور طه حسين بك لهذه الطائفة فى كتابه حديث الأربعاء فتشكك فى ما ترويه عنها كتب الأدب من القصص ورجح أن يكون ذلك من وضع الرواة وقال إن معشوقاتهم نساء خرافيات يصورن المثل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة ، يقول : —

« والحقيقة التى ما أحسب أنها تتعرض للشك هى أن ليلى ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهندا ودعدا وسعاد كل هذه أسماء ما أظن أنها تعين مسميات ممتازات وإنما هى أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذى كانوا يلتمسونه ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون بالحب سواء منهم فى ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلى ولبنى وبثينة بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه هيلانة بالقياس إلى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين لسنا ندرى أوجدت حقا ، بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنما هى المثل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التى يتغناها الغزالون [1] » .

وجملة الأمر أن الدكتور يرجح أن ما يروى عن هؤلاء القوم من أحاديث الحب وحوادثه أشياء بعيدة عن أن تكون قد حدثت حقاً .

---

(١) حديث الأربعاء ج ١ ص : ٢٧٦ .

وما أظن أن بين الحياة اليونانية والحياة العربية ما يسمح لباحث أن يستهدى بالأولى لفهم الثانية أو فهم بعض أجزائها والحكم عليها، وبخاصة الحياة الأدبية والعاطفية، إذ من المعروف أن الأسطورة تشغل جانباً كبيرا هاماً من أدب اليونان، وإذن فاختراع الأشخاص امر ليس بغريب ولا بعيد فى الأدب اليونانى بل هو لازم فى أدب الأسطورة.

أما الأدب العربى وبخاصة بعد الإسلام [1] فلا تعرف الأسطورة مكاناً بين فنونه، ومع ذلك فإن الأدب العربى بعد الإسلام قد تأثر بالقرآن، وقد ندد القرآن بأساطير الأولين أيما تنديد.

والواقع أن أخبار هؤلاء القوم وأشعارهم قد زيد فيها واختلط بعضها ببعض وتداخلت سيرهم وأشعارهم بعضها فى بعض تداخلا يجعل مهمة الباحث شاقة عسيرة.

ولست أحسب هذا التزيد والتحوير والتداخل آتياً من عبث الرواة فحسب بل لست أذهب إلى أن ذلك أهم الأسباب فهنالك أمور أخرى أجدر أن ينسب ذلك إليها. فهذه الأخبار كانت تتناقل شفاهاً من غير تدوين — فى أول الأمر — وذلك يجعل الدقة فى الرواية أمراً بعيد المنال. وأمر آخر موضوعى وهو أن مادة الأخبار شىء فيه غرابة وفيه طرافة وقل أن يسلم الخبر الطريف من فعل الخيال ومن تزيده.

وهنا أمر آخر خطير ذلك أن كثيراً من الباحثين يحتكمون فى مثل هذا الموضوع إلى المنطق السائد فى عصرهم، فهم يستبعدون أن يموت عاشق من الحب أو أن يجن ويختلط عقله، وهم ينسون أن لكل عصر منطقه ولكل بيئة اجتماعية منطقها الذى يسود فيها وقد يسخر منه الناس فى غيرها. ونحن إذ نحتكم إلى منطق هذا القرن الذى نعيش فيه، فى الحال التى كان عليها أسلافنا فى القرون الوسطى نظلمهم ونظلم الحقيقة. وماذا على هؤلاء الباحثين لو نظروا فى الأحوال الاجتماعية عند القبائل العربية فى هذا العصر — وهى قد ورثت كثيراً من المظاهر الاجتماعية من أسلافها — إذن لشهدوا شبابا يجن من الحب أو يصيبه السل أو يختلط عقله فيهيم على وجهه فى البرارى ويجرى على لسانه الشعر ويولع بالغناء إلى غير ذلك من أحوال جد شبيهة بما نقرأ فى كتب الأدب عن أحوال هؤلاء العشاق. أعود فأقول إن دراسة الأدب العربى القديم لا يمكن أن تستقيم سبيلها

---

(١) هناك أساطير رويت فى شرح الأمثال وفيما يشبه ذلك وأغلب الظن أنها جاهلية.

ويتحقق الغرض منها مالم تسبقها دراسة للحال الاجتماعية التى كان عليها العرب فى باديتهم ، وذلك أمر يعين عليه البحث فى حال القبائل العربية فى هذا العصر إلى مدى بعيد .

ونرجع إلى ما نحن بصدده من الكلام على الصورة الأولى للحب العذرى وهى التى تبدو فى سير هؤلاء العشاق الشعراء وفى أشعارهم .

## ١

أقدم هؤلاء — فيما أعلم — عروة بن حزام بن مالك بن حزام بن ضبة بن عبد ابن عذرة ، أحب ابنة عمه عفراء بنت عقال . كانا تربان عاشا فى بيت واحد وكانا يلعبان معا ، ولا يكاد أحدهما يفارق الآخر ، فالف كل منهما صاحبه وظهر تعلق عروة بعفراء وحبه لها حتى أحس بذلك عمه أبوها فكان يقول له : أبشر فإن عفراء أمتك إن شاء الله[1] .

وما زالت ألفتهما تقوى وتشتد ، وحبهما ينمى ويزيد حتى لحق عروة بالرجال ولحقت عفراء بالنساء ، فأتى عروة عمة له يقال لها هند فشكا لها مايلقى من حب عفراء ، وسألها أن تسعى له لدى عمه ليزوجه بعفراء . فذهبت إليه وحدثته بحديث عروة وسألته أن يزوجه عفراء فوعدها خيراً وقال لها فيما يرويه أبو الفرج : « ماعنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب عنه ولا بنا عنه رغبة ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عجلة »[2] .

فاطمأنت نفس عروة وسكنت هواجسه وأقام عند عمه يخدمه ويجد فى اكتساب رضاه ، وكان عمه يمنيه عفراء ويماطله حتى شاع ذلك وذاع وأقام عروة يرجو أن يبر عمه بوعده :

فياعم لا أسقيت من ذى قرابة ... زلالا فقد زلت بك القدمان
ومنيتنى عفراء حتى رجوتها ... وشاع الذى منيت كل مكان
فوالله لولا حب عفراء ما التقى ... على رواقا بيتك الخلقان
ولم أتبع الأظعان فى رونق الضحى ... ورحلى على نهاضة الخديان
لعفراء إذ فى الدهر والناس غرة ... وإذ خلقانا بالصبا يسران

حتى إذا سار عروة يوما فى عير لأهله إلى الشام جاء ابن عم لعفراء من البلقاء

---

(١، ٢) الأغاني — ج ٢ ص : ١٥٢ .

فخطبها من أبيها فزوجه إياها . ولما حملها إلى بلده أقبل عروة من سفره فأبصر رفقة مقبلة من ناحية المدينة وفيهم امرأة على جمل أحمر فقال لأصحابه والله لكأنها عفراء فقالوا له: ويحك ما تترك ذكر عفراء! ولما دنا منها عرفها فبهت ووقف لا يطيق حراكا ولا يحير كلاما فلما سار ركبها وفقدها قال :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة لها بين جلدى والعظام دبيب
فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصرف عن رأيى الذى كنت أرتئى وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
وقد علمت نفسى مكان شفائها قريبا وهل ما لاينال قريب
لئن كان برد الماء أبيض صافيا إلى حبيباً إنها لحبيب[1]

أما لماذا حال عمه بينه وبين عفراء فظاهر مما أسلفنا أنه فعل ذلك لقلة مال عروة ولضيق ذات يده وهو يشير إلى ذلك فى قصيدته النونية المعروفة فيقول :

يكلفنى عمى ثمانين ناقة وما لى والرحمن غير ثمان

ويروى أبو الفرج أن أم عفراء كانت سيئة الرأى فى عروة فما زالت بزوجها حتى أقنعته بأن يزوج عفراء من ابن عمها الموسر وقد فعل ذلك حين رحل عروة يلتمس شيئاً من المال فلما رجع تحايلوا عليه وأخبروه أنها ماتت ولكنه عرف من بعض نسائهم الخبر اليقين[2] .

وليس لهذه الرواية سند فى شعور عروة وليس فيه ذكر أم عفراء وجله حديث عن غدر عمه :

فيا عم ياذا الغدر لا زلت مبتلى حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية وأورثت عينى دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته وقلبك مقسوما بكل مكان

وتروى الأخبار أنه أصابه الهلاس[3] وأخذه الهذيان والقلق ، فقال بعض أهله إنه مسحور وقال آخرون هو مجنون . فحملوه إلى عراف باليمامة ليداويه فما أفلح فى شفائه ، ثم أخذوه إلى عراف آخر بحجر[4] فلم ينفعه دواؤه . وهو يقص ذلك فى نونيته بأسلوب يفيض رقة ويقطر حزنا فيقول :

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٥ .
(٢) الأغانى - ج ٢ ص ١٥٤ .
(٣) الشعر والشعراء ص ١٤٥ .
(٤) يروى ابن قتيبه أن العراف الثانى كان بحجر ويروى البيت هكذا « وعراف حجر » وهذه رواية الأمالى ج ٣ ص ١٥٧ .

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا : نعم نشفي من الداء كله ... وقاما مع العـــــواد يبتدران
نعم وبلى قالا متى كنت هكذا ؟ ... ليستخبراني قلت : منذ زمان
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذى بى كله ... ولا ادخرا نصحاً ولا ألواني
فقالا : شفاك الله والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدان
فرحت من العراف تسقط عمتى ... عن الرأس ما ألتاثها ببنان
معى صاحبا صدق إذا ملتُ ميلة ... وكانا بجنبى ساعة عدلاني

ولم يحتمل عروة المقام بعيداً عن عفراء ، فارتحل إلى البلقاء ، حيث ارتحل بها زوجها ، وأقام قريباً من بيتها ، تأتيه فيشكو إليها ويأنس بحديثها ، وكان زوجها يعلم ذلك ولا ينكره ، ولا يمنع عفراء منه ، فقد كان عروة يختلى بها دون أن يقرب منها أو ينال منها نيلا[1]. وأقام على هذه الحال زمانا وعادت إليه العافية ولكنه آثر بعد لأى أن يرحل إكراما لابن عمه ، واعترافا بفضله. فلما رحل انتكس وعادت إليه علته ، وأصابه الخفقان ، فكان إذا أغمى عليه ألقوا على وجهه خماراً لعفراء زودته إياه فيفيق[2].

وكان عروة من فرط حبه لعفراء وشوقه إليها يأتى حياض الماء التى كانت تردها إبل عفراء فيلصق صدره بها[3].

ورجع عروة إلى منازل أهله ، وقد غلبته علته ، فلم يلبث أن وافته المنية[4].

ويروى قصة وفاته أبو على القالى بسنده عن النعمان بن بشير أنه قال : استعملنى معاوية رضى الله عنه على صدقات بلى وعذرة فانى لفى بعض مياههم إذ أنا ببيت منحرد ناحية وإذا بفنائه رجل مستلق وعنده امرأة وهو يقول ، أو يتغنى بهذه الأبيات :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا : نعم نشفي من الداء كله ... وقاما مع العـــــواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلا وقد سقياني
فقالا : شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

---

(١) الأغانى — ج ٢ ص : ١٥٤ .
(٢) الأغانى — ج : ٢ ص : ١٥٤ .
(٣) نفس المرجع ص : ١٥٦ .
(٤) تزيين الأسواق — ج ١ : ص : ٨٥ .

فقلت لها : ماقصته ؟ فقالت : هو مريض ؛ ماتكلم بكلمة ولا أن أنة منذ وقت كذا وكذا إلى الساعة ، ثم فتح عينيه وأنشأ يقول :

من كان من أخواتى باكيا أبدا فاليوم إنى أرانى اليوم مقبوضا
يسمعننيه فإنى غير سامعه إذا حملت على الأعناق معروضا

ثم خفت فمات فغمضته وغسلته وصليت عليه ودفنته وقلت للمرأة : من هذا ؟ فقالت : هذا قتيل الحب ! هذا عروة بن حزام[1] .

## ٢

ومنهم قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر ابن ليث بن بكر بن عبد مناة وهو على بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار[2] ، ويزعم بعضهم أنه قيس بن ذريح بن الحباب بن سنة مستدلا بقوله :

فإن يك تهيامى بلبنى غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت

أحب لبنى بنت الحباب الكعبية من بنى كعب بن خزاعة .

وفى ذلك يروى أبو الفرج أن قيساً خرج فى بعض أسفاره فمر لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فوقف على خيمة لبنى واستسقى ماء فخرجت لبنى إليه بالماء وسقته وعرضت عليه أن ينزل ويستريح فنزل ثم جاء أبوها فنحر له وأكرمه فانصرف وفى قلبه حب لبنى[3] .

وما زال يزورها ويشكو إليها وجده حتى ظهر له منها مثل ما عنده فطلب إلى أبيه أن يخطبها له فأبى عليه ذلك وكان موسرا فخشى أن يذهب ماله فى بنى كعب ، وعرض على قيس أن يزوجه من إحدى بنات عمه . ثم أتى قيس أمه فشكا اليها وجده بلبنى فلم ترق له .

ولما أيس من والديه أقبل على الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وكان أخاه من الرضاعة أرضعته أم قيس[4] فشكا اليه مايلقى فى حب لبنى وحدثه بما فعل به أبوه وأمه فسار به الحسين إلى قوم لبنى . فلما رأوا الحسين أعظموه ووعدوه خيرا وسألوه أن يأتى بأبى قيس اليهم خاطبا ففعل .

---

(١) الأمالى لأبى على القالى ج : ٣ كتاب النوادر ص : ١٥٧ .
(٢) الأغانى — ج : ٨ ص : ١٠٧ .
(٣،٤) الأغانى — ج : ٨ ص : ١٠٨ .

ولما تزوج قيس بلبنى صرفته عن أمه وكان بارا بها قبل زواجه فكانت تشكو ذلك إلى أبيه . وحدث بعد ذلك أن مرض قيس مرضا شديدا فلما شفى أرادت أمه أن يتزوج بأخرى لعله يعقب من يرث مال أبيه وحرضت أباه على ذلك فكلمه فيه ؛ فأبى ، فعرض عليه أن يتسرى فأبى ؛ فأقسم عليه ليطلقنها وألح عليه وحلف ليطرحن نفسه فى الرمضاء لا يكنه سقف حتى يفعل ذلك قيس فاجتمع الناس على قيس ولاموه فيما يفعل بأبيه وما زالوا به حتى طلق لبنى[1] . وهو يحكى ذلك فى شعره فيقول :

فصرت وشيخى كالذى عثرت به غداة الوغى بين العداة كميت
فقامت ولم تضرر هناك سوية وفارسها بين السنابك ميت
فإن يك تهيامى بلبنى غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت
فلا أنت ما أملت فى رأيته ولا أنا لبنى والحياة حويت
فوطن لهلكى منك نفسا فإننى كأنك بى قد يا ذريح قضيت

ولما طلقها اشتد به الوجد ( فلم يلبث أن استطير عقله ، وذهب به ولحقه مثل الجنون[2] ) وندم أشد الندم . وهذه فيما أظن نقطة التحول فى حبه حيث أنضجه حرمانه منها فتكاملت العاطفة واستقرت وامتلكت نفسه . ونحن لانعرف له قبل طلاقها شعرا له فيها إلا أبياتا قليلة منها قوله :

صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فيم فالتأم الفطور
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور[3]

وكل ما بقى من شعره ، أو على الأصح ما وصلنا منه ، يدل على أنه قيل بعد الطلاق : —

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلق
فطاوعت أعدائى وعاصيت ناصحى وأقررت عين الشامت المتملق[4]

---

(١) الأغانى — ج : ٨ ص : ١٠٩ والأمالى — ج : ٢ ص ٧٥ وتزيين الأسواق ج : ١ ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢) الأغانى — ج : ٨ ص : ١١٠ .
(٣) يرويان لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وقبلها :
تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
( ديوان الحماسة لأبى تمام ) .
(٤) رواية الأغانى « المتخلق » ولعل ما أثبتناه أصح .

وددت وبيت الله أنى عصيتهم وحملت فى رضوانها كل موثق
وكلفت خوض البحر والبحر زاخر أبيت على أثباج موج مغرق
كأنى أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عينى بعدها كل منظر ويكره سمعى بعدها كل منطق

وكانت حياته بعدها سلسلة متصلة من الحنين إليها والأسف على فراقها ولوم نفسه على التفريط فيها وقد عبر عن ذلك فى شعر صادق العاطفة شديد التأثير فى النفس : —

تكاد بلاد الله يا أم معمر بما رحبت يوما على تضيق
تكذبنى بالود لبنى وليتها تكلف منى مثله فتـــــذوق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أننى لكم والهدايا المشعرات صديق
تتوق إليك النفس ثم أردها حياء ومثلى بالحياء حقيق
أذود سوام النفس عنك وما لها على أحد إلا عليك طريق
. . . . . .
وحدثتنى يا قلب أنك صابر على البين من لبنى فسوف تذوق
فمت كمداً أو عش سقيما فانتى بها مغرم صب الفؤاد مشوق
بلبنى أنادى عند أول غشية ويثنى بها الداعى لها فأفيق

وقد وصف حاله من بعدها فهو تارة يتمنى النوم فى غير حينه لعله يلقى طيفها فيه :

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام أنى أراكم فياليت أحلام المنام يقين

وهو فى نهاره إنسان سوىّ كـكل الناس يقضيه بالحديث عنها ويتمنى أن لو تعود إليه ، حتى إذا جن ليله جن جنونه واجتمعت عليه الهموم وأحاطت به الفواجع ، وهو بين هذا وذاك نهب لتبريح الوجد ، قد صدع هجرها قلبه يبكى لما وقع وهو يدرى أن ذلك لايجدى عليه ولا يقيل عثاره .

أتبكى على لبنى وأنت تركتها وكنت كآت حتفه وهو طائع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع
لقد رسخت فى القلب منك مودة كما رسخت فى الراحتين الأصابع

أحال على الهم من كل جانب ودامت فلم تبرح عليّ الفواجع
ألا إنما أبكى لما هو واقع فهل جزعى من وشك ذلك نافع

ويكاد الرواة يتفقون على هذا القدر من سيرته ثم يذهبون فى خاتمته مذاهب شتى فيها شىء غير قليل من فعل الخيال الروائى ، فمنهم من يزعم أنه قد كتب له الخروج من هذه المحنة والرجوع إلى لبنى فعاش معها باقى حياته فى صفاء وهناء ، وآخرون يزعمون أنه مات على هذه الحال بعد أن أهدر السلطان دمه من أجلها فساح فى البرارى وتزوج غيرها إلى غير ذلك من تخيلات الرواة .

ولسنا فى مقام الحديث عن حياته والإفاضة فى تاريخها وكل ما يهمنا منها أنه أحب لبنى وتزوجها ثم طلقها فاشتد به الوجد وأكل الندم قلبه .

وابن ذريح بعد هذا صورة طريفة من صور الحب العذرى يمتاز بأن أعراض الحب ظهرت عليه بعد الزواج واشتدت به بعد الطلاق وهو حجة على الطاعنين فى الحب العذرى والشاكين فيه بل المنكرين وجوده أولئك الذين لا يدركون غير الحب الحسى ولا يشعرون بسواه ، فلو كان الأمر كما يزعمون لفتر حب قيس للبنى بعد زواجه منها ولم يعد للهفه عليها وتعلقه بها من سبب ولوجد بعد طلاقها فى غيرها عوضا وسلوى ، ولكن الأمر كما أسلفت تعلق نفسى وعاطفة مركبة تمتلك الجوارح ، مبدؤها ألفة تنمى وتزيد حتى تبلغ بالمحب هذا المبلغ .

ثم زاد الزواج فى الألفة واشتد به التعلق حتى إذا انفصمت بينهما عراه ضاقت بذلك نفسه وخلت مما كان يملأ جوانبها فظهر على قيس ما ظهر من لوعة وأسى يلمسهما قارئ شعره فتستثير فى نفسه أنبل المشاعر وأسمى العواطف .

وحسبى دليلا على ما أذهب إليه أن قيسا لم يصف لبنى — فيما روت كتب الأدب من شعره — وصفا حسيا إلا فى القليل النادر وهو لا يلبث أن يتخطى ذلك إلى الحديث عن صفاتها النفسية والخلقية وما فعله به حبها . مثال ذلك قوله :

شهدت على نفسى بأنك غادة رداح وأن الوجه منك عتيق
وأنك لن تحزننى بصحابة ولا أنا للهجران منك مطيق
وأنك قسمت الفؤاد فنصفه رهين ونصف فى الحبال وثيق

وقوله :

أتبكى على لبنى وأنت تركتها وكنت عليها بالملا أنت أقدر
فإن تكن الدنيا بلبنى تقلبت على فللدنيا بطون وأظهر
لقد كان فيها للأمانة موضع وللكف مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان رى بريقها وللمرح المختال خمر ومسكر

هذا يدل — إن دل على شيء — على أن حب قيس للبنى كان علاقة نفسية أكدها الزواج وأحكم أواصرها وزاد فى قواها . وأنا إذ أقول علاقة نفسية إنما أعنى ما يريد علماء السيكولوجيا بالنفس وهى مجموعه القوى الشعورية والعقلية فى الإنسان ، وهى تعمل كوحدة ، وأريد أن يتأكد أنه حب بعيد عن أن يكون حباً حسيا . ولعل فيما أسلفت الدليل الذى يؤيد ذلك . وبهذا يكون قيس ابن ذريح صورة صادقة طريفة للحب العذرى .

## ٣

ومنهم مجنون بنى عامر قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة ابن كعب[١] . واختلف فى اسمه فقال بعضهم هو مهدى بن الملوح أو غير ذلك والصحيح أنه قيس بدليل قول ليلى فيه :

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة  متى رحل قيس مستقل فراجع[٢]

وهو الذى يعرف بمجنون ليلى وهى ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة ابن الجريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة[٣].

ويروى أن قيساً كان جميل الوجه أبيض اللون وكان كلفا بمحادثة النساء صبا بهن وكانت ليلى من أجمل النساء وأظرفهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا[٤] وكانت تكنى أم مالك .

وألف كل منهما الآخر وهما صبيان يرعيان مواشى أهلهما ثم نمت الألفة وتعلق كل منهما بصاحبه ولم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه . وفى ذلك يقول قيس :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة  ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا  إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم[٥]

ثم خطبها ومهرها خمسين ناقة حمراء ثم خطبها ورد بن محمد العقيلى فأكرهها أهلها على اختيار ورد ذلك لأن العرب كانت تكره أن تزوج عاشقين فشا أمرهما واشتهر بين الناس عشقهما[٦] .

---

(١) ونسبه أبو العباس المبرد فى بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فى الكامل ج : ١ ص : ٢٥٠ . وهكذا رواية أبي الفرج عن المدائنى ج : ١ ص : ١٦١ من الأغانى .

(٢) الأغاني ج : ١ ص : ١٦١ .  (٣) الأغانى ج : ١ ص : ١٦٤ .

(٤) المرجع السابق ص : ١٧٣ .  (٥) الأغانى ج : ١ ص : ١٦٤ .

(٦) يرى الدكتور طه حسين أن هذه بدعة من بدع الرواة (حديث الأربعاء ج : ١ ص : ٢٢٤) =

وصفوة القول أن قيسا خطب ليلى فرد عنها ولم يتيسر له الزواج منها بل لقد تزوجت غيره على كره منها فاشتد وجده ؛ وزاد هيامه بها حتى أصابه الجنون ( فكان لا يلبس ثوبا إلا خرقه ولا يمشى إلا عاريا ويلعب بالتراب ويجمع العظام حوله ، فإذا ذكرت له ليلى أنشأ يحدث عنها عاقلا ولا يخطىء حرفا ، وترك الصلاة فإذا قيل له مالك لا تصلى لم يرد حرفا ) قال أخوه : « فكنا نحبسه ونقيده فيعض لسانه وشفته حتى خشينا عليه فخلينا سبيله فهو يهيم[1] » . وليست إصابته بالجنون بعيدة أو مستغربة إذ يروى أبو العباس المبرد عن عبد الصمد بن المعذل أنه سمع الأصمعى يقول : إنه كانت به لوثة كلوثة أبى حية النميرى[2] » واللوثة فى لغة هذا العصر ضعف الأعصاب أو مايشبهه ويقرب منه ، وهذا إذا اجتمع إليه الوجد الشديد واليأس فى الحب لا يبعد أن يستحيل جنوناً .

وحين تزوجت ليلى ويئس منها عظم ذلك عليه واشتد وجده وزاد لهفه فحج به أبوه إلى مكة ، فلما صار بمنى سمع مناديا ينادى « يا ليلى » فصاح صيحة ظنوا أنه مات منها ثم وقع مغشيا عليه وبقى كذلك حتى أصبح فأصبح حائل اللون ذاهلا ، ثم أنشد :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى
دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر

ومما يدل على تمكن حبها من نفسه وتغلغله فى قلبه ، واستقراره فيه ، واخلاصه لها ، وثباته على الهيام بها ؛ ما يروى من أن أباه سأله أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه من حب ليلى ، فتعلق بأستار الكعبة وقال « اللهم زدنى لليلى حبا ، وبها كلفا ، ولا تنسنى ذكرها أبداً[3] » .

ونسب إليه فى ليلى شعر على جانب عظيم من صدق العاطفة والابتكار فى معانى الحب حتى يكاد قارئه لا يشك بأن قائله عاشق تيمه الحب وولهه وبلغ به مبلغا غير مألوف ؛ فمن ذلك قوله وقد بلغه أن ليلى سترتحل مع زوجها عما قريب : —

---

= ولم يذكر دليلا على هذا وإن كنت أرجح أنه على حق فليس بين العرب المعاصرين من يفعل ذلك وإنما هم يغالون فى مهر البنت إذا خطبها عاشق راغب فيها .

(١) الأغانى ج : ١ ص : ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢) كتاب الكامل ج : ١ ص : ٢٥٢ والأغانى ج : ١ ص : ١٦١ .
(٣) الأغانى — ج : ١ ص : ١٦٦ .

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد غلق الجناح
لها فرخان قد علقا بوكر فعشهما تصفقه الرياح

وهو يتحدث فى شعره عن أحوال تشبه أحوال المجانين فهو يخرج من المجلس ليحدث نفسه بحديثها أو يتكلف النعاس لعله يرى طيفها فى نومه إلى غير ذلك من غريب الأحوال :

وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس فى السر خاليا
وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا
أشوقا ولما تمض لى غير ليلة رويد الهوى حتى يغب لياليا

وقد سبق لى أن قلت فى أول الفصل إن أخبار القوم أصابها شىء غير قليل من عبث الرواة وتزيدهم ، واختلط بعضها ببعض وتداخل شعرهم بعضه فى بعض حتى أصبح البحث فيهم على جانب كبير من العسر والمشقة . ولقد ذهب بعض أساتذة الأدب المعاصرين إلى الشك فى وجودهم ، وأنكره بعضهم فذهب إلى أن فلانا وفلانا من الشعراء والعشاق ليسوا أشخاصا تاريخيين ولكنهم أبطال قصص مخترع ، وضعه الرواة وصنعوا أشعاره .

وأوفر هؤلاء حظا من تلاعب الرواة وتزيدهم المجنون العامرى الذى نحن بصدد الكلام فيه . فالشك فيه وإنكار وجوده أمر قديم لم يكن الدكتور طه حسين أول قائل به ، وإنما كان الدكتور طه أول من وسعه وأمعن فيه فصار يشمل غير المجنون من العشاق[1] . فيروى أبو الفرج عن أيوب بن عباية أنه قال : « سألت بنى عامر بطنا بطنا عن مجنون بنى عامر فما وجدت أحداً يعرفه » . وعن الأصمعى أنه قال : « رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم مجنون بنى عامر وابن القرية فإنهما وضعهما الرواة » . وعن ابن الكلبى قال : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه[2] .

واتكأ الدكتور طه حسين على هذه الأقوال فاستخلص منها أن المجنون وغيره

---

(١) حديث الأربعاء — ج : ١ ص : ٢٢٤ وما بعدها .
(٢) الأغانى — ج : ١ ص : ١٦١ .

لا يمثلون أشخاصا تاريخيين[١] وأبعد فقال إن ليلى ولبنى وبثينة وعزة نساء خرافيات شأن هيلانة فى الشعر اليونانى[٢] .

ولعل فى تهافت الرواة وتضارب أقوالهم فى الذى يذهبون إليه ما يدعو الباحث إلى إعادة النظر فيما زعمه بعضهم من إنكار وجود المجنون . فهم يروون تارة أن قد كان فى بنى عامر جملة عشاق مجانين يشببون بليلى . ويروى أبو الفرج عن الأصمعى أنه قال : سألت أعرابيا من بنى عامر بن صعصعة عن المجنون العامرى فقال : عن أيهم تسألنى فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذى كان يشبب بليلى ، فقال : كلهم كان يشبب بليلى قلت : فأنشدنى لبعضهم فأنشدنى لمزاحم بن الحرث المجنون :

ألا أيها القلب الذى لج هائما ... وليدا بليلى لم تقطع تمائمه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى ... لك اليوم أن تلقى طبيباً تلائمه
أجدك لا تنسيك ليلى ملمة ... تلم ولا عهد يطول تقادمه

قلت : فأنشدنى لغيره منهم فأنشدنى لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لاعبت ليلى وقادنى ... إلى اللهو قلب للحسان تبوع
وطال امتراء الشوق عنى كلما ... نزفت دموعا تستجد دموع
فقد طال إمساكى على الكبد التى ... بها من هوى ليلى الغداة صدوع

قلت : فأنشدنى لغير هذين ممن ذكرت فأنشدنى لمهدى بن الملوح :

لو ان لك الدنيا وما عدلت به ... سواها وليلى حائن عنك بينها
لكنت إلى ليلى فقيراً وإنما ... يقود إليها ود نفسك حينها

قلت له : فأنشدنى لمن بقى من هؤلاء . فقال حسبك فوالله إن فى واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم[٣] .

ويروون تارة أخرى أن لم يكن فى بنى عامر من يقع فى العشق بل ليس ذلك إلا شأن اليمانية الضعاف القلوب . يروى أبو الفرج عن ابن دأب أنه قال لرجل من بنى عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ قال أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين ، إنهم لكثير . فقلت : ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق . فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظ

---

(١) حديث الأربعاء ج : ١ ص : ٢٢٤ .
(٢) نفس المرجع ص : ٢٧٦ .
(٣) الاغانى ج : ١ ص : ١٦٢ — ١٦٣ .

أكباداً من ذلك إنما يكون هذا فى هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصلعة رؤوسها ، فأما نزار فلا[١] .

ولعل التضارب الواضح بين هذه الأقوال يزهدنا فيها فلا نقيم لها كبير وزن . فأما قول الأصمعى : « رجلان ماعرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم مجنون بنى عامر الخ » فلا يوافق أوله آخره ، ولا يستقيم معه . وأما ابن الكلبى فمطعون فيه غير مقبول الرواية .

وأما رواية ابن دأب عن هذا العامرى فهى تبين عن عنجهية فيه فهو يربأ بقومه عن العشق وينكر أن يكون ذلك فيهم ويزعم أنهم أغلظ أكباداً من أن يصابوا به ، ومثل هذا لايؤخذ بقوله ولا يطمأن إليه لأنه غال فى العصبية لقومه شديد الغيرة عليهم . وكيف نصدق أن بنى عامر أو أية قبيلة أغلظ أكباداً من أن يعبث بهم العشق ؟

والحق الذى لاشك فيه أن المجنون قد زيد فى أخباره وفى أشعاره واختلط الأمر على هؤلاء الرواة فأثبته بعضهم . يروى أبو العباس المبرد عن عبد الصمد ابن المعذل أنه قال سمعت الأصمعى يثبته ويقول : لم يكن مجنونا وإنما كانت به لوثة كلوثة أبى حية النميرى[٢] .

وقد نبه بعض رواة الأدب على ذلك فذكروا التزيد فى أخباره وفى شعره . فابن قتيبة يذكر أن الناس نحلوه شعراً كثيراً رقيقا يشبه شعره ، وضرب لذلك أمثلة[٣] .

وروى أبو الفرج الأصفهانى عن الأصمعى أنه قال :الذى ألقى على المجنون من الشعر وأضيف إليه أكثر مما قاله هو . وعن الجاحظ أنه قال : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل فى ليلى إلا نسبوه للمجنون ولا شعرا هذه سبيله قيل فى لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح[٤] .

وهكذا يبدو لنا مجنون بنى عامر من بين ما حاطه الرواة به من تزيد فى أخباره وما نحلوه من الشعر أشبه بالشبح منه بالشخص . وكل ما تستطيع أن نطمئن إليه من سيرته أنه أحب ليلى منذ كانا صبيين يرعيان المواشى :

---

(١) الأغانى ج : ١ ص : ١٦١ .
(٢) كتاب الكامل ج : ١ ص : ٢٥٢ .
(٣) الشعر والشعراء ص : ٢٢٠ .
(٤) الأغانى — ج : ١ ص : ١٦٣ .

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وهذا أمر كثير الحدوث بين فتيان البدو وفتياتهم إلى اليوم ، وما زال حبها يكبر فى نفسه ويتمكن منها حتى كبرا ، فحجبت عنه ، وقال فيها الشعر واشتهر أمرهما وشاع ، فخطبها فرد عنها . وكانت خيبته فى حبه سبباً فى أن يصيبه الجنون فيهيم فى البرارى ويألف الوحش ، وذلك أمر غير بعيد إذا ذكرنا قول بعض الرواة إنه كانت به لوثة ، وكان إذا ذكر بليلى وحدث عنها يثوب إلى رشده ، ويرجع إلى صوابه فيحدث عنها عاقلا ، وينشد فيها الشعر .

ونحن نستطيع أن نستدل على صحيح الشعر المنسوب إليه من التهاب عاطفته وتدفق شعوره وشدة أسره وقوة أثره فى النفس فهو يكاد يوحى بالجنون من الحب فى نفس قارئه ، وفيه معان مبتكرة غريبة لا تصدر إلا عن شاعر صادق العاطفة قد بلغت به مبلغ الجنون أو ما يقرب منه . مثال ذلك قوله :

أظن هواها تاركى بمضلة من الأرض لامال لدى ولا أهل
ولا أحد أفضى إليه وصيتى ولا صاحب إلا المطية والرحل

وقوله :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة ببطن منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وقوله :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خاليا
وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس فى السر حاليا
أشوقا ولما يمض لى غير ليلة رويد الهوى حتى يغب لياليا

وجملة الأمر أنى لا أكاد أتخيل أن يقول الرواة شعراً كهذا الشعر ثم ينحلوه قيس بن الملوح أو غيره من العشاق الشعراء ، فذلك يعجز عنه من لم يبلغ به الحب مبلغ الجنون والذهول أو ما هو منهما بسبب .

وأكاد أطمئن إلى أن هذا الشعر لعاشق ولهه الحب ومخض نفسه حتى أخرج زبدتها شعراً كهذا الشعر ، لا أبالى أهو قيس بن الملوح أم غيره .

## ٤

كان الذين تحدثنا عنهم فيما سبق فريقا من العشاق شقوا فى حياتهم وعدت عليهم العوادى بعد مماتهم فقد ضاع كثير من شعرهم وتقسم الباقى بين كتب الأدب ولم يسعدوا بمن يلم أطرافه من بعدهم ويجمع شتاته[1] فيحفظ بذلك ذكرهم ويعين الباحث فيهم على تصورهم فى صورة قريبة من الواقع ، ويبدو أن حظهم من الشعر ما كان عظيما ولا وافرا ، فزهد رواة الأدب فى شعرهم ولم يهتموا به ويجمعوه .

وهذا أوان الحديث عن جميل بثينة إمام المحبين، كما يدعوه القدماء ، ونموذج المحب العذرى كما يبدو لى أن أدعوه . وهو أوضح من أصحابه سيرة وأبين معالم ، فقد أسعده الحظ بمن يجمع ديوان شعره ويضم فيه شتات أفكاره ، وإن لم يسعدنا الحظ بالاطلاع عليه على وجه التمام[2] .

وهو جميل بن عبد الله بن معمر بن صباح بن ظبيان بن حن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبد بن كبير بن عذرة . وأمه من جذام ولد فى البادية بالحجاز فى الموضع المعروف بوادى القرى وهناك نشأ ، وكانت ولادته فى أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجرى وقضى أكثر حياته فى الحجاز وارتحل إلى اليمن ثم رجع إلى الحجاز حتى غادره إل مصر قبيل وفاته فمات فيها سنة اثنتين وثمانين هجرية[3] .

أحب بثينة بنت الحباب من بنى الأحب وهم فرع من بنى حن بن ربيعة تعلقها وهو صغير بدليل قوله :

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل  إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

وفى ابتداء حبه يروى أهل الأدب والأخبار أنه كان يرعى إبلا لأهله فأقبل بها ذات يوم على واد يسمى وادى بغيض فأرسلها واضطجع وأهل بثينة بذنب الوادى ، فأقبلت هى وجارية لها تردان الماء فمرتا على فصال له بروك ، فنفرتهن بثينة فسبها جميل وسبته وكان ذلك أول علاقته بها وفى ذلك يقول :

---

(١) لم أعثر على ديوان لعروة بن حزام ولا لقيس بن ذريح وللمجنون ديوان طبع أكثر من مرة والاختلاط فى شعره واضح .

(٢) ديوان جميل لا يزال مخطوطا محفوظا فى مكتبة برلين ( دائرة المعارف الإسلامية مادة « جميل » ) وطبعت مجموعة من شعره في بيروت وجمع جبراييلى جزءاً من شعره وطبعه فى روما .

(٣) ابن خلكان .

وأول ما قاد المودة بيننا  بوادى بغيض يابثين سباب
فقلنا لها قولا فجاءت بمثله  لكل كلام يابثين جواب[1]

ولعله حين ملح لديه سبابها، واتصلت بقلبه أسبابها، ألف التردد على حيها فكان يلقاها وتلقاه، ويتحدثان ويتناجيان. فألفها وألفته، ولا يعلم أحد بذلك حتى خرج جميل فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال فى كل عيد، وأن جميلا وقف على بثينة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحب فرأى منهن منظرا وأعجبنه، وقعد معهن ثم راح، وكان معه فتيان من بنى الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا فى نظره حب بثينة ووجدوا عليه، فراح وهو يقول[2]:

عجل الفراق وليته لم يعجل  وجرت بوادر دمعك المتهلل
طرباً وشاقك ما لقيت ولم تخف  بين الحبيب غداة برقة محول
وعرفت أنك حين رحت ولم يكن  بعد اليقين وليس ذاك بمشكل
لن تستطيع إلى بثينة رجعة  بعد التفرق دون عام مقبل[3]

واشتهر أمرهما وشاع حبهما فكان يأتيها ويتحدث إليها ولا يصبر أحدهما عن الآخر حتى لقد حلفت بثينة بالله لا يأتيها جميل على خلاء إلا خرجت إليه وكثر ذلك منه واشتهر، فبلغ قومها، وكانوا (أصلافا غيارى) فتوعدوه، ولما بلغه وعيدهم أقبل على ناقته الصهباء، والقوم يرصدونه، حتى وقف على بثينة وأم الحسين وأنشدها:

حلفت برب الراقصات إلى منى  هوىّ القطا يجتزن بطن دفين
لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقيا  سليمى ولا أم الحسين لحين[4]
فليت رجالا فيك قد نذروا دمى  وهموا بقتلى يا بثين لقونى

فوثب عليه القوم فنجا بناقته.

ثم خطبها جميل من أهلها فأبوها عليه، وزوجوها من نبيه بن الأسود العذرى الذى يقول فيه جميل:

---

(١، ٢) الأغانى — ج: ٧ ص: ٧٦.

(٣) هذه رواية الأغانى والأبيات بادية التكلف بينة التصنع حتى لايكاد الناقد يشك فى أنها مصنوعة منحولة وبخاصة البيت الثالث فهو مضطرب المعنى مهلهل النسج، ومثل ذلك فيما ينسب إلى جميل غير قليل.

(٤) ها هو ذا لايصرح باسمها بل يكنى عنها بسليمى وتلك حال من أحوال المحب فى أول حبه. ويروى الأستاذ العقاد (أم الجسير) فى كتابه جميل بثينة.

لقد أنكحوا جهلا نبيهاً ظعينة لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل

ولم يمنعه هذا الزواج من أن يزورها فى بيت زوجها سراً، أو يواعدها مكاناً يلتقيان فيه، فيتحادثان ويتشاكيان الوجد، لا يبالى تهديداً ولا يخاف وعيدا :

ولو أن ألفاً دون بثنة كلهم غيارى وكل حارب مزمع قتلى
لحاولتها إما نهاراً مجاهرا وإما سرى ليل ولو قطعت رجلى

ويبدو أن أهلها كانوا أقل شأناً من أن يقرنوا القول فى تهديده بالعمل، فقد كان أشد منهم قوة وأكثر جمعا :

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى وهموا بقتلى يابثين لقونى
إذا ما رأونى طالعاً من ثنية يقولون: من هذا؟ وقد عرفونى
يقولون لى: أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بى خاليا قتلونى
وكيف؟ ولا توفى دماؤهم دمى ولا مالهم ذو ندهة فيدونى

فإذا جاءها زائراً تعرض لها زوجها فأغضى عنه، كأنه لا يراه واجتنى عليها الذنوب فيصرمها خوفا عليها :

إذا جئتها يوما من الدهر زائرا تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويغضى عن هواى ويجتنى عليها ذنوبا إنه لعنود
فأصرمها خوفا كأنى مجانب ويغفل عنا مرة فنعود

وعادى جميل فى ذلك حتى خشى أهل بثينة أن يلحقهم العار من تردده عليها فيروى أنهم شكوه إلى الوالى واستعدوه عليه، فتوعده وأهدر لهم دمه إن هو ألم ببيوتهم؛ فكان يصعد على قور رمل يتنسم ريح بثينة ويقول :

أيا ريح الشمال أما ترينى أهيم وأننى بادى النحول
هبى لى نسمة من ريح بثن ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل[1]

ثم ضاق به الأمر فهرب من وجه السلطان وأوى إلى جذام أخواله. وهو يقول فى ذلك :

أتانى عن مروان بالغيب أنه مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
فنى الأرض منجاة وفى العيس مهرب إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

وكان عاقبة أمره أن رحل إلى مصر[2] ليقضى فيها نحبه غريباً لا يبكيه حبيب

(١) الأغانى — ج: ٧ ص: ٨٦.
(٢) لعل له فى مصر أهلا وعشيرة فقد رحل إليها بعد الفتح فريق من بنى عذرة كما أسلفنا.

ولا يألم لفقده حميم. ولعل سبب هذه الرحلة أنه ضاق بمطاردة السلطان إياه ذرعا وما عاد يستطيع أن يقيم فى أرضه، أو مل العيش خائفاً أو على رحل.

أجدك لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رحل

فآثر أن يهجر ديار قومه وهو كاره، ثم لم يلبث أن توفاه الله سنة اثنتين وثمانين هجرية.

وفى حديث وداعه لبثينة يروى ابن قتيبة وأبو الفرج الأصبهانى بسنديهما عن عجوز تحدثت بخبر جميل وبثينة فقالت: « والله إنا لعلى ماء بالجناب وقد تنكبنا الجادة لجيوش كانت تأتينا من قبل الشام تريد الحجاز[1] وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثاً فانحدروا ذات عشية إلى صرم قريب يتحدثون إلى جوار منهم فلم يبق غيرى وغير بثينة إذ انحدر علينا منحدر من هضبة فسلم ونحن مستوحشون وجلون، فتأملته ورددت السلام فإذا جميل فقلت: أجميل؟ فقال: إى والله وإذا به لا يتماسك جوعا، فقمت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن ورب فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت: أصب من هذا فأصاب منه، وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه فقلت له: لقد جهدت فما أمرك؟ قال: أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر: ثم ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه[2] ».

وهو يحدثنا بهذا الموقف الوداعى المؤثر فى شعره فيقول:

وما أنس ملأشياء لا أنس قولها وقد قربت نضوى: أمصر تريد؟
ولا قولها: لولا العيون التى ترى أتيتك فأعذرنى فدتك جدود

وهو يعنى هذا الموقف حين يقول:

ثمن كان فى حبى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال على شهيد

وأقام فى مصر والشوق ملء فؤاده، والحنين إليها لا يزال يعاوده فيذكرها بالبرق إذا أومض نحو أرضها، وبالريح إذا هبت من نحو بلادها:

تذكرت من أضحت قرى اللدد دونه وهضب لتيما والهضاب وعور
فظلت لعينيك اللجوجين عبرة يهيجها برح الهوى فتمور

---

(١) لعل ذلك كان لحرب ابن الزبير.
(٢) الشعر والشعراء، والأغانى — ج: ٧ ص: ١٠٣.

على أننى بالبرق من نحو أرضها وإن قصرت عنه العيون بصير
وأنى إذا ما الريح يوم تنسمت شآمية عاد العظام فتـــور

* * *

ولقد بدأ حب جميل بثينة ألفة توثقت عراها حين كانا يرعيان الإبل ، فمرت به بثينة فنفرت فصاله البروك التى كان يرد بها الماء فسبها وسبته ، وملح لديه سبابها :

وأول ما قاد المودة بيننا بوادى بغيض يا بثين سباب
فقلنا لها قولا فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب

وهو يذكر أنه أحبها وليدا وما زال حبها ينمى فى نفسه ويزيد :

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

حتى أنحل ذلك الحب جسمه بعد صحة ، وأضعفه بعد قوة وزلزل كيانه حتى أنكر من نفسه ما كان يعرف :

تعلقتها والجسم منى مصحح فما زال ينمى حب جميل وأضعف
إلى اليوم حتى سل جسمى وشفنى وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف

وقد ملأ حب بثينة نفسه حتى فاض على أهلها ومنازلها :

وقالوا : يا جميل أتى أخوها فقلت: أتى الحبيب أخو الحبيب
أحبك أن نزلت جبال حسمى وأن ناسبت بثنة من قريب

وهو حب قديم متجدد متصل لا يبلى ولا يحول، ولا يفلح فيه لوم العذال أو زجر الزاجرين :

وقد كان حبكم طريفاً وتالدا وما الحب إلا طارف وتليد

* * *

ألا أيها الحب المبرح هل ترى أخا كلف يغرى بحب كما أغرى
أجدك لا تبلى وقد بلى الهوى ولا ينتهى حبى بثينة للزجر

ويعجب الناس لهذا الحب ويتعجبون لامتلاكه إياه فيظنون أن به جنة أو سحراً وهو يقسم لهم ما به شىء من ذلك :

يقولون : مسحور يجن بذكرها وأقسم ما بى من جنون ولا سحر[1]

وقد تغلغل هذا الحب فى قلبه حتى بلغ سويداءه وتمكن فيه حتى امتنع على الزوال :

---

(١) هذا يشير — ولو من بعيد — إلى العنصر العقلى فى عاطفة الحب كما قرر علماء النفس .

لها فى سواد القلب بالحب منعة هى الموت أوكادت على الموت تشرف

فهو يهواها مادام حيا ، ويسأل الله أن يجاور بينهما فى الموت ، خشية أن يكون الموت مفرقاً للشمل :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى بثينة فى أدنى حياتى ولا حشرى

وجاور إذا مامت بينى وبينها فياحبذا موتى إذا جاورت قبرى

ولعل من معاد القول أن نذكر أن جميلا كان فى حبه موحدا لا يشرك فيه مع بثينة أحدا ، فقد اشتهر هذا عنه كما اشتهر عن أمثاله ممن ذكرنا ، ونحن واجدون فى شعره وفى أخباره شيئاً كثيرا يدل على انصرافه إليها واشتغال نفسه بها عن غيرها .

فمن ذلك ما يروى أن جميلا نزل فى بيت شيخ من عشيرته ، فأراد هذا أن يغرى بناته به ، لعله يصبو إلى إحداهن فينسى بثينة ويذهب مابه من حبها ففعلن ، فما وجدن فيه ثنية يطلعن إلى نفسه منها حتى يئسن منه . فقال هو فى ذلك :

حلفت لكيما تعلمونى صادقا وللصدق خير فى الأمور وأنجح

لتكليم يوم واحد من بثينة ألذ من الدنيا لدى وأملح

من الدهر لو أخلو بكن وإنما أعالج قلباً طامحاً حيث يطمح[1]

وهو يروى فى شعره أن نساءكن يتعرضن له حين يزور بثينة ، فكان يسوى بينهن فى طرفه حتى لا يبدو عليه الانصراف إلى بثينة ، لقد كان يفعل ذلك وقلبه مملوء من حبها ليس فيه لغيرها فضل :

ويحسب نسوان من الجهل أننى إذا جئت إياهن كنت أريد

فأقسم طرفى بينهن فيستوى وفى الصدر بون بينهن بعيد

وكن يلمنه على تمسكه بها ويعرضن عليه الوصل ويزهدنه فى بثينة فما كان يرعوى قلبه أو تنثنى عنها نفسه :

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل

فأجبتها بالقول بعد تستر : حبى بثينة عن وصالك شاغلى

لو كان فى قلبى كقدر قلامة فضل وصلتك أو أتتك رسائلى

ويقلن : إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل

ولباطل ممن أحب حديثه أشهى إلى من البغيض الباذل

---

(١) تزيين الأسواق — ج : ١ ص : ٣٩ .

ويرى جميل أن هذا الحب رابطة مقدسة أحكم الله عقدها وجعل بينهما موثقا ألا يزول أحدهما عن حب صاحبه ولا يحول :

لقد لج ميثاق من الله بيننا وليس لمن لم يوف لله من عهد

ويتجلى ثباته على الحب ووفاؤه لهذا الميثاق فى أمرين : أولهما عصيانه الوشاة وإعراضه عن اللائمين ، بل إن عذل العذال ووشاية الواشين تزيد مودتها عنده وتعظم مقامها فى نفسه وتزيده تماديا فى التعلق بها والحفاظ على حبها :

وما زادها الواشون إلا كرامة على وما زالت مودتها عندى

* * *

ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

فهو لا يطيع فيها أحداً أبدا، ولا يسمع فيها مقالة ناصح أو لوم لائم، ولو كان أخاً حميما أو ذا قرابة يهوى له الرشد ويريد به الخير :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه فى ملامته رشدى
وقال : أفق حتى متى أنت هائم ببثنة فيها قد تعيد وقد تبدى
فقلت له فيها : قضى الله ما ترى على وهل فيما قضى الله من رد
فإن يك رشداً حبها أو غواية فقد جئته ما كان منى على عمد[1]

على أنه يخشى عليها أن تستجيب للوشاة وتطيع الكاشحين ، فتذهل عنه أو تستبدل به غيره :

ألا لا أبالى جفوة الناس مابدا لنا منك رأيا يا بثين جميل
وما لم تطيعى كاشحا أو تبدلى بنا بدلا أو كان منك ذهول

والأمر الثانى الذى يتجلى فيه ثباته على الحب ووفاؤه فيه رضاه بحبها وسكونه إليه ، وقناعته فيه بالقليل :

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدها

لا يسأل على ذلك جزاء إلا أن تقارضه ودا بود ووفاء بوفاء :

فهل تجزينى أم عمرو بودها فإن الذى أخفى بها فوق ما أبدى

وهو يقنع منها بما تقر به عين الواشى من وعد لا تعقبه بوفاء، أو نظرة عجلى لا تشفى أوام المحب ، أو أمل يخيب فلا يتحقق :

---

(١) هذا ينبىء بتعطل إرادته على حد تعبير الأستاذ العقاد ( جميل بثينة ) ويكشف عن ضعف يعين عليه أن العذول أخ ذو قرابة حبيب إليه الرشد .

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

على أنه يعود فى بعض مواضع من شعره فيسألها الوفاء بوعد طال الأمد بمطاله وهو يبهم فلا يفصح به :

إنى إليك بما وعدت لناظر ... نظر الفقير إلى الغنى المكثر
يعد الديون وليس ينجز موعدا ... هذا الغنى لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذى تعدينى ... إلا كبرق سحابة لم تمطر

وهو يصرح بذلك حيناً آخر فيقول :

هل الحائم العطشان مستق بشربة ... من المزن أتروى مابه فتريح
فقالت فنخشى إن سقيناك شربة ... تخبر أعدائى بها فتبوح
إذن فأباحتنى المنايا وقادنى ... إلى أجلى عضب السلاح ضبوح
لبئس إذن مأوى الكريمة سرها ... وإنى إذن من حبكم لصحيح

ولم يخل شعره فى بعض مواضعه من البرم بحبها والضيق بما يلاقى فيه ، فهو آناً يلوم نفسه على تماديها فى الكلف ببثينة وما أعقبه ذلك من هوان وذل اختارها على العز والمكان الرفيع :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فياويح نفسى حسب نفسى الذى بها ... وياويح أهلى ما أصيب به أهلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله مثلى
أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها ... وأهلى قريب موسعون ذوو فضل

وهو يعنف قلبه آنا آخر ليفيق من حب بثينة ، ويطلب إليه أن يتسلى عنها ويدع ذكرها ، فهى تبخل عليه بالوصل وتؤيسه من النيل ، وهى قد بعدت وحيل دونها فما بقى فيها مطمع :

ألا من لقلب لا يمل فيذهل ... أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ود علمت مكانه ... وأنت بها حتى الممات موكل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها ... وإن كنت تهواها تضن وتبخل
وقد أيأست من نيلها وتجهمت ... وللبأس إن لم يقدر النيل أمثل
وإلا فسلها نائلا قبل بينها ... وأبخل بها مسئولة حين تسأل
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها ... وقد جذ حبل الوصل ممن تؤمل

وإن التى أحببت قد حيل دونها فكن حازما والحازم المتحول

وهذا التناقض إن دل على شىء فإنما يدل على أمانته فى تصوير نفسه وما كان يضطرب فيها من النوازع ؛ فهو قبل كل شىء عاشق يغريه الوصل — أيا كان — بالثبات على الحب والازديادمنه والفناء فيه وفى المحبوب والهجر إن طال واستمر يؤيسه ويسلمه إلى مثل هذا الصراع فى نفسه ، وقلب العاشق كالمراة يجلوها الوصل ويزيد فى رونقها فيصفو ماؤها ويتلألأ رواؤها ، ويرين عليها الهجر فينكسف شعاعها ويغيض لألاؤها .

والحب كالنبت فى القلب منه ما يستقى من الخارج فيرويه وصل الحبيب وينعشه ويبعث فيه الحياة والنماء ، ومنه ما يستمد الرى من أرضه التى ينبت فيها وأرضه القلب ، ولا عجب إن ظهر على المنبت شىء من الجفاف واحتاج إلى شىء من الرى .

* * *

وجملة القول فى الصورة الأولى لهذا الحب العذرى أنه مظهر صادق لعاطفة الحب يستولى على النفس بجملتها فتخضع له وتمتلىء به حتى لا يبقى لغيره فيها مجال . وهو كما شهدنا فى أخبار هؤلاء القوم وأشعارهم يتميز بالمعالم الآتية :

١ — أنه ينشأ من قبل أن تستفيق فى النفس الدوافع الجنسية — فى الغالب — ألفة مثل الصداقة بين اثنين فى بيت واحد كعروة وعفراء أو حى واحد كجميل وبثينة وكقيس وليلى وكقيس ولبنى ثم ينمى ويزيد حتى يبلغ بالمحبين مبلغ التتيم والوله .

٢ — أن عنصر الشهوة فيه لا يكاد يبين والاحتفال بالجسد ضئيل لا يكاد يذكر وقد مر بنا فى أشعار القوم ما يؤيد ذلك وما يظهرنا على أن للصفات النفسية فى هذا الحب المقام الأول .

٣ — انصراف المحب فيه إلى محبوبة واحدة تملك عليه شعوره وتستأثر بعواطفه وتملأ عليه نفسه فلا يكاد يلتفت إلى غيرها .

# الكتاب الثانى

## الحُبُّ العُذرى

## تطوّرهُ

# تمهيـــد

فرغنا من الكلام على نشأة الحب العذرى وعن صورته الأولى فى الأدب العربى، ونحن الآن بسبيل الحديث عن تطوره. وأعنى بتطور الحب العذرى انتقاله من عاطفة يتغنى بها فريق من الشعراء — قلت فيهم وفى بيئتهم ما استطعت — حتى أصبح فكرة يتداولها بعض الكتاب فيحددونها ويحللونها ويشرحونها ويستعينون على ذلك بما تسعفهم به ثقافتهم فى ذلك الحين حتى لقد كتبوا فيها الكتب ووضعوا فيها الرسائل. فمن ذلك كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصفهانى الظاهرى، وكتاب طوق الحمامة فى الألفة والألاف لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فقيه الأندلس المشهور ووزيرها الخطير وإمام أهل الظاهر فيها.

ومن طريف أمر هذا الحب أن الباحث فيه يفتقده فى الشعراء بعد أولئك الذين ذكرنا فى الفصول السابقة فيجده قد حل فى بيئة جديدة ما كان يتصور أن يوجد فيها لانشغال أربابها بجد الأمور وبعدهم عما يهيىء للانغمار فى عبابه. تلك هى بيئة الفقهاء والقراء ممن عرفوا بالتقوى والورع والبعد عن الشبهات.

على أن وراثة الفقهاء والنساك للحب العذرى ليست فيما أظن وليدة الصدفة أو الاعتباط بل إن الأمر فيها يكاد يكون طبيعيا لا مراء فيه ذلك أن الغريزة التى ركبت فى الإنسان لحفظ النوع — وسلطانها على النفوس غير منكر — لا بد أن يخضع لها الإنسان[1] بشكل من الأشكال فإما استهتار وسعى فى إشباعها وتطمينها من غير ما ورع ولا تحفظ، أو كبت يجنى منه شذوذا نفسيا وانحرافا جنسيا أو تسام يحيلها عاطفة قوية ثابتة مستقرة وقد أطلقنا على مظهر من مظاهر تساميها اسم الحب العذرى.

ومر بنا فى حديث الأستاذ مكدوجل (فى الفصل الأول) أن الدين وما يبث فى نفوس المتمسكين به من الشعور بالخطيئة[2] يعمل على إعلاء الغريزة الجنسية

---

(١) أريد بذلك طبعا وقت أن لا يتيسر له تطمينها بالطريق المشروع وما يشبهه.

(٢) Intrcduction to Social Psychology.p 363 "Consciousness of Sin".

ويعين على تساميها ومن ظن أن التقوى والورع يميتان الغرائز أو يكبتان الدوافع الطبيعية فقد ضل سواء السبيل وإنما تستعلى بهما الغرائز وتسمو بهما العواطف .

ونحن نشهد فى العصر الإسلامى عصر الراشدين وعصر بنى أمية مثلين من هذه الطائفة أولهما عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حفيد أخى عبد الله ابن مسعود الصحابى المعروف برواية الحديث وقراءة القرآن .

## ١

وكان عبيد الله هذا كعم أبيه من وجوه الفقهاء وكبار رواة الحديث . وهو أحد سبعة من أهل المدينة كانوا فى المقدمين من أهل الفقه والنسك والعبادة وهم القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر عبد الرحمن ابن الحرث بن هشام ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار[١] . وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة كابن عباس وكعمه عبد الله بن مسعود وأبى هريرة وروي عنه ابن شهاب الزهرى وغيره .

وحسبه منزلة فى العلم والفقه أن كان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره وأن ابن شهاب الزهرى قال فيه : « أدركت أربعة بحور عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحدهم[٢] » .

وكانت له منزلة اجتماعية مرموقة فكان يجله الأمراء ويتمنون صحبته ومجالسته فكان عمر بن عبد العزيز يقول : « ليت لى مجلسا من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بدية[٣] » .

وكان يعرف لنفسه قدرها ويعتد بمكانه فى الفقه والعلم وبمنزلته فى المجتمع فقد دخل عليه محمد بن شهاب الزهرى يوما منزله فوجده ينفخ وهو مغتاظ فسأله عن السبب فقال له : « جئت أميركم آنفاً يعنى عمر بن عبد العزيز فسلمت عليه وعلى عبد الله بن عمرو بن عثمان فلم يردا » فقلت :

فمسا تراب الأرض منها خلقتما ومنها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلما فما خشى الإنسان شرا من الكبر

---

(١) الأغانى — ج : ٨ ص : ٨٨ .
(٢) الأغاني — ج : ٨ ص : ٨٨ .
(٣) الأغانى — ج : ٨ ص : ٨٨ .

فلو شئت أن ألفى عدوا وطاعنا لألفيته أو قال عندى فى السر
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج ويستشرى[١]

وكان عبيد الله فيما يبدو من سيرته مرهف الإحساس مشبوب العاطفة فكان ينفس عن ذلك بقول الشعر وسئل فى ذلك فقيل له : « أتقول الشعر فى فضلك ونسكك » فأجاب : « إن المصدور إذا نفث برأ[٢] » .

وقد وقع هذا الفقيه الناسك فى الحب فتعلق بامرأة جميلة أقبلت إلى المدينة من ناحية مكة من هذيل فخطبها الناس وكادت تذهب بعقول أكثرهم وكان ممن فتنت من أفاضل أهل المدينة صاحبنا الفقيه فقال فيها :

أحبك حباً لو علمت بمثله لجدت ولم يصعب عليك شديد[٣]
وحبك يا أم الصبى مدلهى شهيدى أبو بكر وأنت شهيد[٤]
ويعلم وجدى القاسم بن محمد وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفى سليمان علمه وخارجة يبدى لنا ويعيد
متى تسألى عما أقول فتخبرى فللحب عندى طارف وتليد[٥]

ولعله خطبها وتزوجها رغم أن الرواة لا يفصحون عن ذلك إلا أنهم يروون أنه طلق امرأة له كانت تسمى عثمة عاتبا عليها فى بعض الأمر ثم ندم على طلاقها أشد الندم وكان يقول فيها الأشعار ، فمن ذلك قوله :

لعمرى لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أنى فى الثياب صحيح
غراب وظبى أعضب القرن ناديا بصرم وصردان العشى تصيح

وهو فى ندبه على فراقها ولهفته عليها يذكرنا بقيس بن ذريح وما لاقى بعد طلاق لبنى من أهوال .

ومن رقيق شعره فيها وهو يفيض باللوعة والأسى :

كتمت الهوى حتى أضرّ بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم
ألا من لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم
أأترك إتيان الحبيب تأثما ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها قد كنت تحسب أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

---

(١،٢) الأغانى — جـ : ٨ ص : ٩١ — ٩٢ .
(٣) رواية الأغانى : « لجدت ولم يصعب عليك شهيد » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٤) فى الأغانى : « شهيدى أبو بكر وإنى شهيد » وبما صححناه يستقيم الوزن .
(٥) الأغانى — جـ : ٨ ص : ٩٣ .

وأية عاطفة أقوى من العاطفة التى تغلب الفقيه على فقهه فيلوم نفسه على هجران مطلقته وهو يعلم أن زيارتها له فى الشرع إثم ، ثم لا يملك إلا أن ينقاد لحبه فيقول : « ألا إن هجران الحبيب هو الإثم » .

ومن شعره فيها وهو يمتاز بصدق العاطفة وحرارة اللوعة وشدة التأثير فى نفس القارىء .

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فيم فالتأم الفطور
وأنفذ جارحاك سواد قلبى فأنت على ماعشنا أمير[1]
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنسانا يطير

وقد ليم على شدة وجده وقوله الشعر فى ذلك فقال : « فى اللدود راحة المفؤود » ويظهر أن حب عثمة قد بلغ به مبلغا عظيما وبرح به تبريحاً شديداً حتى قضى عليه . فقال فيه ابن عباس : « هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود[2] » .

## ٢

والمثل الثانى على ما نحن بصدده فقيه قارىء ناسك من أهل مكة عرف بالورع واشتهر بالعبادة والنسك ، ذلك هو عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى الملقب بالقس فقد شغف بسلامة المغنية المعروفة فى العصر الأموى وهام بها فاشتهر أمرها حتى عرفت بلقبه ، فقيل لها « سلامة القس » . وكانت سلامة قينة من قيان سهيل ابن عبد الرحمن . وقد سمع القس غناءها على غير تعمد منه فأعجب به وبلغ من نفسه أعظم مبلغ فرآه مولاها وعرض عليه أن يخرجها إليه فأبى أو يدخل إليها فيسمع غناءها فأبى فلم يزل به حتى خرجت إليه وغنت بين يديه فتعلق بها وتعلقت به ، ثم إن المحبة توكدت بينهما واشتهر أمرها حتى شاع فى أهل مكة . وكان عبد الرحمن يلم بها فيسمع غناءها ويتحدث إليها فيبل بذلك أوامه ويطفى هيامه[3] .

---

(١) هذا البيت فى رواية الأغانى يأتي بعد الذى يليه . وهو أوثق صلة بقوله : صدعت القلب ...الخ فلذلك جعلناه بعده .

(٢) طوق الحمامة فى الألفة والألاف لابن حزم — ط دمشق ص ٥ .

(٣) الأغانى — جـ : ٨ ص : ٦ .

ويروى أنه خلا بها ذات مرة فأخذا بأطراف الأحاديث فقالت له فيما قالت : « أنا والله أحبك » فقال لها : « وأنا والله أحبك » قالت : « وأحب أن أضع فمى على فمك » قال : « وأنا والله أحب ذلك » قالت : « فما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لخال » قال : « إنى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول إلى عداوة » . ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك[1] .

ولهذا الخبر عندى دلالتان الأولى هذا السلطان القاهر لعاطفة الحب يغالبه العابد الناسك ثم لا يلبث أن يستسلم له طوعا أو كرها ويعترف بقوته وهيمنته عليه اعتراف من لا حيلة له فى دفعه ولا حول له فى الانفلات من ربقته .

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها فاعجب لما تأتى[2] به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام

والدلالة الثانية هى تأييد ما قدمت من أثر الدين فى نشأة هذا النوع من الحب وأثره البعيد فى إعلاء الغرائز وسمو العواطف بما يوحى فى نفس المتمسك به من الشعور بالخطيئة ، وذلك يتجلى على أحسن وجه وأتم صورة فى قول عبد الرحمن لسلامة بعد استشهاده بالآية الكريمة : « وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول إلى عداوة » هو إذن يعرض عن طاعتها فيما دعته إليه خوفا من الله وإبقاء على حبها وحرصا عليها .

ولعبد الرحمن القس فى سلامة شعر رقيق ينم عن نفس دمثة رقيقة الحاشية وشعور مرهف شديد الحساسية ، فمن ذلك قوله :

إن التى طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا فى ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الضياء لناظر فإذا وذلك بيننا أحلام

ومنه قوله :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألا ليت أنى حيث صار بها النوى جليس لسلمى حينما عج مزهر
وأنى إذا ما الموت زال بنفسها يزال بنفسى قبلها حين تقبر

---

(١) الأغانى — ج : ٨ ص : ٦ .
(٢) فى رواية الأغانى « تؤتى » ولعل ما أثبتناه أصح .

وقوله :

أهابك أن أقول بذلت نفسى ولو أنى أطيع القلب قالا
حياء منك حتى سل جسمى وشق على كتمانى وطالا

* * *

قلت فى أول هذا التمهيد إن الحب العذرى بعد نشأته فى الحجاز ودروجه بين شعراء باديتها قد التمس له منزلا آخر أقام فيه على الرحب والسعة فوجد فى بيئة الفقهاء والقراء والعباد . وكان ظهوره أول الأمر فى الحجاز أيضاً وهذا أمر يتقبله الباحث بلا دهشة ولا عجب فقد عرف عن فقهاء الحجاز وعلمائه أنهم على جانب عظيم من سعة الصدر لمثل ذلك . فكانوا يستمعون إلى الغناء ويطربون له ويعجبون به ويروون الشعر الغزلى العفيف وغير العفيف ولا يتحرجون من روايته فى مجالسهم . وحسبنا دليلا على ذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس وما يروى عنه من الأخبار فى هذا الصدد .

أما الذى يندهش له الباحث ويتعجب منه فهو ظهور هذا الحب فى بيئة عرف فقهاؤها بالتزمت وضيق الصدر بمثل هذه الأمور ، حتى إنهم كانوا يأخذون على فقهاء الحجاز تساهلهم وتسامحهم فى سماع الغناء وما هو منه بسبيل ، أولئك هم فقهاء العراق وتلك بيئتهم . ويزيد فى دهشة الباحث أن يكون إمام هذا المذهب فى الحب إمام لمذهب فى الفقه لا يحكم قياساً ، ولا يؤول نصا ، وإنما يأخذ بالظاهر ، ذلك هو أبو بكر محمد بن داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى .

ولم يقتصر أمر هذا الحب على أخبار تحكى ، وأشعار تقال وتروى ، بل لقد كتبت فيه الكتب ووضعت فيه الرسائل . فكتب أبو بكر بن داود كتاب الزهرة لحبيبه محمد بن جامع الصيدلانى البغدادى . واقتفى أثره من بعده الفقيه الظاهرى الأندلسى أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فكتب رسالة طوق الحمامة فى الألفة والألاف .

ويحسن قبل الحديث عن محمد بن داود وكتابه وابن حزم ورسالته أن نعرض لمن سبقهما إلى الكتابة فى الحب ومن حاول أن يجعل منه فكرة يخضعها للبحث .

## ١

وأول بارقة نلمحها فى تاريخ الأدب العربى حديث لجماعة من المتكلمين والنظار فى مجلس يحيى بن خالد بن برمك يرويه المسعودى . وجملة ما فيه أنه كان ليحيى ابن خالد بن برمك مجلس ينتظم فيه جماعة من أهل البحث والنظر وعلماء الكلام من المسلمين وغيرهم من أهل النحل والآراء . فطلب إليهم يحيى ذات يوم أن يتكاموا فى العشق فيقول كل منهم ما يسنح له فيه وما يخطر عنه بباله .

فابتدأ الكلام متكلم من الإمامية اسمه على بن الهيثم فقال : « أيها الوزير العشق ثمرة المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين وهو من بحر اللطافة ورقة الصنيعة وصفاء الجوهر ، وليس يحد لسعته ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

فقال الثانى وهو أبو مالك الحضرمى من الخوارج : « أيها الوزير : العشق نفث السحر وهو أخفى وأحر من الجمر ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين وله تغول فى القلب كتغول صبب المزن فى خلل الرمل وهو ملك على الخصال تنقاد له العقول وتسكن له الآراء » .

وقال محمد بن الهذيل العلاف المعتزلى : « أيها الوزير : العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة مرتق فى الأجساد مسرعة فى الأكباد وصاحبه متصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ولا يسلم له موعود تسرع إليه النوائب وهو جرعة من نقيع الموت ونغبة من حياض الثكل غير أن العشق من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة توجد فى الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغى إلى داعية المنع ولا يسنح لنازعة العذل » .

وقال هشام بن الحكم شيخ الإمامية فى عصره : « أيها الوزير العشق حبالة نصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب فاذا علق المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وتكافؤ فى الطريقة وملاءمة فى الهمة له مقتل فى صميم الكبد ومهجة القلب يعقد اللسان الفصيح ، ويترك المالك مملوكا ، والسيد خولا ، حتى يخضع لعبد عبده » .

وقال إبراهيم بن سيار النظام : « أيها الوزير : العشق أرق من السراب ، وأدب من الشراب ، وهو من طينة عطرة عجنت فى إناء الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد فاذا

فرط عاد خبلا قاتلا، وفسادا معطلا، لا يطمع العلاج فى صلاحه ، له سحابة غزيرة تهمى على القلوب فتعشب شغفاً وتثمر كلفا ، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس شارف للزمن ، طويل الفكر إذا أجنه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى وإفطاره الشكوى » .

وقال على بن منصور من نظار الشيعة الامامية : « العشق — أيها الوزير — داء لطيف المربى ، يمتزج بالنفس ويخامرها ويمشى فى الآراء فيفيض فيها لا يصحو شاربه ولا يفيق نزيفه ، وهو من ناحية المطابقة والمجانسة فى التركيب والصنعة » .

وقال معتمر بن سليمان من شيوخ المعتزلة: «العشق — أيها الوزير — نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة . له دبيب كدبيب النمل أسيره شديد الوثاق وصريعه قلما يقام وهو تعارف الطبائع واتصال الأرواح وتداعى الضمائر وتجاور الضرائب والتمتع به لا يتم سروره توقعا للفراق وعند التلاقى توقيا للوشاة سمته الفلاسفة هاذم اللسكة وهادم البنية » .

وقال بشر بن المعتمر المعتزلى شيخ البغداديين : « العشق — أيها الوزير — منفاة للهجوع ، مدعاة للخضوع ، صاحبه أذل من النقد وإن كان فى شدة الأسد يهش لكل عبد ويؤسر بكل طبع يتفوه بالأمانى ويتعلل بالأطماع » .

وقال ثمامة بن أشرس : « العشق — أيها الوزير — هو إذا تفاوحت جواهر النفوس بوصول المشاكلة والمناسبة والمساكنة انبعث لمح نور ساطع تستضىء به نواظر العقل وتهتز لإشراقه طبائع الحياة فتصير من ذلك اللمح نورا خالصاً لاصقا بالنفس متصلا بجوهرها يسمى عشقاً » .

وقال السكال الإمامى : « أيها الوزير : العشق وليد المسامحة وعقيب المناسبة وهو دليل على روح المحبة وشاهد على رحم التجانس فهو يسور فى البنية سوران الشراب وصاحبه نير القريحة ، مشرق الطبيعة ، فائق الشمائل ، وفى حركات حسه شواهد للأبصار ، فإذا أراد إعزاز أحد ابتدأه بذلة » .

وقال الصباح بن الوليد من المرجئة: «العشق — أيها الوزير — يعدى خبره دون أثره ولا يشنؤه قلب امرىء موسوم بالبراءة ولطف الصورة ولا يعلو إلا عن نسب التشاكل وإلى غاية الرقة يضاف صاحبه » .

وقال إبراهيم بن ملك : « العشق — أيها الوزير — سوانح تسنح للمرء تعجزه تارة وتوسئه[١] أخرى وهى التى تضرم أحشاءه بوجد قلبه » .

وقال الموبذ: «العشق — أيها الوزير — نار تتأجج فى تامور القلب يتوهج ضرامها بين الجوانح واللب فتوجد بوجود الأشخاص والتحام الأجرام لأن منشأها عن حركات حيوانية وعلل هيولانية وهو ريحان التصابى وبستان التحابى ومستراح الروح ومنزهته الاسطقسات تولده والنجوم تنتجه والأرايح تلحجه وعلل الأسرار العلوية تصوره ثم العشق من سنخ الجواهر وكرم العناصر وتداعى الضمائر واتفاق الأهواء وتمازج الأرواح وتراوح الأشباح وتخالص القلوب وتعارف الأفئدة ، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وذكاء الفطنة وشحوذ الحاسة وصفاء المزاج واستواء التركيب والتأليف ، لأن علله علوية تنبعث بحركات فلكية وتتسق فروعه بحواس جسدانية[٢] » اهـ .

هذا المجلس وما قيل فيه يذكرنا بالمجلس الذى انتظم عقده فى بيت أجاثون بعد الوليمة التى أقامها لأصحابه وكان فيهم سقراط وكيف اقترح عليهم اريكسيماخوس أن يتكلموا فى الحب ويتناقشوا فيه فيدلى كل من الحاضرين برأيه فى الحب وكيف يحدث ولماذا ينشأ ؟ ذلك المجلس الذى روى خبره وما دار فيه من الحوار أفلاطون فى كتابه المعروف باسم المائدة أو الوليمة الإفلاطونية " Symposium "[٣]

أما الأفكار الأساسية والمعانى العامة التى حام حولها المتحدثون فى مجلس يحيى بن خالد بن برمك فتكاد تنحصر فى الكلام على طبيعة الحب ومنشئه وما يفعله بالمحب . وتفصيل ذلك أن جل المتحدثين رجع بالحب إلى المشاكلة والموافقة بين النفوس (على بن الهيثم) والمطابقة والمجانسة فى التركيب (على ابن منصور) وتعارف الطبائع واتصال الأرواح وتداعى الضمائر وتجاور الضرائب (معتمر بن سليمان) وجعلوه وليد المسامحة وعقيب المناسبة وشاهداً على رحم التجانس (السكال) . وبعضهم أشار إلى أنه ينشأ من أريحية فى الطبع وطلاوة فى الشمائل (محمد بن الهذيل العلاف) ومن اعتدال فى الصورة وتكافؤ فى الطريقة (هشام بن الحكم) .

---

(١) لم أجد لها فى المعجم معنى ولا ذكرا ولعلها توئسه أو تؤيسه .

(٢) مروج الذهب للمسعودى — ط : باريس ج ٦ ص : ٣٦٨ — ٣٧٦ .

(٣) مر تفصيل الكلام عليه فى الفصل الأول من الكتاب الأول .

وحديثهم عن المشاكلة والموافقة والتآلف بين النفوس يذهب بالفكر مذهبين ويذكره لهذه الفكرة بمصدرين أحدهما الحديث المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف» والمصدر الآخر هو ما جاء فى المائدة الأفلاطونية عن النفوس فى أصل خلقتها وكيف قسمت كل واحدة منها جزئين[1] لايزال يحن أحدهما إلى الآخر حتى يصل بينهما الحب .

والقوم فقهاء متكلمون ونظار متفلسفون لا يبعد أن يطلعوا على المصدرين ويتأثروا بهما فى آن واحد[2] .

فأما حديثهم عن اعتدال الصورة وأريحية الطبع وطلاوة الشمائل فمجمل لما فصله من بعدهم الشيخ الرئيس ابن سينا فى الفصل الذى جعل عنوانه : « عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان[3] » .

ويفهم من حديث القوم أنهم ينظرون إلى العشق كقوة تفعل فعلها فى النفوس فتصل بينها وفى الأرواح فتجمع شملها إلا الموبذ قاضى المجوس فهو يشعرنا بأنه يعتبر العشق اتصال الأشخاص والتحام الأجرام ويعلل ذلك بأن منشأه عن حركات حيوانية وعلل هيولانية على أنه لا يلبث أن ينقض ما أبرم فيزعم أن علله علوية تنبعث خواطره بحركات فلكية .

وكلامهم فى طبيعة الحب وما يفعله بالمحب مجمله أن الحب ملك الخصال تنقاد له العقول وتسكن له الآراء وأن له تغولا فى القلب كتغول صبب المزن فى خلل الرمل وأنه يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة وأنه حلو المجتنى ما اقتصد وأن صاحبه نير القريحة مشرق الطبيعة فائق الشمائل ، إلى غير ذلك من المظاهر التى تبدو على العشاق .

## ٢

وفى رسائل الجاحظ رسالة صغيرة عنوانها « رسالة فى العشق والنساء » يبدؤها بأن يقول : إنه لم يطنب فى الكلام على العشق المعروف بالصبابة ومافيه من

---

(١) حديث ارستوفانس فى كتاب المائدة : — Symposium, p 135—147

(٢) اطلاعهم على كتاب المائدة مشكوك فيه لأنها ترجمت — إن كانت ترجمت — فى القرن الثالث وهذا المجلس يسبق هذا التأريخ .

(٣) رسالة العشق لابن سينا فى كتاب جامع البدائع ص : ٧٠ وما بعدها .

إدخال الضيم على مروءة العاشق واستشعاره الذلة لمن أطاف بعشيقته وذلك اتقاء الطعن على الكتاب وسخف الرأى الذى دعا إلى تأليفه .

ثم يضع للعشق تحديدا يقول فيه : « العشق اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه حب كما أن السرف اسم لما زاد عن الجود . وقد يكون العشق لغير المرأة يكنون به عن شدة التعلق . قال عروة بن الزبير : إنى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء » .

ثم يذكر أن الحب من أكبر أسباب الخير والبغض من أكبر أسباب الشر ، ويقول : « وتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطليبه . . . . ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فان موقع الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج[1] » .

وباب آخر من أبواب الرسالة يذكر فى فصل منه أنه لم يجد أحداً عشق والديه ولا ولده ولا من عشق مركبه ومنزله وإنما يكون العشق للنساء الحرام . قال الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » .

ثم يوازن بين الطرب بالغناء وبين لقاء الحبيب ويتساءل لم لا يطرب المحب للقاء حبيبه كما يطرب لسماع الغناء ( فيشق جيبه وينقض حبوته ويفدى غيره . الخ )؟ ويجيب عن ذلك بأن المحب يشغله الرشف والشم والعناق عن ذلك ثم إن الطرب للغناء مجتاز لا يدوم ولذة المتعاشقين دائمة .

ثم يستطرد كعهدنا به فيوازن بين غناء النساء وغناء الرجال ويفاضل بينهما فيفضل غناء النساء ويعقب على ذلك بأن الغناء بالشعر الغزل من حق النساء وليس للرجال أن يشركوهن فيه .

وفصل آخر يقول فيه إن المرأة أرفع حالا من الرجل فى أمور منها أنها هى التى تخطب وتعشق .

وهى فصول قصيرة يستطرد فيها إلى أشتات من المعانى لا يلم شملها جامع ، يقول فى فصل منه فى ذكر العشق : « رجلان لا يعشقان عشق الأعراب أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل

---

(١) رسائل الجاحظ الرسالة السابعة فى العشق والنساء — ط مطبعة التقدم ص : ١٦٢ .

شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق[١] » .

وفصل آخر يتكلم فيه عن السلو العارض يطرأ على العاشق لغضبة أو خلاف فيفارق معشوقه ويظن أن قد سلاه ، ثم إذا تطاول العهد عاوده الحنين وملكه الشوق فيندم ولا ينفعه الندم .

ويستطرد بعد ذلك إلى أمور من الحياة الاجتماعية فى عصره ليس فيها جليل فائدة وليس لها كبير قيمة[٢] .

## ٣

ويذكر أبو بكر بن داود أنه سبق إلى التأليف فى الحب ولا يسمى أحداً من هؤلاء الذين سبقوه وإنما يشير إليهم إشارة مبهمة يقصد منها إلى لومهم والعيب عليهم . وهو حين يذكرهم يصرح بأنهم كثير : « وقد رأيت كثيراً ممن ينسب نفسه إلى الأدب ويتحقق بتأليف الكتب قصد فى مثل هذا الكتاب إلى مقصد يبعد عندى من الصواب ابتدأ يذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين[٣] » .

ونحن لا نعرف قبله أحداً ألف فى الحب وكتب فيه كتاباً وليس لدينا ما نكشف به عمن قصد بعبارته هذه .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص : ١٦٦ — ١٦٩ .

(٣) كتاب الزهرة ص : ٤ .

# الباب الأول

## محمد بن داود الظاهرى

---

## الفصل الأول

### حياته وحبه

١

هو أبو بكر محمد بن أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى وأبوه أبو سليمان داود بن على مؤسس المذهب الظاهرى وشيخه الأول[١] . ولد أبو بكر سنة ٢٥٥ هـ ولم يذكر المؤرخون الموضع الذى ولد فيه إلا أنه لا يعدو أن يكون بغداد .

نشأ رقيق الطبع مرهف الحس عصبى المزاج وزاد فى رقة طبعه ودماثة خلقه ما اكتسبه من الآداب التى كانت شائعة بين أهل الأدب فى بغداد[٢] .

يروى الخطيب بسنده عن رويم بن محمد أنه قال : « كنا عند داود بن على إذ دخل عليه ابنه محمد وهو يبكى فضمه إليه وقال ما يبكيك ؟ قال : الصبيان يلقبونى . قال : فعلى أيش حتى أنهاهم ؟ قال : يقولون لى شيئاً . قال : قل لى ما هو حتى أنهاهم عن الذى يقولون . قال : يقولون لى يا عصفور الشوك . قال : فضحك داود فقال له ابنه : أنت أشد على من الصبيان ، مم تضحك ؟ فقال : داود لا إله إلا الله ، ما الألقاب إلا من السماء ، ما أنت يا بنى إلا عصفور شوك[٣] » .

---

(١) كان على بن خلف أبو داود يتولى كتابة عبد الله بن خالد الكوفى قاضى أصبهان أيام المأمون وسكن ابنه داود بن على بغداد وهو فى أصله من قاشان :
Goldziher : Zahiriten pp 225—226

(٢) يذكر ماسينيون فى كتابه « الحلاج » أنه كان صديقا لابن المعتز وينسب ذلك الى جولد زيهر وليس فيه إشارة إليه .

(٣) تاريخ بغداد المجلد (٥) ص:٢٥٦ و Journal Asiatigue Tome X p 86 C.
Barbiar de Meynard : Surnoms et Sobriquet dans la Litterature Arabe.

وهكذا كان أبو بكر خجولا شديد الحساسية من فجر حياته وبقى كذلك حتى لقى ربه . فقد روى عنه فيما بعد أنه اعتاد أن يدخل الجامع من باب الوراقين فهجره أياما . فسئل فى ذلك فقال : «دخلت يوما فرأيت متحابين يتحادثان فتفرقا مذ رأيانى فآليت أن لا أدخل مكانا فرقت فيه بين محبين[١] » .

وقد أركبته شدة إحساسه وإرهاف شعوره مركبا صعبا وأوردته موردا عسير المصدر إذ ابتلى بالحب من أول صباه . فيروى عنه أنه قال : « ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب[٢] » .

ولعل هذا يبدو غريبا لأول وهلة ، إذ كيف يعشق الصبى وكيف يبتلى بالهوى وهو فى الكتاب . إلا أن الشعور المرهف والإحساس الشديد يفسران لنا ذلك فإن هذا الذى ما انفك منه محمد بن داود منذ دخل الكتاب ليس هو الهوى الذى نعرفه ؛ الهوى الذى توقد جذوته الغريزة وهى لا تظهر فى الصبى وهو فى سن الكتاب ولكنه صداقة وألفة يبالغ فيهما الشعور المرهف غير الطبيعى فيبدوان فى مظهر الهوى المشبوب أو أشد منه .

وقد أتم محمد بن داود حفظ القرآن وهو فى سن السابعة وحفظ كثيراً من الشعر القديم وهو فى العاشرة . وكان شيخه فى علوم الأدب أبو العباس أحمد ابن يحى الشيبانى المعروف بثعلب وعنه يروى فى كتاب الزهرة كثيراً . وكان فيما يظهر صديقا لأبى عبادة البحترى وهو يروى عنه كثيراً من الشعر ويقول أحيانا : « أنشدنى أبو عبادة البحترى لنفسه[٣] » .

وفى سنة ٢٧٠ توفى أبوه فجلس مجلسه وخلفه فى إمامة أهل الظاهر وكان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره فاستصغره الناس ودسوا إليه من يسأله عن السكر ما هو ومتى يكون الإنسان سكران فقال لهم : « إذا غربت عنه الهموم وباح بسره المكتوم » فاستحسنوا منه هذا الجواب وعلموا موضعه من العلم[٤] .

وله فى الفقه والأصول كتب منها كتاب الوصول إلى معرفة الأصول ، وكتاب الإنذار ، وكتاب الإعذار ، وكتاب الانتصار على ابن جرير وعبد الله ابن شرشير وعيسى بن ابراهيم الضرير ، وكتاب الإيجاز[٥] .

---

(١) تزيين الأسواق — ج ٢ ص ٣ .
(٢) تاريخ بغداد — م ٥ ص ٢٥٩ .
(٣) يراجع مثلا ص ٢٩٣ من كتاب الزهرة .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد وجولد تسهر .
(٥) مروج الذهب — ج ٨ ص ٢٥٤ ط باريس والفهرست ص ٢١٧ .

وهناك جانب غامض فى حياة صاحبنا لا نكاد نتبين أعلامه . ففى شعره حديث عن مواضع بالبادية ، تحن إليها نفسه ، ويهفو إليها قلبه ، وهو ما ينفك يندب عهداً كان له فيها :

إلى الله أشكو عبرة قد أظلت ... ونفسا إذا ماعزها الشوق ذلت
تحن إلى أرض الحجاز ودونها ... تنائف لو تسرى بها الريح ضلت
سقى الله رمل القاع فالقاع فاللوى ... فقد عطفت نفسى عليه وحنت
وأسقى لوى جبلى زرود ومربضا ... سحائب لا يلقى الظما ما أظلت
هممت فلم أربع على الفكر لحظة ... وقد كان حظ النفس أن لو [1] تأنت
وأصبحت لهفانا على ما أضعته ... كذاك يكون الرأى مالم [2] يثبت

ومن ذلك أيضاً قوله :

سقى الله رمل القاع وبلاد ديمة ... لتحيى به تلك الرسوم الدوارس
أشوقا إلى نجد ودون لقائها ... أهاويل يخشى قطعها وبسابس
على أن عبد الشوق ليست تهوله ... حزون الفيافى والليالى الدوامس
بما حبلت فلتأتنى من بلائها ... فليس لما يقضى به الله [3] حابس

وهو يفصح عن ذلك فى موضع آخر من شعره فيذكر حبيبه بعهدهما فى الوادى المعظم فيوحى إلى القارىء أنه صحبه إلى الحجاز للحج :

أأنسيت عهدينا بواد معظم ... وليس بذى زرع سوى الحسنات
وأنت حرام حرمة الحج وللهوى ... على العين إلا هفوة اللحظات

ويزيد هذا الأمر تأكيدا أنه يروى عن الأعراب وأهل البادية فيقول : « أنشدنى أعرابى بالبادية [4] وأنشدتنى أعرابية بالبادية [5] وأنشدنى أعرابى ببلاد نجد [6] .

كل هذا يوحى إلى الباحث فى سيرته أنه خرج إلى البادية ولكن لأى سبب ؟ أللحج أم أنه خرج إليها ليأخذ اللغة الفصيحة عن أهلها ، ويروى عنهم الشعر ؟ . ذلك ما لا أبيح لنفسى أن أقطع فيه برأى أو أحكم فيه حكما حاسما .

---

(١) المعنى فى هذا البيت مضطرب والتركيب وقد جهدت فى فهمه وتقويمه فما أفلحت .
(٢) كتاب الزهرة ص ٢٠٥ . (٣) كتاب الزهرة ص ٢٠٨ .
(٤) « « « ٢٥٧ وص ٢٦١ .
(٥) « « « ٢٩٢ .
(٦) « « « ٢٠٩ وص ٢٥٧ وص ٢٦٢ .

واشتهر أبو بكر بالشعر والأدب فوق اشتهاره بالفقه حتى لقد شاع شعره بين المغنين . يروى عن القاضى أبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدى أنه قال : « كنت أساير أبا بكر محمد بن داود بن على ببغداد فإذا جارية تغنى بشىء من شعره وهو :

أشكو غليل فؤادى أنت متلفه شكوى عليل إلى إلف يعلله
سقمى تزيد مع الأيام كثرته وأنت فى عظم ما ألقى تقلله
الله حرم قتلى فى الهوى سفها وأنت يا قاتلى ظلما تحلله

فقال محمد كيف السبيل إلى استرجاع هذا ؟ فقلت : هيهات ! سارت به الركبان[1] » .

وحكى بعض من كان يحضر مجلسه أن رجلا دخل عليه ورفع إليه رقعة فأخذها وتأمل فيها طويلا فظن من فى المجلس أنها مسألة فى الفقه يسأله الفتوى فيها فقلبها وكتب على ظهرها وردها إلى صاحبها ونظر من فى المجلس فإذا الرجل على بن العباس بن جريج الرومى وإذا هو قد كتب له فى الرقعة :

يا ابن داود يا فقيه العراق أفتنا فى قواتل الأحداق
هل عليهن فى الجروح قصاص أم مباح لها دم العشاق

وإذا بأبى بكر قد كتب له على ظهر الرقعة :

كيف يفتيكم قتيل صريع بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا عند داود من قتيل[2] الفراق

ومن طريف سيرته ما يروى عن مناظراته مع الفقيه الشافعى أبى العباس بن سريج البغدادى[3] . وكان مجلس القاضى أبى عمر محمد بن يوسف قاضى القضاة آنئذ حلبة المساجلة بينهما . وكان ابن سريج كثيراً مايتقدم أبا بكر فى الحضور إلى المجلس فسبقه أبو بكر ذات مرة فسأله حدث شافعى عن العود الموجب للكفارة فى الظهار ما هو ؟ فقال إنه إعادة القول ثانياً وهو مذهبه ومذهب داود . فطالبه بالدليل فشرع فيه ودخل ابن سريج فاستشرحهم ماجرى فشرحوه فقال ابن سريج

---

(١) تاريخ بغداد م ٥ ص ٢٥٩ .

(٢) « « م ٥ ص ٢٥٦ وابن خلكان .

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادى شيخ المذهب وحامل لوائه كان يفضل على جميع أصحاب الشافعى حتى على المزني . وقد نلظر الامام داود الظاهرى وابنه أبا بكر ولما مات أبو بكر نحى ابن سريج مساوره ومخاده وجلس للتعزية وقال ما آسى إلا على تراب أكل لسان محمد بن داود . توفى سنة ٣٠٦ هـ . ( طبقات الشافعية الكبرى للسبكى — ج ٢ ص ٨٧ ) .

لابن داود أولا يا أبا بكر أعزك الله هذا قول مَنْ من المسلمين تقدمكم فيه؟ فاستشاط أبو بكر من ذلك وقال أتقدر أن من اعتقدت قولهم اجماع فى هذه المسألة اجماع عندى، أحسن أحوالهم أن أعده خلافا وهيهات أن يكون كذلك. فغضب ابن سريج وقال له أنت يا أبا بكر أبصر بقولك: «من كثرت لحظاته دامت حسراته» منك بهذه الطريقة. فقال: لئن قلت كذلك فإنى أقول:

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفى عن مترجم خاطرى فلولا اختلاسى رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فما أن أرى حباً صحيحاً مسلما

فقال ابن سريج وبم تفتخر على؟ ولو شئت لقلت:

وساهر بالغنج من لحظاته قد بت أمنعه لذيذ سناته
ضنا بحسن حديثه وعتابه وأكرر اللحظات فى وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر بن داود لأبى عمر: «أيد الله القاضى قد أقر على نفسه بالمبيت على الحال التى ذكرها وادعى البراءة مما توجبه فعليه إقامة البينة. فقال ابن سريج «من مذهبى أن المقر إذا أقر إقراراً وناطه بصفة كان إقراره موكولا إلى صفته فقال ابن داود للشافعى: فى هذه المسألة قولان. فقال ابن سريج: فهذا القول الذى قلته اختيارى الساعة. فقال لهما القاضى: «لقد جمعتما ظرفا ولطفا وفهما وعلما[1]».

## ٢

وقد تعلق أبو بكر بفتى كان يزامله فى الكتاب هو محمد بن جامع الصيدلانى. وكان يقطن فى الكرخ وقد صرح ابو بكر باسمه وباسم محلته فى قوله:

أهيم بذكر الكرخ منى صبابة ومابى إلا حب من حل بالكرخ
تجرعت كأسا من صدود محمد فقد أوهنت عظمى وجازت على المخ

وكان محمد بن جامع هذا فيما بعد صيدلانيا يبيع العطر فى بغداد[2].

أحبه أبو بكر فى صباه يوم كان فى الكتاب وبادله محمد بن جامع حبه

---

(١) تاريخ بغداد وابن خلكان وغيرهما.
(٢) تزيين الأسواق — ج ٢ ص ٢.

يحب مثله فكان ينفق عليه فيما بعد ( وما عرف فيما مضى من الزمان معشوق ينفق على عاشقه إلا هو[١] ) .

واشتهر أمرهما وشاع وقال أبو بكر فيه الشعر الذى سارت به الركبان وانتشر فى أوساط الغناء وعرفته المقامات الأدبية والفقهية فى بغداد . حتى لقد دخل أبو بكر محمد بن داود على أبى العباس أحمد بن يحيى الشيبانى أستاذه فى علوم الأدب يوما فقال له : » أهنا شىء من صبوتك . فأنشده محمد :

سقى الله أياما لنا وليالياً لهن بأكناف الشباب ملاعب
إذ العيش غض والزمان بغرة وشاهد آفات المحبين[٢] غائب

وبلغ أمرهما من الاشتهار مبلغا لم يريا معه أن يخفياه فكانا يظهرانه ولا يباليان بل لقد بلغ بهما ذلك مبلغ الاستهتار إن جاز أن يطلق هذا على العلاقة التى كانت بينهما . يروى أن محمد بن جامع جاءه يوما وهو يضع على وجهه برقعا فلما رآه أبو بكر أغمى عليه فأخبره ابن جامع أن ليس به بأس ولكنه خرج من الحمام فأعجبه وجهه فأراد أن لا يمتع به أحدا قبله[٣] .

على أن هذا الحب الأكيد وهذا الود الخالص لم يسلما من أن يلابسهما ما يلابس الحب من أحوال تتقلب بين الوصل والهجر والإقبال والصد والوفاء والغدر .

وقد أودع هذا فى شعره فحفظ لنا من أخبار علاقته بحبيبه ما أغفلته كتب التاريخ والتراجم . فهو يحدثنا تارة أن حبيبه غضب عليه وهجره وما عاد ينعطف إليه وكلما حاول أن يلفت إليه وجهه أو يعطف إليه قلبه تمادى الحبيب فى هجرانه فهو يغرى بالهجر كما يغرى محبه بألفته ووداده :

مالى ألفت وجها غير ملتفت نحوى وأعطف قلبا غير منعطف
يغرى بهجرى كما أغرى بألفته هذا لعمرى وداد جد مختلف
حجبت عينى عن الدنيا ونضرتها شوقا وأبرزتها للحزن والأسف
ألا تكن تلفت نفسى عليك فقد أصبحت والله مشتاقا إلى التلف

وهو فى آن آخر يشكو جفاء حبيبه متستراً خلف حكمة فى الحب يلقيها . ولو أفصح لقال : إنه يقاسى من جفاء حبيبه على قرب داره وتدانى مزاره ما لا يقاسيه الغريب النازح :

---

(١، ٢) تاريخ بغداد م ٥ ص ٢٥٦ .

(٣) تاريخ بغداد وتزيين الأسواق . ويبدو أن إظهار ذلك لم يكن غريباً فى ذلك الزمان وإنما كان أمراً مألوفاً أو قريباً من المألوف وفى خبره مع ابن سريج مافيه الكفاية .

لعمرك ماقرب الديار بنافع إذا لم يصل حبل الحبيب حبيب
وليس غريبا من تناءت دياره ولـكن من يجفى فذاك غريب
ومن يغترب والإلف راع لعهده وإن جاوز السدين فهو قريب

ومن طريف معانيه فى الحب أنه يتخذ من صدود حبيبه دليلا على وده ومن عتابه دليلا على حظوته لديه وخطره عنده :

صدودك عنى إذ أسأت يسرنى ولم أر قبلى عاشقا سر بالصد
سررت به أنى تيقنت أنما دعاك إليه رغبة منك فى ودى
ولو كنت فى زاهداً لم تبال بى ولـكنما عتب المحب من الوجد
فيا فرحة لى إذ رأيتك عاتبا علىَّ لذنب كان منى بلا عمـد

ولعل فى هـذا ما يوحى بأنه نقض ما أبرم وخالف ماقدم ، ولعمرى إن ذلك من نفس العاشق غير بعيد فهى فى تردد بين الشك فى ود الحبيب واليقين منـه وهكذا تفسر ما يطرأ على مسلـكه تجاهها تفسيراً تستوحيه من إحدى هاتين الحالين .

وقد يبدو عليه البرم بحبه أحيانا والضيق بمـا يلقاه من جفائه إياه بلا سبب فيتمنى مهربا يلوذ به مما يلقى فيوصد حبه فى وجهه أبواب الهرب فيقيم عليه إقامة المضطر قليل الحيلة

ولو كنت تجزى بالذى تستحقه غضبت ولـكنى من الهجر أغضب
فأغضى على جمر الغضا خشية القلى ولولا الهوى ماضاق عنى مهرب
إليك مفرى منك لا عن وسيلة إليك سوى أنى بحبك متعب

وهو يشتد أحيانا أخرى فلا يترفق ويقول فى حبيبه ما يعيبه على غيره من الشعراء بل لا يبالى أن ينقد نفسه بعد أن يروى شعره :

ما زلت أكذب عنك إرجاف العدى والغدر فى عطفيك ليس بخاف
حتى حسرت لناظرى عن سوأة أغنت أعاديكم عن الإرجاف
فظللت حين خبرتـكم متعرضا عنكم بأوسط سورة الأعراف
فأمضوا عليكم لعنة الله ارتعوا فى صحبة الأوغاد والأجـلاف

وليس أبلغ فى التعليق على هذه الأبيات من قوله بعدها :

« وأما تشنيعه بالغدر على محبوبه فإن ذلك لعمرى قبيح وما على من سلا عن إلفه ( إلا[1] ) أن يضمر ذلك فى نفسه ولا يقص على غيره ما ظهر له من سوء فعله

(١) ليست هذه الـكلمة فى الأصل ولا بد من إضافتها لـكى يستقيم معنى العبارة .

فإن ظهر منه على ترك المواصلة عارض فى ذلك بضرب من المجاملة[١] » .

والتناقض بين شعره وبين تعليقه عليه ظاهر وليس تفسير ذلك بعسير فهو قد قال الشعر فى ثورة العاشق الكريم على نفسه ، الوفى لحبيبه ، المخلص له ، الواقف نفسه على حبه يشهد منه ميلا عنه وغدراً به وصدوفا عن حبه . وهو قد كتب تعليقه عليه فى رزانة المتفلسف المثالى يضع للحب دستوراً لا ينبغى للمحب أن يخرج عليه .

وهكذا أقام أبو بكر على حبه بين وصل وهجر ، ووفاء وغدر ، لم يخطر له السلو على بال ولا تدنس بالهجر أو الغدر حبه . وتسكت كتب التراجم عن نهاية حبه كيف كانت . ولا يزال الباحث فى حيرة من هذا الأمر حتى يقرأ فى كتاب الزهرة هذه الأبيات :

أمثل الذى ألقى يقاومه صبر ... فأصبر أم مثلى ينهنهه الزجر
لئن كنت غرا بالذى قد لقيته ... لفى فقد تميزى يحق لى الأجر
تقضت صباباتى إليه وقصرت ... ظنونى به بل ليس ظن ولا ذكر
وكف رجائى واطمأنت مخافتى ... فلم يبق لى إلا التأسف والفكر
فمالى رجاء غير قرب منيتى ... ولاخوف إلا أن يطول بى العمر
ولولم يحل أسر المنية بينه ... وبينى لم أحفل بما صنع الدهر
فليت المنايا وحدها سمحت به ... ونازعنيه البين والهجر[٢] والغدر

أقول إن الباحث لايزال فى جهل بنهاية حبه حتى يقع على هذه الأبيات فيعرف أية نهاية مفجعة كانت نهاية حبه . لقد مات عنه حبيبه فمات من بعده صبره ، وكان يرجو وصاله ويخاف هجره وبعاده فعاد يرجو أن تحث إليه المنية خطاها ، ويخشى أن يطول به العمر من بعده وعاد يتمنى أن لو سمحت له به المنية فما يبالى منه بالبين أو الهجر أو الغدر .

وقد كان له ما أراد ، فقد عاجلته المنية فى شرخ شبابه وقضى وعمره اثنان وأربعون عاما ولحق بحبيبه وشيكا كما تمنى .

وفى حديث وفاته يروى عن صاحبه أبى عبد الله نفطويه أنه قال : « دخلت على محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى مات فيه فقلت له : « كيف تجدك ؟ »

---

(١) كتاب الزهرة ص ١٠٥ .
(٢) « « « ٣٦٨ .

فقال : « حب من تعلم أورثنى ما ترى » . فقلت ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ . فقال : « الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح والثانى اللذة المحظورة . فأما النظر المباح فأورثنى ما ترى وأما اللذة المحظورة فانه منعنى منها ما حدثنى به أبى عن سويد بن سعيد عن على بن مسهر عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة[١] . » ثم غشى عليه ساعة وأفاق ففتح عينيه فقلت له : «أرى قلبك قد سكن ، وعرق جبينك قد انقطع وهذا أمارة العافية» فأنشأ يقول :

أقول لصاحبى وسليانى وغرهما سكون حمى جبينى
تسلوا بالتعزى عن أخيكم وخوضوا بالدعاء وودعونى
فلم أدع الأنين لضعف سقم ولكنى ضعفت عن[٢] الأنين

ثم مات من ليلته وكانت ليلة التاسع من شهر رمضان سنة ٢٩٧ للهجرة[٣] أو ليلة السابع من شوال .

وفى رواية أخرى أنه توفى سنة ٢٩٦ هـ[٤] .

## ٣

كان حب أبى بكر مثالا من مثل الحب العذرى الذى لا يتعلق بالحاجة الجسمية ولا تعصف به نزوة الشهوة وكان كل شىء أو أكبر شىء فى حياته ، ثم إنه كان حباً موحداً لا إشراك فيه وذلك قوام الحب العذرى كما سبق أن ألممنا به .

بدأ هذا الحب ألفة كالألفة التى تحدثت عنها من قبل . ألفة بين حبيبين فى مقتبل العمر كانا زميلين فى الكتاب جمعهما استلطاف متبادل وألفة بريئة تجمع بين كثير من الصبيان فى تلك السن . ونحن وقد علمنا عن ابن داود فى طفولته ما علمنا من إرهاف شعوره وشدة حساسيته وانطوائه على نفسه ؛ استنتجنا مقدار تعلقه بأليفه وسكونه إليه واستمساكه به فهذا الشعور المرهف ، وتلك الحساسية

---

(١) هكذا رواية الخطيب فى تاريخ بغداد وفى كتاب الزهرة « من عشق فعف فكتمه فمات فهو شهيد » .

(٢) معجم الأدباء لياقوت .

(٣) تاريخ بغداد ومرآة الجنان وصححه ابن خلكان وياقوت وابن العماد فى شذرات الذهب .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٢٥٤ .

القوية وذلك الانطواء على النفس أمور تضاعف وقع الأشياء على الحس والشعور وتبالغ فيها . وما بالك بهذا إذا اجتمع إليه الإسعاد والمساعفة من الأليف وما يوحى بالإخلاص والمودة الصادقة ذلك فيما أظن لا بد أن يفضى إلى مثل ما أفضى بابن داود .

ولعل قائلا يقول : أما الحساسية القوية والشعور المرهف والانطواء على النفس فقد وافقناك عليها فمن أين جئت بإسعاد الأليف ومساعفته ؟ .

وجوابى على ذلك ما يروى من أن محمد بن جامع الصيدلانى كان لفرط حبه لمحمد بن داود ينفق عليه وما عرف معشوق قبله كان ينفق على عاشقه .

والحق أن أستاذنا أحمد بك أمين كان على حق حين قرر أن حب محمد بن داود صداقة بولغ فيها حتى أصبحت حباً[١] . ولا حاجة بنا إلى التدليل على تطور الصداقة إلى الحب فهذا هو الذى يكون فى الحب العذرى إذ أن إكسيره الأول ألفة تقوم فى الأغلب قبل أن تتيقظ فى النفس غريزة الجنس وتتوثق أواصرها من بعد .

وما لنا ألا نستشهد به وقد أقر على نفسه بذلك وصرح به فى شعره :

يا من قبلك طال الحزن والأسف ... وجاوز الشوق بى حد الذى أصف
قلبى إليك مع الهجران منعطف ... وأنت عنى رخى البال منصرف
فإن تكن عن إخائى اليوم منصرفا ... فالله يعلم مالى عنك[٢] منصرف

وهو يعاتبه على جفائه ويذكره بقديم إخائه ويشكو إليه تطاول الهجر فيقول :

يا أخى كم يكون هذا الجفاء ... كم تشفى بهجرك الأعداء
صار ذا الهجر لى غذاء ولكن ... ربما أتلف السقيم الغذاء
سيدى أنت أين ذاك الصفاء ... أين ذاك الهوى وذاك الوفاء
أنت ذاك الأخ القديم ولكن ... ليس هذا الإخاء ذاك[٣] الإخاء

ويستعطفه فى موضع آخر ويستجديه الوصال فيقول :

أخوك الذى أمسى بذكرك مغرماً ... يتوب إليك اليوم مما تقدما
فإن تصله رغبة فى وصاله ... ولم تك مشتاقاً فصله[٤] تكرما

---

(١) مقالاته فى مجلة الثقافة بعنوان « إمامان فقهيان عاشقان » مجلد سنة ١٩٤٦ .
(٢) كتاب الزهرة ص ٥٨ (٣) كتاب الزهرة ص ١٢٥ (٤) كتاب الزهرة ص ١٤٧ .

ثم ينبئه أن صبره الذى يبدو عليه عند البعاد إن هو إلا مظهر لا يدل على المخبر بحال ، فهو يتظاهر بالسلو والتصبر ويبطن فى نفسه أجمل الوفاء وأتم الإخلاص :

لقد باعدت عنك أخاً[1] شفيقاً عليك فلا يغرك حسن صبرى
فلو جمع الأنام لكنت فرداً أحبهم إلى بكل سعـــر
فلا تحسب رعاك الله أنى غدرت ولا هممت لكم بغدر
فوالله العظيم لو أن قلبى أحب سواك لم أسكنه صدرى
وأعظم ما ألاقى منك أنى أدوم على الوفاء ولست تدرى

ثم لم يلبث هذا الإخاء أن تتوثق عراه ، وتقوى أواصره ، فيصبح كل شىء فى حياة أبى بكر فلا يبالى باشتهاره وبحديث الناس عنه .

هى حال نفسية شاذة غير سوية تلك التى قصرته على محمد بن جامع فما تعداه وهى التى صرفت مجرى الغريزة الجنسية عنده — على ما أظن — فى هذه الوجهة غير الطبيعية فكانت عاملا من عوامل تقوية الألفة وإحكام عراها . حتى لقد ملك عليه هذا الحب نفسه فسخرها بكل ما فيها من القوى فى خدمته .

---

(١) فى الأصل « شقيقا » ولعل ما أثبتناه أصح .

# الفصل الثانى

## كتاب الزهـــرة

ما كان أبو بكر محمد بن داود محبا يكتفى بأن ينفث حركة حبه فى الشعر أو يحبسها بين جنبيه فتوهن منه العظم ، ولـكنه كان ذلك وأكثر . لقد خلف لنا كتابا فريدا فى بابه لم تعرف العربية له من قبل ضريبا فى موضوعـه ولا فى تبويبه ولا فى أفـكاره وخواطره . ذلك هو كتاب الزهرة .

### ١

وفى ضبط اسمه بالشكل خلاف بين من تصدوا للحديث عنه من المستشرقين[١] فإن الأستاذ باربييه دى مينار يضبطه بالضم فى ترجمته لمروج الذهب فيقول : (الـكتاب المعروف باسم الزهرة — Zohrah[٢]).

وكذلك يفعل الأستاذ كارل فون بروكلمان فيقول : «أبو بكر محمد (بن داود) المتوفى سنة ٢٩٠ كتب كتاب الزهرة وهو مختارات شعرية فى مائة باب[٣] » .

والأستاذ لوى ماسينيون يتحدث عن محمد بن داود فيقول : « وقد ترك لنا كتابا جميلا . ذلك هو كتاب الزهرة[٤] » ويعود فيؤكد ذلك ويقول : « كتاب النجم فينوس » أو كتاب الزهرة[٥] فهو إذن أول من يقول باحتمال ضبطه بالفتح هكذا كان صنيعه فى كتاب الحلاج ولـكنه لابد أن يختار الضم فى كتاب آخر هو « مجموعة نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف الإسلامى[٦] » .

---

(١) لا أعرف أحداً كتب عنه من علماء الأدب بالعربية .

(٢) L'ouvrage Connu : sous le titre de Zohrah Kitab Azzohrah Tome VIII, p 255.

(٣) Brocklman : Geschichte der Arabischen Litteratur Band I p 520.

(٤) L. Massignon : La Passion d'Al Hallaj p 169—170. " Il nous reste en effet un livre charmant ... c'est le Kitab Al Zohrah ".

(٥) Livre de la planete Venus ou Kitab Al Zahra.

(٦) L. Massignon : Recueil des Textes Inedita Relatifs de L'Histoir de La Mystique Musulmane, p 232.

أما الأستاذ نيكل — R. A. Nykl — ناشر الكتاب فيستعرض هذه الأقوال ثم يختار الفتح ويزم به ويضبط به عنوان النسخة المطبوعة من الكتاب[١] . ويتابعه فى اختيار الفتح كاتب مقالة « محمد بن داود فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية » .

وقد جهدت لكى أعرف لاختياره الفتح سبباً أطمئن إليه فلم أهتد إلى سبب وجيه أستطيع أن أوافقه عليه . إلا أنى وجدته يتبع استعراضه للأقوال التى مر ذكرها بنص ورد فى كتاب تاريخ الأسر الإسلامية فى اسبانيا[٢] يقول إنه أول نص فى الكتب الأوروبية يرد فيه ذكر هذا الكتاب ( كتاب الزهرة ) . وهذا النص ترجمة لفقرة من رسالة ابن حزم فى فضائل أهل الأندلس وهو :

" Kitabu l-Hadayik' the book of enclosed gardens' by Abu Amru Ahmad Ibn Faraj who wrote it in imitation of the Kitabu-z- Zohor the book of flowers by Abu Muhammad Ibn Daud".

ولعل هذه العبارة قد استهوت الأستاذ نيكل فأغرته بأن يختار الفتح ليقرب من اللفظ الذى ورد فيها وهو لفظ الزهور .

على أنه قد طمع منها فى غير مطمع وركض وراء سراب ولو أنه تكلف الرجوع إلى الأصل الذى ترجم عنه باسكال دى جايانجوس هذا لما وجد فى النص الإنجليزى غناء . وقد فعلت أنا ذلك فوجدت ابن حزم يقول فى رسالته « فضائل الأندلس » ما نصه :

وكتاب الحدايق لأبى عمر وأحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبى ( كذا ) محمد بن داود رحمه الله تعالى إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب فى كل باب مائة بيت وأبو عمرو أورد مائتى باب فى كل باب مائة بيت . الخ[٣] » .

وهكذا ينهار الأساس الذى أقام عليه نيكل اختياره[٤] .

---

(١) كتاب الزهرة نشره نيكل سنة ١٩٣٢ وطبعه فى المطبعة اليسوعية ببيروت .

(٢) Pascal de Gayangos : History of the Muhammedan Dynasties in Spain-based on Al Magqair, Vol, I, p 185.

(٣) نفح الطيب — ج ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ ط المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ . وجاء فى معجم الأدباء لياقوت « أحمد بن محمد بن فرج الجيانى الأندلسى أبو عمرو وله الكتاب المعروف بكتاب الحدائق ألفه للحكم المستنصر عارض فيه كتاب الزهرة لابن داود الاصبهانى . إرشاد الأريب — ج ٦ ص ٧٧ .

(٤) وحدثنى الأستاذ ماسينيون يوم الأربعاء ٢٩/١/٤٧ بالقاهرة أنه يميل إلى ضبط اسم =

أما سائر الأساتذة الذين اختاروا الضم فكانوا على كثير من الحق فالكتاب مؤلف فى الحب والزهرة هى النجم الذى يدلون به على الحب :

« وللعشق من النجوم زحل وعطارد والزهرة جميعها ولذلك إذا اشتركوا فى أصل المولد أو اجتمعوا وتناظروا فى أشكال محمودة وقع بينهم العشق والمحبة فى بيت أحدهم أو فى حده وكان رب البيت أو صاحب الحد ناظراً إليه أو كانت الكواكب المذكورة ناظرة فى أشكال محمودة أو مقارنة ؛ فزحل يهيء الفكرة والتمنى والطمع والهم والهيجان والوسوسة والخوف ، وعطارد يهيء قول الشعر ونظم الرسائل والملق والخلاعة وتنميق الكلام والتذلل والتلطف ، والزهرة تهيء العشق والوله والهيمان والرقة وتبعث فى النفس التلذذ بالنظر والمؤانسة بالحديث[١] » .

فإذا كانت الزهرة فى عرف القوم[٢] هى النجمة التى تهيء للعشق والوله كان أولى أن يسمى الكتاب المؤلف فى العشق باسمها . أما الزهرة بالفتح فليس بينها وبين موضوع الكتاب علاقة واضحة .

ولقد قلت قبل قليل : إن الذين اختاروا الضم كانوا على كثير من الحق . ولم أشأ أن أقول إنهم على الحق ذلك لأن لفظ الزهرة لايضبط بتسكين وسطه وإنما يضبط بفتحه . قال الفيروز آبادى :

« الزهرة ويحرك النبات . . . وكتؤدة اسم نجم فى السماء الثالثة[٣] » .

وقال السيد مرتضى الزبيدى : — « والزهرة كتؤدة نجم أبيض مضيء معروف فى السماء الثالثة . قال الشاعر :

قد وكلتنى طلتى بالسمرة وأيقظتنى لطلوع الزهرة[٤]

إذن فإسم الكتاب على ما يبدو أنه الأرجح كتاب الزهرة .

---

= الكتاب بالفتح إشارة إلى زهرة النارنج التى يتهاداها الأحباب . وهى التى يصنع منها إكليل يوضع على رأس العروس البكر يوم زفافها . وابن داود محب فقير ليس لديه ما يهديه إلى حبيبه غير الكتاب فسماه بالزهرة إشارة إلى ذلك . وهو تخريج جميل إلا أنه يفتقر إلى مايؤيده من عوائد القوم فى ذلك العصر . لست أرى حرجا من الاعجاب به دون الأخذ به لأن فيه من التكلف غير قليل .

(١) ديوان الصبابة ص ١٣ — ١٤ .

(٢) يقال إن الزهرة ليست إلهة الحب عند اليونان ولكنها إلهة لشيء آخر وهذا لا يعنينا هنا .

(٣) القاموس المحيط . (٤) تاج العروس .

## ٢

ألف محمد بن داود هذا الكتاب من أجل حبيبه محمد بن جامع الصيدلانى وهو الذى يخاطبه فى أول الكتاب فيقول : « أطال الله فى العز الدائم بقاك ، وصان عن غير الأيام نعماك ، وجعلنى غرضا للنوائب فداك[١] » .

وأهداه إليه حين وجد فيه الميل إلى تعرف أخبار العشاق ، وسأله أن يدله على نديم يحفظ طرفا من أخبارهم ويلم بغير قليل من أشعارهم فيحدثه بها ليجد فيها عزاء عما يقبض صدره وتضيق به نفسه :

« وقلت قدمنى الله قبلك قد أعيا على وجود نديم آنس به فى الخلوات ، وأجد عنده عزاء عن النائبات ، يورد إلى الأخبار ، ويكتم على الأسرار فإن كان فى ناحيتك من يفى بهذا المقدار ويحفظ طرفا من أشعار المتغزلين وأخبار المشببين وكان عالما بطرق الهوى وأحكامه ، عارفا بالمصيب من الشعراء فى كلامه حافظا من أنواع الشعر فى كل باب ما يدخل حافظه فى جملة أهل الآداب تطولت بإيثار ضننت به على نفسك ، وأعفيتنى من صرف حاجتى فيه إلى غيرك[٢] » .

ولئن كان هذا النص لرسالة من حبيبه محمد بن جامع إليه أو مضمون حديث أسر به إليه لقد كان فيه الكفاية لأن يثير فى نفس أبى بكر الإشفاق ممن يريد أن يدله عليه أن يحظى بوده ويعرفه عن قديم حبه ولقد كان يكفى دون أى شىء آخر ليبث فى نفس أبى بكر النشاط حتى يؤلف الكتاب فيغنيه به عمن وصف حاجته إليه من الأصحاب بل يكون دليلا على حبه فوق دليل ، وليس هذا الذى أقول محض استنتاج أو رجم بالغيب وإنما يدل عليه كلامه الآتى دون شك أو ريب:

« وقد جزمت لما رأيت بك من غلبات الاشتياق ومن ميلك إلى تعرف أحوال العشاق ، أن أوجه إليك نديما يشاهد بك أحوال المتقدمين ويحضرك أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطك ويمل بملالك ، إن أدنيته دنا ، وإن أقصيته نأى لا يزهى عليك عند حاجتك إليه ، ولا يرغب عنك عند رغبتك عنه وحيفك عليه لا يحفظ أسرارك فضلا عن أن يفشيها ولا تخطر بباله فيحتاج أن يخفيها لا تمنعك حشمته من سؤاله ولا يغضبك عند خوفك من ملاله . انتزعته لك من خواطرى واخترته من غريب ما اتصل بمسامعى إن اختصصت به من تحب من إخوانك لم تفتقده من ديوانك

---

(١) كتاب الزهرة ص ١ .
(٢) « « « ٢ — ٣ .

وإن استبددت به دون أوليائك فضلت به على نظرائك وهو كتاب سميته كتاب الزهرة[١] » .

لم يكن هذا الوصف البديع للكتاب اعتباطاً وإنما هو فيما أظن مقصود . مقصود به أن يزهده فى اتخاذ الأصحاب والندمان حرصاً على وده أن يتحول إلى غيره أو يحظى به سواه ؛ شأن المحب الضنين بحبيبه المشفق من ميله إلى غيره على أنه تحدث عن الإخوان من قبل فشكا من قلة الوفاء وأفاض فيما يلحق منهم من الغدر والجفاء حديث من يريد أن يوحى إليه بالزهد فيهم والإعراض عن صحبتهم والحذر منهم . وما بالك بقوم أفضلهم المنافقون وأخفهم شرا المداهنون « واعلم أدام الله تأييدك أن المرتضين من الإخوان معدومون فى هذا الزمان وإنما بقى قوم ينتصفون ولا ينصفون إن بسطتهم لم يهابوك وإن أحشمتهم اغتابوك ، ما داموا لك راجين أو خائفين فهم لك منقطعون فإن زايلوا هاتين الحالتين لم يرعوا لك إخاء ولم يعتقدوا لك وفاء فإذا ظفرت بمنافق فتمسك به فإنه على كل حال خير من غيره لأنه يظهر لك ما تسر به وإن كان يضمر خلافه بقلبه [٢] » .

## ٣

فأما تاريخ تأليفه فيكاد مؤرخوه يجمعون على أنه ألفه وهو فى عنفوان صباه وأول شبابه ، وهذا كما نرى كلام ليس فيه كبير غناء . فقد كان يرحمه الله قصير العمر لا يكاد يعرف شبابه من كهولته . وتوفى وله نيف وأربعون عاما وليست هذه فى الغالب إلا سن شباب .

ومن أغرب ما يروى عن تاريخ تأليفه أنه بدأ به وهو فى الكتّاب فيروى الخطيب بسنده عن القحطبى أنه قال : « سمعت محمد بن داود يقول : بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا فى الكتّاب [٣] »

ويتابعه ماسينيون فيقول : « ألفه وهو فى المدرسة [٤] » .

ويكتفى المسعودى بأن يقول : إنه ألفه فى عنفوان صباه وقبل كماله وانتهائه[٥] .

---

(١) الزهرة ص ٣ — ٤ .

(٢) « « ٣ .

(٣) تاريخ بغداد م ٥ ص ٢٥٩

(٤) L. Massignon : La Passions d'Al Hallaj, p 170.

(٥) مروج الذهب — ج ٨ ص ٢٥٤ .

وهكذا يفعل ابن خلكان فيقول : « وصنف فى عنفوان شبابه كتابه الذى سماه الزهرة وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائق ».

وفى كلام نيكل ناشر الكتاب ما يدل على اعتقادة بأنه كتبه وهو فى حوالى العشرين من عمره [١] . ولم أجد فيمن تعرض لترجمته من المؤرخين قديمهم ومحدثهم من قال بذلك أو نوه به إلا جب إذ يقول : « . . . ثم لم يكد يمضى بعد ذلك قرن من الزمان إلا وقد ظهر كتاب فريد فى قوة سحره ، يتضمن قانوناً لهذه الطريقة الجديدة ، وقد دبج هذا الكتاب يراع صبى فى الحلقة الثانية من عمره وهو ابن وخلف لمؤسس أكبر مدرسة دينية متشددة فى الإسلام وهى مدرسة المذهب الظاهرى [٢] » .

أما دائرة المعارف الإسلامية فتقول بذلك دون تحفظ : « وفى سن العشرين كتب كتاب الزهرة الذى ضمن له مكانا مرموقاً فى الأدب العربى [٣] » .

وأرانى غير مطمئن إلى شىء من ذلك فما أظن أحداً يصدق أن كتاباً مثل كتاب الزهرة يؤلفه صبى فى الكتّاب لا يزال يشتغل بحفظ القرآن ورواية أشعار العرب . وذلك أمر واضح لا حاجة للتدليل عليه .

فأما رواية الخطيب فإنها تعنى لدى إذا صحت أنه بدأ فى الكتّاب يختار من أشعار العشاق ما كان ينوى أن يجمعه فى كتاب وأنا أحس أن فى هذا التأويل كثيراً من التعسف .

وأما القول بأنه ألفه فى عنفوان صباه وقبل كماله وانتهائه وأنه صنفه فى عنفوان شبابه فليس فيه كما قدمت ما يمكن أن يبرم أو ينقض .

ولعل هؤلاء أرادوا أن يعتذروا عن محمد بن داود إمام أهل الظاهر ويدفعوا عنه طعن الطاعنين وغمز الغامزين فقالوا بذلك . ذلك لأنه لم يكن من المستساغ لإمام من أئمة المسلمين أن يشغل نفسه بالحب وبالتأليف فيه وبخاصة فى العراق حيث يتزمت الفقهاء أى تزمت .

على أن هنالك أمرا أكاد أقطع به ولا أشك فيه ، ذلك أن كتاب الزهرة الموجود بين أيدينا الآن لم يؤلف فى الوقت الذى قال هؤلاء أنه ألف فيه . وعندى على ذلك أدلة عديدة أكتفى منها بواحد هو أنصعها وأوضحها وأقطعها

---

(١) كتاب الزهرة . Foreword : p 7 .

(٢) تراث الإسلام ترجمة لجنة النشر للجامعيين — جـ ١ ص ١٦٦ .

(٣) مادة « محمد بن داود » فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

للشك . ذلك أن فى شعر أبى بكر الذى يرويه على لسان بعض أهل العصر ما يشعر بأنه رثاء لحبيبه . وهذا أمر لم ينتبه إليه مؤرخوه ومترجموه ولم يشر إليه أحد منهم[١] وقد دعانى ذلك إلى أن أرجح أن موت حبيبه قد عجل إليه أجله وقرب إليه منيته . أفيكون قد نظر فى الكتاب قبل وفاته وزاد فيه وهذبه ونقحه . ذلك جائز لا يدفع فيه دليل شاخص أو برهان ظاهر .

وهناك أمر آخر يتفرع مما نحن بصدده ذلك قول أبى بكر فيما يرويه عنه القحطبى : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا فى الكتاب ونظر أبى فى أكثره » ونحن إذا علمنا أن أباه توفى فى سنة ٢٧٠ هـ وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة أدركنا أن ما قيل فى صدر هذه العبارة يقال أيضاً فى خاتمتها .

ويزعم نيكل أن محمد بن داود لابد أن قد أرشد فى تأليفه ووجه إليه من قبل أبيه[٢] مستدلا على ذلك بجزء من عبارة لحاجى خليفة يأخذ منها ما يريد ويدع مالا يريد : « وأتمه ابنه أبو بكر وزاد على أبيه فصولا » .

والعجيب أن عبارة حاجى خليفة هذه لا تتصل من كتاب الزهرة بسبب ولا تمت إليه بصلة إذ هو بصدد الحديث عن علم الشروط والسجلات ، وما ألف فيه من الكتب . ويقول : « وداود بن على الأصبهانى شرح فى كتابه أصول الشافعى وذكر ما عابه عليه يحيى بن أكثم من الشروط وأتمه ابنه أبو بكر وزاد على أبيه أبوابا وفصولا[٣] » .

وهكذا حكم نيكل من غير أن يتثبت ؛ وجزم من غير أن يتبين .

## ٤

أما وقد ألممنا بتاريخ الكتاب وزمن تأليفه وعرضنا لآراء المؤرخين فى ذلك ورجحنا أدناها إلى الصواب فنحن الآن نريد أن نلم بما يحتويه وما يشتمل عليه . والكتاب كما علمنا مائة باب وصل إلينا منها نصفها الأول خمسون بابا فى الحب وأحواله ووصف أسبابه وما يعرض فيه وما يشترط فيه من الآداب، طبعه الأستاذ

---

(١) الأبيات على ص ٣٦٨ من كتاب الزهرة وقد أوردتها فى الفصل السابق .

(٢) عبارة نيكل Foreword p 6 "He must have a predirection" .

(٣) كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون — ج ٤ ص ٤٧ وهو الموضع الذى أشار إليه نيكل .

نيكل[١] — R. A. Nykl — من المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو عن نسخة مخطوطة محفوظة فى دار الكتب المصرية كان يظنها وقت أن قام على طبعها النسخة الوحيدة.

أما الجزء الثانى من الكتاب فكان نيكل يظن حين نشر الكتاب أن المؤلف لم يؤت الصبر الكافى لكتابة النصف الثانى[٢].

ولكنه تسلم بعد صدور الكتاب بأشهر قلائل خطابا من الأب أنستاس مارى الكرملى ينبئه فيه بالأمور الآتية عن النصف الثانى من كتاب ابن داود:

« وقد كنت أملك قبل الحرب مخطوطا جميلا فى أربع مجلدات صغيرة كتب عام ٧٢٩ هـ للمكتبة الملكية لأبى الفدا. وقد نقد منى ذلك كله فى ٧ مارس سنة ١٩١٧ م على أثر سقوط بغداد. وفى الثانى والعشرين من فبراير هذا العام (عام ١٩٣٣) استطعت أن أشترى المجلد الثالث وهو يبدأ بالباب السابع والستين وينتهى بالباب التاسع والثمانين دون أن يتم الباب الأخير. والمخطوطات كلها بكتابة جميلة مشكلة وأول كلمات ذلك الجزء ص ١. لخزانة السلطان الملك الصالح عماد الدين والدنيا سلطان المسلمين أبو الفدا (ص ٢) ابن اسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب أعز الله أنصاره وضاعف أقداره ».

والصفحة الثالثة تبدأ هكذا: « باسم ... رب يسر وأعن الباب التاسع والستون ذكر ما يجعل من الاستبطاء مقدمة بين الهجاء ».

« وطول المخطوط ٢٣ سنتيمترا وعرضه ١٤ سنتيمترا وصفحاته ٣٤٦ فى كل منها اثنا عشر سطرا » اهـ. أنستاس.

ووجد نيكل أن هذا الوصف يشبه وصف نللينو للكتاب وإشارته إلى وجود مخطوط آخر فى المكتبة الملكية بتورينو. ففى ثبت الكتب العربية تحت رقم ٦٨.

Abu Bekr Elisfahani : Elzuhereter fil Edeb ( sic ) Antologie filologica poetica in x

وقد ذهب إلى تورينو وهناك اكتشف أن هذا المخطوط يحتوى كتاب الزهرة بجزئيه. وفيما يأتى أبواب الجزء الثانى:

٥١ — ذكر ماقاله أمية ونظراؤه فى تعظيم الله جل ثناؤه.

٥٢ — ذكر مامدح به أمية النبى صلى الله عليه وسلم وما استشهد وأنشد بين يديه

---

(١) طبعه بمعاونة المرحوم إبراهيم طوقان المدرس بالجامعة الأمريكية ببيروت آنذاك.

(٢) كتاب الزهرة : Foreword p 5 .

٥٣ — ذكر ماقاله شعراء الإسلام فى أهل بيت النبى عليه السلام .
٥٤ — مراثى الملوك والسادات وأهل الفضائل والرياسات .
٥٥ — نوح الأهل والإخوان على من فقدوه من السبعان[1] .
٥٦ — ذكر النوح على من مات من الأبناء والقرابات .
٥٧ — ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه .
٥٨ — ذكر التزهيد فيما يفنى والترغيب فيما يبقى .
٥٩ — ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء .
٦٠ — إنى أرى من له قنوع يعذل من نال ماتمنى .
والرزق يأتى بلا عناء وربما فات من تعنى[2] .
٦١ — ذكر من فضل على نظرائه ومدح بحسن رأسه ( ؟ ) .
٦٢ — ذكر من سود فى حداثته وقدم فى بلاغته .
٦٣ — ذكر التفضيل بالأحساب والمدح بشرف الأنساب .
٦٤ — ذكر من قدم بجسارته ومدح بشجاعته .
٦٥ — ذكر من وصف بصباحته ومدح بسماحته .
٦٦ — ذكر من أسدى المعروف إليه فشكره وأظهر ماعليه .
٦٧ — ذكر مايجعل من الاستبطاء مقدمة بين يدى الهجاء .
٦٨ — ذكر من هجى بفعله وعير ببخله .
٦٩ — ذكرمن هجى بالفرار من اللقاء والجزع عند مواقعة الأعداء .
٧٠ — ذكر من هجى بقبح خلقته وعير بسوء خليقته .
٧١ — ذكر من هجى بأصله دون ما يظهر من فعله .
٧٢ — ذكر من فخر بحسبه وامتدح بنسبه .
٧٣ — ذكر ماللشعراء من الافتخار بالسخاء .
٧٤ — ذكر من أظهر الجزع من الفقر وقنع وافتخر بالصبر .
٧٥ — ذكر من افتخر لنفسه بالإغضاء عن خصمه .
٧٦ — ذكر الافتخار بالشجاعة والانتصار .

---

(١) لم أفهم لها معنى ولم أجد لها تخريجا .
(٢) فى الأصل « مذ تعنى » ولعل الأصح ما أثبتناه .

٧٧ — ذكر ماللشعراء فى باب التحذير والإغراء .
٧٨ — ذكر مافى صفات البحار والفلوات .
٧٩ — ذكر مايختار[١] من القول فى صفات الإبل والخيل .
٨٠ — ذكر الوحش الذى يصاد والجوارح التى تصطاد .
٨١ — ذكر مافى الشعر من صفات الخمر .
٨٢ — ذكر أدب المجالسات وحسن المنادمات .
٨٣ — ذكر تلاطف الأصحاب وتهادى أهل الآداب .
٨٤ — ذكر حمد الزمان ومدح الإخوان .
٨٥ — ذكر ذم الاخوان وشكاية الزمان .
٨٦ — ذكر من ارتجل شعرا ولم يقدم له ذكرا .
٨٧ — ذكر الشعر الذى يستطرف لخروجه عن حد ما يعرف .
٨٨ — ذكر ماجاء من الأشعار محتملا للهجاء والافتخار .
٨٩ — ذكر ماجاء فى الشعر من معنى مستور لايفهمه سامعه إلا بالتفسير .
٩٠ — ذكر المعانى الظاهرة والأمثال السائرة .
٩١ — ذكر ما اشتبهت معانيه واتفقت أعجازه وقوافيه .
٩٢ — ذكر ما اتفقت قوافيه واشتبهت صوره ومعانيه .
٩٣ — ذكر ما استعارته الشعراء من القرآن ومانقلته إلى أشعارها من سائر المعانى .
٩٤ — ذكر الخطأ فى القول والأوزان دون الخطأ فى الإعراب والمعانى .
٩٥ — ذكر من استدل بأشعاره على سوء اختياره .
٩٦ — ذكر تشبيهات مابقى من الموصوفات .
٩٧ — ذكر مالا يصلح يفدا[٢] منه الكتاب ولا يحتمل أن يفرد لكل نوع منه باب .
٩٨ — ذكر ما للنساء من المختار فى جميع صنوف الأشعار .
٩٩ — ذكر ماسمع من الأشعار ولم يظهر قائله للأبصار .
١٠٠ — وهو الخاتمة ذكر ماجاء فى الأراجيز من المختار مفرداً على جملة الأشعار[٣]

---

(١) فى الأصل « بخيار » وهو تصحيف .
(٢) هكذا فى الأصل وصحيحها « يفدى » بالألف المقصورة .
(٣) مجلة الأندلس م ٤ سنة ١٩٣٦ الكراسة الأولى « بيانات جديدة عن كتاب الزهرة
Al Andalus : Vol. IV, 1936: Fasc. I : Nuevos datos sobre El Kitab Al Zahra, A.R. Nykl ; p 147—150.
وقد أعانني في ترجمتها الدكتور حسين مؤنس مشكوراً .

وهكذا يبدو لنا أن الجزء الثانى قليل الجدوى للباحث فى تاريخ الحب العذرى على كبير خطره فى تاريخ الأدب العربى .

والكتاب كما نعلم ألفه ابن داود من أجل محمد بن جامع الصيدلانى فهو هدية محب إلى محبوبه وهو إذن قد أثرت فى إخراجه هذا الإخراج وفى صيغ أفكاره بهذه الصيغة مؤثرات شتى .

منها أنه رسالة من محب إلى حبيبه ضمنها أحر عواطفه وأعمق مشاعره ، ونحن نقرأ هذا فى أكثر ثنايا الكتاب ونلمسه فى أشعاره التى ينسبها إلى بعض أهل العصر[1] وفى تعليقاته على أشعار غيره وفى نقده لبعض أحوال الحب . ومقدمة الكتاب أو فاتحته نفثة من صدر امتلأ بالحب حتى فاض وخفقة من قلب تنهل من الحب حتى ارتوى .

وهو أيضاً هدية استهداها المحبوب من المحب فبالغ هذا فى تأنيقها وأمعن فى تجميلها وتزويقها وجهد فى إخراجها أبدع ما تكون شكلا وأبرع ما تكون صورة لتظفر من الحبيب بالرضا وتقع من نفسه موقع القبول .

وهو بعد ذلك نديم يسامر الحبيب فيروى له من طرف الأخبار كل ظريفة ومن محاسن الأشعار كل بديعة وهو سفير الحب إلى محبوبه يكشف له عن جوانب نفسه ويفتح له أبواب قلبه ليرى مكانه فيها .

وقد ضمن ذلك خمسين بابا فجعل عنوان كل باب مثلا يضرب فى الحب وحكمة سائرة فيه . وبدأ بالحب من أول نشأته وكيف ينشأ وتدرج فى ذكر ما يلابسه وما يواكبه فى نفس المحب أو فى نفس الحبيب ، وتطرق بعد ذلك إلى آدابه ، وما يجب فيه على المحب تجاه حبيبه وعلى الحبيب نحو محبه ، ثم انعطف إلى ما ينوب المحبين من فراق أو صد أو هجر أو غدر وما يتعللون به فى غياب أحبابهم أو صدهم أو هجرهم وما تشتغل به أفكارهم من الأوهام والأمانى ومايترك ذلك فيهم من نحول الأجساد والحرمان من الرقاد وكيف يغلب المحب على صبره فلا يملك كتمان سره . وتكلم على اليأس وكيف يكون ومن الذى يقدر عليه من المحبين واختتم الكتاب بالحديث عن إقامة المحب على العهد عند الفراق أو الصد ثم بالكلام على الوفاء بعد الوفاة وأن قليله أفضل وأجل من كثيره وقت الحياة .

وهاهى ذى بعض أبوابه :

« من كثرت لحظاته دامت حسراته . العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما

(١) أشار إلى ذلك المسعودى فى مروج الذهب ج ٨ ص ٢٥٤ ط باريس .

أمير . من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه . ليس بلبيب من لم يصف مابه لطبيب . إذا صح الظفر وقعت الغير . التذلل للحبيب من شيم الأديب . من طال سروره قصرت شهوره . من كان ظريفا فليكن عفيفا . ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف . سوء الظن من شدة الضن . من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب . من منع من كثير الوصال قنع بقليل النوال . . . الخ » .

قلت قبل قليل إن هذا الكتاب هدية استهداها حبيب من محبه فبالغ المحب فى التأنق بها والابداع فى إخراجها وقد مرت بنا بعض أبواب الكتاب وفيها دليل على ذلك أى دليل . وقد كان لها بين المحبين فيما بعد منزلة وفى نفوسهم مكانة حتى لقد روى أن أهل الهوى كانوا ينقشون على خواتمهم « من كثرت لحظاته دامت حسراته » « من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه » « من قدم هواه دام أساه » « العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير » « إذا كثر الجفاء قل الوفاء » « إذا صح الظفر وقعت الغير » « قل من سلا إلا استفزه الهوى » « من منع من النظر اقتصر على الأثر » « من منع من الوصال قنع بالخيال[1] » .

هذا من حيث أناقة الشكل وجمال المظهر ، فأما الموضوع فقد جهد ابن داود أن يجلو لحبيبه فكرة الحب فى أسمى معانيها وأرفع مراتبها فجعله علاقة سماوية تربط بين اثنين ائتلفت فى العالم العلوى روحاهما وجمعت بينهما الموافقة فى الطبائع والمشاكلة فى الخلائق . وفرض عليهما فيه الوقوف عند الآداب والتزام حدود الفضيلة والعفة وأقام لهما فى السلوك سبيلا لاقبل للإنسان السوى به ، مثالية لاتراعى الواقع ، ولا تهبط إلى الأرض وخلق ملائكى لاطاقة لابن آدم بمثله .

ولعله أراد أن يوحى إلى حبيبه بالتزام هذه الحدود والتخلق بهذه الخلائق ، وهو الذى مر بنا ماتجرعه منه من غصص الهجر ومرائر الصدود .

أو أنه أراد أن ينبىء حبيبه بأنه يحب هذا الصنف من الحب ويحمل له من المودة ماينبغى أن يجازيه بمثله .

ولعل فى هذا تفسيراً لبعض ما نشهد من التناقض بين شعره الذى يرويه على لسان بعض أهل العصر وكلامه المنثور فى شرحه وفى تعليقاته . ذلك لأنه كان يقول الشعر بروح الإنسان الذى تملكه العاطفة ، ويكتب النثر بروح المفكر المثالى الذى يفلسف الفكرة ويهذبها ويخلصها مما يشوب الخلق الإنسانى وما يطرأ

---

(١) كتاب الموشى المطبوع باسم الظرف والظرفاء لأبى الطيب محمد بن إسحق الوشاء ص ١٧٠ .

عليه من وصف الحبيب بالغدر أو التبرم بما يلاقيه منه من الصدود والهجر .

وهذا الأمر هو الذى عنيته بتطور الحب العذرى وانتقاله من عاطفة يتغنى بها الشعراء مشوبة بالنزوات الإنسانية العارضة محفوفة ببعض مالابد أن يقع من بنى آدم من الهفوات إلى فكرة خالصة من هذه الشوائب مبرأة من هذه العيوب نقية من هذه الأدران .

ومن عجب أن يفطن هو إلى إمعانه فى المثالية وإغراقه فيها فينصف من ينقدهم من العشاق ذاكراً أن مايفرضه عليهم وما يطلبه منهم ليس فى طاقة الإنسان احتماله والله جل شأنه لم يطالب عباده بمثل ماطالب هو العشاق به . مثال ذلك أنه ينقد القائل :

وإنى ليلقانى لقاؤك كارها  لقيتك يوما أن أبثك مابيا

فيقول : « فهذا يخبر أن لقاءها هو الذى يمنعه من شكوى مايجده ، إلا أنه يشفق من ضرره على نفسه ولا يبقى بكتمانه على غيره[1] » . وينقده على أن « لقاءها يحدث فى قلبه حالا لم تكن قبل ذلك ظاهرة من نفسه ، إذ لو كان الهوى قد استوفى منه حقه وتناهى به إلى غاية بعده لما كان اللقاء يزيد شيئا ولا ينقصه[2] » .

ثم يعود فيقر بظلمه لهذا وأمثاله وتجنيه عليهم وتكليفهم مالا يطيقون فيقول : « على أنه من طلب لآدمى مثله بما لم يطالب الله عباده فأخلق بأن يكون ظالما » .

وقد مدح الله تبارك وتعالى قوما فقال : ( الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ) « فلم يعبهم تعالى بأن كان ذكره بحضرتهم مظهراً عليهم مالم يكن قبل موجودا فيهم[3] » .

---

(١) كتاب الزهرة ص ٣٧ .

(٢) « « « ٣٨ .

(٣) « « « ٣٨ — ٣٩ .

# الفصل الثالث

## آراؤه فى الحب

فرغنا من الكلام على حياة محمد بن داود وحبه وكتابه فى الحب المعروف بكتاب الزهرة وهو كتاب جمع فيه طائفة من الشعر مختارة تتخللها تعليقات وتصديرات تبين عن آرائه فى الحب وتفصح عن اتجاهه الفكرى والعاطفى فيه.

وقد قسم محمد بن داود كتابه أبوابا راعى فيها أن تتدرج من الحديث عن ماهية الحب وكيف يبدأ وكيف ينشأ ثم يتتبع نشأته مرحلة مرحلة ويستقصى تدرجه مرتبة مرتبة ويأتى على ما يلابسه من أحوال ، وما يلزمه من فضائل وآداب ، حتى ينتهى به إلى نهايته.

وهو حين يبحث فى الحب يستهدى بما شاع فى عصره من ثقافة وما عرف فيه من الفلسفة.

### ١

فى حديثه عن سبب الحب ومنشئه نراه يصدر عن موردين : الكلام المأثور والحكمة اليونانية ، فيروى بسنده عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف[1] » . فالحب إذن ألفة بين النفوس مبدؤها تآلف بين الأرواح فى عالمها العلوى ، ومثل هذا ماينقله عن بعض المتفلسفين أنه زعم : « أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضا فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة[2] » .

---

(١) كتاب الزهرة ص ١٤ .

(٢) كتاب الزهرة ص ١٥ وهذا قريب مما قال به أرستوفانس فى كتاب المائدة الأفلاطونية ويظن ماسينيون أنه هو الكتاب المذكور فى كتب الكندى النفسيات (خبر اجتماع الفلاسفة على رموز عشقية) ص ٢٥٩ الفهرست . (هو يرى أن من المحتمل أن يكون مصدراً من مصادر كتاب الزهرة . راجع كتاب : Recueil de Textes Inedits ... p 178

فالحب إذن علاقة قديمة بين الأرواح فى عالمها الأول حتى إذا انفصل بعضها عن بعض وحل كل منها فى جسد وهبطت إلى العالم الأرضى لم يزل كل منها ينشد أليفه ويحن إلى صنوه، وهذا هو الحب. والناس يتفاوتون فيه تبعاً لتفاوتهم فى الرقة ودماثة الطبائع وصفاء النفوس أو بعبارة أخرى إن فعل الحب يظهر فى بعض الناس أقوى من ظهوره فى الآخرين تبعا لاحتجاب الروح وراء القوى النفسية الأرضية أو افتراق الروح من وراء تلك الحجب.

وابن داود يروى عن بطليموس كلاما فى تفسير اتفاق الأرواح وائتلافها يدور فى جملته حول أشياء فلكية لاشأن لنا بها ولا عناء لنا فيها.

ثم يروى عن جالينوس أن « العشق من فعل النفس وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد ». فالحب إذن حال تحل فى النفس فتنتظم أجزاءها وتخضعها لها. وفى الدماغ ثلاثة مساكن: التخيل وهو فى مقدم الرأس والفكر وهو فى وسطه والذكر وهو فى مؤخره وليس يكمل لأحد اسم عاشق إلا حتى إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره وقلبه وكبده فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ والتخيل والذكر له والفكر فيه فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقا فإذا لقيه خلت هذه المساكن[١] ».

وهو يحكى عن بعض الظرفاء أنه كتب إلى أخ له يقول: « إنى صادفت[٢] منك جوهر نفسى فأنا غير محمود على الانقياد إليك لأن النفس يتبع بعضها بعضا[٣] ».

وصفوة القول أن الحب فى رأيه اتصال بين النفوس أو ألفة بين الأرواح فى عالمها الأول[٤] وهذا الاتصال أو تلك الألفة تستحيل فى العالم الأرضى قوة جبارة تنتظم أجزاء النفس وتهيمن عليها.

والحق أن الباحث لا يكاد يخرج من تتبعه لهذه الأقوال ومن تعليق ابن داود عليها برأى له يرتئيه أو مذهب يفضله ويتمذهب به بل إنه ليقول فى ختام ذلك: « وربما استغنى بالحكايات عن التصريح بالاختبارات[٥] ».

---

(١) كتاب الزهرة ص ١٨ — ١٩.

(٢) فى الأصل « صادقت » بالمثناه ولعل ما أثبتناه أصح.

(٣) كتاب الزهرة ص ١٥.

(٤) لعل هذا الخلط آت من عدم تمييزه بين النفس والروح.

(٥) كتاب الزهرة ص ١٨.

وسبيل الحب إلى القلب ومنفذه إلى النفس النظر . وقديماً قال الحكماء : « رب حرب جنيت من لفظة ، ورب عشق غرس من لحظة[١] » وهذا أمر من البداهة بحيث لا يجوز التدليل عليه ، وابن داود يروى من أقاويل الشعراء فى هذا الباب ما فيه بلاغ .

وقد يقوم السماع أحياناً مقام النظر فيفتح القلب للحب ويكون طليعته إليه[٢] . وهو يستشهد على ذلك بقول القطامى :

وفى الخدور غمامات برقن لنا ... حتى تصيدننا من كل مصطاد
يقتلننا بحديث ليس يعلمه ... من يتقين ولا مكتومه باد
فهن يبدين من قول يصبن به ... مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وجميل من ابن داود أن يلتفت إلى السماع ، وأن لا يغفل أثره فى ابتداء الحب ، فلرب منظر يملأ العين رواؤه وينعش القلب لألاؤه لا يلبث أن يكشف السماع عن قبح مخبره وينزل به عن ملكوته ، فترتد عنه النفس ويحجم عن تمليه وتأمله القلب . بل لعل السماع يكون أشد فى النفس فعلا من النظر وأجلب للحب وأشد تقوية لأواصره ، فالعين قد تمتلىء بالمنظر الجميل حتى تعتاده ، لكن الأذن لا تزال تستطرف الحديث الممتع حتى تفتح له أبواب النفس وتصله بوشائج القلب ولا عجب فالحديث يكشف عن المخبر فى حين لا ترى العين سوى المنظر .

والنظر يبعث فى النفس الاستحسان ويستثير بها الإعجاب والسماع ، إما أن يزيد فى الإعجاب والاستحسان ، وإما أن يحسمه ويذهب به ، ذلك لأن السماع كما قلنا يكشف عن المخبر فيدخل فى الإعجاب بالنظر إعجاب بما وراءه .

حتى إذا تأكد فى النفس الاستحسان واستقر فيها مكانه أصبح مودة والمودة تبعث فى النفس الرغبة فى الموجود فتود أن يكون لها خلا ، والمودة ميل زائد على الاستحسان والإعجاب ، فيه يتمنى الإنسان أن يصحب من يود وأن يلازمه ، ويرجو أن يكون له فى نفس الموجود المكان الذى أحله إياه من نفسه .

وتقوى المودة فتصير محبة ، والمحبة تجاوب النفسين بالمودة وترددها فى كليهما وهى تكون سبباً للطاعة حيث يستحسن المحب ما يستحسنه المحبوب ويعجبه ما يعجبه ويرضيه ما يرضيه .

---

(١) كتاب الزهرة ص ٨ .
(٢) « « « ١٤ .

ثم تتغلغل المحبة فى النفس حتى تتخلل العظم واللحم والدم فتسقط السرائر وتبوح الضمائر وهذه هى الخلة حيث تتصل النفوس بالنفوس وتنكشف عنها الحجب وتنهتك الأستار[١].

وتتمكن الخلة وتقوى فتهوى بالمحب هويا فى الحب فيفقد فيه توازنه ويتسلط عليه فيسيره كيف شاء ويصرفه فيه كيف أراد فيسلك فى الوصول إلى المحبوب كل سبيل لا تضبطه إرادة ولا يكبح جماحه منطق وهذا هو الهوى[٢].

حتى إذا ثبت الهوى فى القلب وقويت فى النفس آصرته أصبح عشقا والعشق يمتاز عن الهوى بشىء يحسبه من يجهل أحوال المحبين منقصة وانحطاطاً عن مرتبة الهوى وما هو فى واقع الأمر بذاك. وذلك أن العاشق يشفق أن يعلم الناس بهواه ويخشى أن يشتهر أمره فيحذر ما يظهر الناس عليه، ويحاول أن يبعد عن نفسه الشبهة بترك الإقبال على المحبوب وقد يخالفه فيما يخاف عاقبته على حبه.

ثم يزداد العشق ويعظم فيصير تتيما. وفى التتيم يستعبده الحب ويغمره حتى لا تبقى فيه بقية لغيره. وهذه هى الحال التى يقف عندها الهوى فلا يتعداها ولا يزيد عليها. ويقول أبو الشيص:

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم[٣]

حتى إذا بلغ منه التتيم كل مبلغ لم يبق له إلا أن يوله فيتعطل تمييزه وتصدر أفعاله عن غير إرادة ويصدر فى سلوكه عن غير ضابط ولا موجه حينئذ تتغير فى نظره الحقائق وتنعكس القيم، ويفقد ميزان المنطق والعقل ويختل عنده التفكير ويصبح فى فوضى من أمره لا يقر له قرار ولا يهدأ له حال.

وقد يشتط الوله بالعاشق حتى يورده موارد التلف والفساد فيرضى من المحبوب بالقليل، ويصبر على ما يلقى من المرائر دون أن يجرؤ على استجداء الوصل والتماس النوال لا زهداً فى الوصل ولا استغناء عن النوال وإنما خشية أن ينيل المحبوب غيره ما أناله إياه، وخوفاً من أن يلين للآخر كما لان له:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن عليك شجى تؤذيك حين تبين
وإن هى أعطتك الليان فإنها لآخر من خلانها ستلين[٤]

---

(١) كتاب الزهرة ص ١٩.
(٢) » » » ٢٠.
(٣) » » » ٢٠.
(٤) » » » ٨٧.

يقول أبو بكر : « وربما ضعف الخارج عن حال العشق التى توجب طاعة المحبوب على المحب إلى حالة الوله التى توجب الاعتراض عليه لفرط الميل منه إليه[١] » « فحينئذ يظن المحب مالا يخشاه ويتمنى مالا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الذى ذكرناه[٢] » .

ولست أحب أن أعدى عن هذا الوصف دون أن أبث إعجابى بهذه الدقة فى تتبع أحوال الحب والعمق فى فهم نفوس المحبين وكأن هـذا الـكلام مذكرات يومية لعاشق يرقب ما يفعله به الحب فيدون فيها ما يخطر على قلبـه من خواطره ويسجل فيها ما يتقلب فيه من مراتبه ومراقيه .

## ٢

ونفس المحب تمر فى هذه المراتب التى ذكرناها بأحوال كثيرة . فالمحب يشعر فى أول الحب بلذة فيـه ويستشعر من نفسه نشاطـاً ليس له به عهد ويرى للحياة قيمة ما كانت لها من قبل فتراه مسروراً بالحب راغباً فيه سعيداً بوجوده ضنيناً عليه مشفقاً من زواله . حياة جـديدة فيها لذة وفيها متعة يشفق أن تختطف من بين يديه .

يروى أبو بكر بن داود أن امرأة كانت تعلق ابن عم لها ففطن لذلك أهلها وسقوهما السلوة[٣] فسلا كل عن صاحبه فـكانت تقول :

سقينا سـلوة فسلا كلانا أراك الله نعمة من سقانا

وهو يعقب على ذلك فيقول : « وصاحبـة هذا البيت قد سـلت عن محبوبها وإنما تأسى على العشق لا على المعشوق وفى مثـل ذلك يقول بعض الهذليين :

إذا ما سألتك وعدا تريح به مهجتى فأنا المستريح
فلا تعطنى الوجد خوف السلو فإنى على حسراتى شحيح
أحب إلى من الصبر عنك فؤاد قريح وقلب جريح[٤]

وليست هـذه الحال قليـلة الوقوع كما يزعم أبو بكر وإنما هى حال لابد منها

---

(١) كتاب الزهرة ص ٨٩ .
(٢) « « « ٨٧ .
(٣) نوع من الشراب لا يزال معروفاً عند أهل العراق وهو خرزة من حجر معين توضع فى الماء ويسقى منه المراد به السلو .
(٤) كتاب الزهرة ص ٢٧ .

فى أول الحب . فالحب يشعر الإنسان بوجوده ويوحى إليه بمكانه فى الحياة وبأنه جزء قيم منها له خطره وله منزلته فلا عجب أن يحرص على هذا الضيف الظريف الذى آنسه بعد وحشة وعرفه بنفسه بعد أن كان ينكرها . وهل الحياة فى حقيقة أمرها إلا تعاطف النفوس وتجاوب خلجاتها واستئناس بعضها ببعض .

وحال السرور بالحب هذه ابتداء لأحوال أخرى تلحقها وتأتى بعدها وهى تتميز بالغموض والإبهام فلا يشعر المحب فيها بوضوح هذه العاطفة ولا يملك التعبير عن إحساسه بها وإنما يحس بميل مبهم محوط بالغموض فيه سرور وفيه ارتياح ، حتى إذا قوى هذا الميل وتمكن شعر المحب بحاجته إلى اطلاع محبوبه على ما يستكن بين الجوانح وما يخفق به القلب وهو يهم فلا يسعفه اللفظ ولا تطاوعه المعانى ، وإنما تفضح المحب زفرته الحرى وإطراقته الطويلة واتباعه من يحب بالنظر واستلذاذه الحديث عنه . « وقيل لبعض أهل هذا العصر[١] متى يكون البليغ عييا ؟ فقال : « إذا سئل عما يتمناه أو شكا ما به إلى من يهواه » وقال :

ما يعلم الله إنى مذ هويتكم أطيق إظهار ما ألقاه باللفظ
كم قد تحفظته حتى إذا نظرت عينى إليك أزالت هيبتى حفظى[٢]

ولعل سبب العى فى أول الحب ما يصيب المحب من الدهشة بمفاجأة الحب إياه وكل جديد تدهش له النفس وتجم بعض وجوم ويستعصى عليها التعبير ثم تظهر آثاره فى أعراض جديدة كأعراض المرض لا يملك المصاب بها أن يعبر عنها ولكنها قد تبلغ من القوة بحيث تعبر هى عن نفسها حتى إذا تمكنت من النفس واستقرت فيها وطال بها الأمد ألفها المحب واعتادها ففارقه الاندهاش ؛ حينئذ يستعيد جأشه ويسترجع أنفاسه فيفضى إلى محبوبه بما يضطرب بين جنبيه وما يختلج به فؤاده « ليشرف على حقيقة ما فى قلبه وليتمكن أيضاً هواه من نفسه[٣] » .

حتى إذا أيقن بود حبيبه وصح عنده حبه سكنت هواجسه واطمأن قلبه . على أن المحبوب إذا أيقن بذلك وتأكد بما هنالك « استغنى عن التعرف وارتفعت حاجته إلى التألف فحينئذ يقع الغضب من غير ذنب والإعراض عن غير وجد لسكون القلب الواثق واستظهار المعشوق على العاشق[٤] .

---

(١) يريد بذلك نفسه وهو كثير الاستتار وراء هذا التعبير فى الكتاب .
(٢) كتاب الزهرة ص ٣٦ — ٣٧ .
(٣) « « « ٤٥ . (٤) الزهرة ص ٤٥ .

وأبو بكر ينظر إلى الأمر من جانب واحد فلا يأبه إلا بما يعقبه إظهار المحب لمحبوبه على ما فى نفسه من الإعراض بلا ذنب والتجنى بلا سبب ولا يقدر سرور المحب بظفره بود المحبوب ويقينه بمحبته ولذلك لعمرى أمر عظيم الشأن جليل الخطر فى نفس المحب وهو أجدر بأن يحتفل به ويلتفت إليه . وقد يكون لأبى بكر فى ذلك بعض العذر ذلك لأنه عاشق ذاق الحب فعرفه وتجرح من مرائره ما أتلفه فلعل أذاه فى هذه الحال قد رجح على متعته وزاد على لذته . ثم لا تنس أنه كتب هذا الكتاب لمحبوبه فلعله إذن أراد أن يوحى إليه بأن يقصد فى الإعراض عنه والتجنى عليه وأنه يوصيه بالرفق به والعطف عليه .

وهو على أية حال يرى الكتمان جبنا قد يودى بالمحب ويورده مورد الهلاك[١] وعنده أن خير الأمور لمن أطاقه أن يظهر بعضا ويخفى بعضا ثم يظهر الازدياد حالا فحالا . ويدرك أن هذا أمر عسير، على المحبين غير يسير، فيستدرك ويقول : « على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها محالا . ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول :

من كان يزعم أنه سيكتم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للرجال بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذ بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والفتى مغلوب
إنى لأبغض عاشقا متحفظا لم تتهمه أعين وقلوب[٢]

وهذا الذى يلقاه المحب بعد أن يبوح لحبيبه بما فى قلبه إن هو إلا امتحان لحبه فمنهم من يظن أن ما يفجعه من التجنى والمباعدة داخل فى باب الخيانة والغدر فينحرف عن محبوبه ويهجره « فيجنى على نفسه مالا يتلافاه العذر ولا يقاومه الصبر[٣] » . أما الذى يصبر على هذا الامتحان ويرضى صابرا بهذا الابتلاء « فحينئذ يتمكن من وداد محبوبه ويظفر من هواه بمطلوبه[٤] » وهذه حال فى الحب سنية ومرتبة فيه علية وأهلها « يحمدون الهوى ويشكرونه ويصفون لذاذاته للذين لا يعرفونه ويزرون على عيش من لم يتطعم مذاقه ولم يتعبد باسترقاقه ألم تسمع الذى يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جامدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام ذو الشنآن فيه وفندا[٥]

---

(١) كتاب الزهرة ص ٥١ . (٢، ٣، ٤) كتاب الزهرة ص ٥٢ .
(٥) « « « ٥٩ .

ولا يلبث المحب إذ يتمكن من ود حبيبه أن يضن به ويعز عليه أن يستمتع به غيره فتساوره الهواجس وتتنازعه الظنون ويشتد إحساسه ويرهف شعوره فيفسر الأشياء بغير ماتدل عليه ويظن بحبيبه ما هو عنه بعيد. وهـذا هو مايعبر عنه أبو بكر بقوله: « سوء الظن من شدة الضن[١] » وهو الذى يقول فيه:

لقد جمعت أهواى بعد شتاتها صفاتك فانقاد الهوى لك أجمع
سوى خصلة ذكرى رهين بذكرها فقلبى منهـا ما حييت مروع
وحاشاك منها غير أن أخا الهوى بذكر الذى يخشى من الغدر مولع

بل لقد يبالغ فى ضنه به وحرصه عليه فيمنع نفسه من التلذذ بالنظر إليه والاستمتاع به ويغار عليه من نفسه.

يا مت قبلك قد والله برح بى شوقى إليك فهل لى فيك من حظ
قلبى يغار على عينى إذا نظرت بقيا عليك فما أروى من اللحظ

وهذه حال أبعد ما تكون عن العاشق السوى بل هى بالمولة أخلق.

وجملة القول فى هذين الحالين أن المحب فى أول عهده بالهوى ينشغل بحظوظ نفسه فيكون قصاراه أن يطيل النظر إلى حبيبه وأن يستمتع بحديثه وينعم بقربه ويرجو أن يكون حبيبه سمحاً بالمواصلة قريب المنال لين الجانب لا يستعصى على من يهواه ولا يعسر الوصول إليه على من يتمناه حتى يسهل عليه سبيل الوصول إليه حتى إذا أيقن بود محبوبه وانصرف إليه وقصر نفسه عليه ضن به وحرص عليه وساورته الخواطر وتملكته الهواجس وظن بحبيبه الظنون[٢].

## ٣

والحب عند أبى بكر ثلاثة أصناف:

١ — الحب السوى الذى يبدأ بداية طبيعية بالاستحسان ويرقى فى مراتبه مرتبة فمرتبة، ويتقلب فى أحواله حالا فحالا حتى يتمكن فى القلب، ويرسخ فى النفس، وهذا الحب عسير على الزوال عزيز على التغير والاستبدال[٣].

وهـذا الذى يقول به أبو بكر أمر طبيعى منطقى — لو كان الحب يساير المنطق — وهو مشاهد فى المظاهر الكونية الأخرى. فأنفع الغيث وأجداه على الأرض وأخلقه بشدة التأثير فيهـا هو ذلك المطر الهادىء المتمهل يبدأ قطرا

(١) كتاب الزهرة ص ٨٢. (٢) الزهرة ص ٨٦. (٣) الزهرة ص ٣٣٠.

لا جعجعة فيه ولا صخب ولا أعاصير ثم ينهمر فإذا نزل إلى الأرض استقر فيها شيئاً فشيئاً حتى ينفذ إلى الأعماق ، أما المطر السريع الهطول القوى النزول الكبير القطرات فهو ينزل ولا يلبث أن يسيل ولم يؤثر فى الأرض غير التخريب والإفساد .

٢ — كذلك يكون الحب الذى ينشأ من أول النظر فهو نزوة لا يمكن أن تجد فى النفس مكاناً مكيناً حتى إذا عصفت بالنفس عاصفة أية عاصفة لفظت هذا الطارىء غير المتمكن واستبدلت به طارئا جديداً . وأبو بكر يعبر عن الواقع الصادق حين يقول : « ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر[١] » ، « وأخلق بمن يسقمه أول داء أن يشفيه أول دواء[٢] » .

٣ — وصنف ثالث من أصناف الحب ينضج قبل أوانه ويستوى قبل إبانه فيتدله صاحبه فيه قبل أن تسلمه مراتب الحب وأحواله إلى مابعدها شيئاً فشيئاً . وهو كسابقه لايلبث أن يزول وأن ينحط « انحطاطاً طويلا[٣] » وهذا أشبه بالثمرة تبدو عليها أمارات النضج وتظهر فيها علائم النماء من غير أن تمر إليه بالطريق الطبيعى فلا يلبث ذائقها أن يتبين انخداعه بالمظهر .

وهذا الكلام يعيد إلى الفكر حديث علماء النفس عن عاطفة الحب وكيف تتكون والعناصر التى تدخل فى تركيبها[٤] . فالعنصر العقلى فى عاطفة الحب والثبات والتركز والاستقرار كل تلك أمور يكاد يتفق فيها أبو بكر مع علماء النفس مع اختلاف فى طريقة البحث وفى وسائله .

ولا ريب أن تركيب عاطفة الحب من عناصرها المختلفة العديدة يحتاج إلى أن يمر المحب بالمراتب التى وصفها أبو بكر أو بقريب منها .

## ٤

وقد مر بنا فى حديث أبى بكر عن الكتمان أنه قال : « على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها محالا . ولقد أحسن العباس ابن الأحنف حيث قال :

---

(١) كتاب الزهرة ص ٣٣٠ .
(٢) « « « ٣٣٧ .
(٣) « « « ٣٣٠ .
(٤) يراجع الفصل الأول من الكتاب الأول .

من كان يزعم أن سيكتم حبه  حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للرجال بقهره  من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللهيب فإنه  لم يبد إلا والفتى[١] مغلوب

وغلبة الحب تبدى من المحب ما لا يريد أن يبديه ، وتفضحه فيما يحرص على أن يخفيه ، فهو وإن حرص على أن لا يبوح بحبه وأن لا يظهر أحداً من الناس على حاله لايلبث أن تدل عليه من حاله دلالة وتكشف عليه أمارة . فمن دلالات الحب مايتبين « فى الزفرات واللون والنظر والإشارات » .

فالمحب الذى امتلأ بالحب قلبه لا ينى ينفث ألما فى صدره من فراق الحبيب أو هجرانه أو إخلاف ميعاد أو تجن بغير سبب أو مباعدة من غير ذنب .

وهو إذا أقبل حبيبه ، خفق قلبه فتغير لونه ، وامتقع وجهه ، وإذا ذكر اسمه رفرفت روحه وانبسطت أساريره وهشت جوارحه ولا يزال يتبع حبيبه بالنظر لايتحول عنه ولا يحول .

وأعجب من كل ذلك أن يؤتى المحب من مأمنه ويفتضح من حيث قدر أن يستتر فهو قد يتحفظ لئلا يبدو للناس أمره فيضطره التحفظ إلى التصنع « والتصنع الشديد يخرج عن العادة فيوقع التهمة بمن استعمله[٢] » . وربما كان الكتمان والاحتشام والتحفظ دليلا على حال المحب وفضاحاً لأمره ، يقول أبو بكر : « ولقد سمعت فتى من أهل الأدب يقول لآخر من أهل الهوى وقد أفرط فى احتشامه : وحاذر أن يطلع على شىء من حاله ، « قد والله بلغ منى ما أراه بك على أنه ما يظهر لى من حالك إلا كتمانك لأمرك[٣] » .

ويقول أبو بكر فى هذا المعنى :

أخفيت حبك حتى قد ضننت به  فصار يظهر ما أخفيه إخفائى[٤]

## ٥

وللحب أحوال تلابسه وتشوب صفوه فتقض مضجع المحب وتنفى عنه لذة الرقاد وتمنع منه راحة الفؤاد .

---

(١) كتاب الزهرة ص ٥٢ .
(٢) « « « ٣٢٢ .
(٣) « « « ٣٢٢ .
(٤) المرجع نفسه .

فمن هذه الملابسات الحجاب ، وهو إما اختياراً يصطنعه المحبوب وإما اضطراراً يوقعه به غيره صوناً له عن المحب المحجوب . والحجاب الاختيارى ضروب فهو إما امتحان من المحبوب للمحب ليرى مقدار ما يحمل له فى قلبه من الحب ويستيقن من ثباته على مودته وبقائه على محبته أو خوف من الرقيب يستتر به المحب عن المحبوب خشية الافتضاح ، وخوفاً من أن يشيع أمرهما فيجهز عليهما الرقيب ويقطع ما بينهما من أسباب المواصلة . ومنه ما يكون « استدعاء للزيادة فى الحال » وبعثا للمحب على الارتقاء فى مراتب الحب والحرمان من أكبر الأسباب التى تزيد فى الحب وتعظم أمره فهو بصهر النفس ويطهر جوهرها ويرسل للخيال العنان فيهيم فى محاسن المحبوب وفى اللذة التى كان يلقاها بلقائه وبالتحدث إليه . والخيال يبالغ فى الواقع ويزيد فيه . والحرمان بعد المنح أشبه بالنار ينضج بها الحب ويكتمل استواؤه .

وقد يكون مبعث الحجاب « الاشفاق من العذال والتصون عن قبيح المقال » وقد يكون سببه الضجر والملال وهذا كما يقول أبو بكر : « هو شر الأحوال[1] » فهو خارج عن دائرة الحب يبعث فى نفس المحب البرم بالحب ويستحث فيه العزوف عنه .

وقد يغضب المحبوب لهفوة يعوفها المحب كأن يبالغ فى الغيرة عليه ويمنع سبيل غيره إليه فيحتجب عنه تأديباً له ، وفى ذلك يقول أبو بكر على لسان بعض أهل العصر :

بعينك ما ألقى إذا كنت حاضراً ... وإن غبت فالدنيا على محابس
ففيم أرى نفسى لقى بفنائكم ... ولا من يدانينى إليكم مؤانس
أتحجبنى أن قلت تحسد من بغى ... هواى ومن أصفى به وأؤانس
أجل إن من يبغى هواك محسد ... عليك ومن يهوى هواه منافس
إذا لم أنافس فى هواك ولم أغر ... عليك ففيمن ليت شعرى أنافس
فلا تحتقر نفسى وأنت حبيبها ... فكل امرىء يصبو إلى من يجانس[2]

والرقيب آفة من آفات الحب وغصة من غصصه وبلية من بلاياه يكدر على الحبيبين صفو المحبة ويقلق ما بينهما من أسباب المودة ، والمحبون يختلفون فى اهتمامهم بالرقيب فمنهم من يغلظ عليه أمره ويعظم عنده بلاؤه وهؤلاء هم الذين لم يبتلوا

---

(١) كتاب الزهرة ص : ١٠٤ .
(٢) « « « : ١٠٨ .

إلا به ولم يلقوا من غصص الحب غيره . وقد صدق أبو بكر حيث يقول : « وإنما يغلظ أمر الرقيب على من لم يمتحن بمفارقة الحبيب[١] » ويقول أحدهم :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاماً تكلمنا بأعيننا سرا
فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجة ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا
ولو قذفت أحشاؤنا ما تضمنت من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرا

ويعلق عليه أبو بكر تعليق الخبير بالنفس المحبة الذى قاسى أهوال الحب وذاق صروفه فيقول : « صاحب هذا الشعر البائس مغتر بالزمان ، جاهل بصروف الأيام يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب ؛ وهو لا يعلم أن هذه الحال تقاصر عنها الآمال وتنقطع دونها الآجال ، ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجر ولم يعترض إلى الخيانة والغدر حسب أن الرقيب هو منتهى كيد الدهر ، وظن أنه قد امتحن بما لا يقوم له الصبر[٢] » ولا عجب فالحجاب كما يرى أبو بكر أيسر من النوى والهجر أهون من الفراق :

لئن كان الرقيب بلاء قوم فما عندى أجل من الرقيب
حجاب الإلف أيسر من نواه وهجر الخل خير للأريب
ولا وأبيك ما عاينت شيئاً أشد من الفراق على القلوب[٣]

والحق أن لكل مما ذكر مرارته وألمه فى النفس وإن كان الرقيب أهون على المحب إذا تحقق من وفاء حبيبه .

وقد يجد الحبيبان فى غيظ الرقيب واقلاق باله وارهاقه لذة أى لذة وبخاصة حين يكون الرقيب منافسا فى ود الحبيب طامعا فى حبه يتمنى أن لو فارقه محبه وانحاز إليه ، أو حين يكون حسودا يتمنى أن تزول عنهما نعمة هذا الحب .

وأبلغ فى إيلام المحبين وتكدير عيشهم الواشى وهو إما أن يسعى بالمتحابين إلى غيرهما أو أن يسعى بالمحب لدى محبوبه وذانك أشد الوشاية على المحبين وأبلغها أثرا فيهما ، وإما أن يسعى بالمحبوب لدى المحب وتلك أضعف المكايد أثرا .

والمحبون فى موقفهم من الوشاية على صنفين تبعا لمكانهم من منازل المحبة ومراتبها فالعاشق أو المتيم قد بلغ من الثقة بحبيبه بحيث لا يسمع فيه قول واش

---

(١) كتاب الزهرة ص : ٩٠ .
(٢) « « « : ٩٢ — ٩٣ .
(٣) « « « : ٩٣ .

ولا يطيع فيه مقالة كائد وأما الواله المدله فيسمع نفسه مالا تسمع زيادة على مايلقيه الوشاة فى سمعه وذلك لغلبة الظن على نفسه[١] .

والحق أن أشد الوشاة على المحب وأبلغ الوشاية ايلاما له أن يوشى به إلى المحبوب فيستجيب هذا للوشاية وينقاد له فيصد عن محبه ويهجره :

لئن رقد الواشى سروراً بما أرى وهان عليه أن يقر وأنصبا
لقد أسهر العينين منى صبابة وغادر قلبى مستهاما معذبا
عدمت الهوى إن كنت عاشرت وافيا سواك وقد طوفت شرقا ومغربا
فإن لم تدع مالا أحب تظرفا ولا راعيا عهدي فدعه تحوبا[٢]

ونحن نلاحظ أن أبا بكر أوجز فى حديثه عن الواشى والرقيب فلم يطنب وأقصر فلم يطل ولعله فعل ذلك لأنه لم يقاس منهما فى حبه كثيراً ولم يلق منهما ما يغيظ أو يوغر الصدر وأى دليل على ذلك أوضح وأنصع من أنه أطلق على باب الرقيب فى الكتاب هذا العنوان « من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب » أو لعله لقى من مرائر الحب ما هون عليه أمر الرقيب « ومن ركب البحر استقل السواقيا » وأظن ذلك هو الأرجح .

وأما الواشى فأمره عند أبى بكر يشبه أمر الرقيب ويقرب منه فقد جعل عنوان الباب « من أحبه أحبابه وشى به أربابه » وفيه ما يشعر بأنه ينظر إلى الواشى والوشاية نظرة تكاد تكون منطقية بعيدة عن الانفعال والتأثر ولعل ذلك عائد إلى أن ثقته بحبيبه وثقة حبيبه به كانت بحيث تتقاصر دونها وشاية الواشين وسعاية الساعين . وقد مر بنا فى الحديث عن حبه ما يؤيد ذلك ويثبته .

ومن ملابسات الحب العذل وهو عند أبى بكر توقيف على مواضع المصلحة وتبين لما فى الحالى التى بقى عليها المعذول من المنقصة[٣] « فهو لذلك لا يجدى على الذي يقع منه الهوى اضطرارا ويقع فيه من غير إرادة ولا اختيار ، أما الذى يهوى مختارا غير مضطر ومريدا غير مدفوع فالتوقيف على مواضع المصلحة وتبيين ما فى الحال التى هو عليها من المنقصة يقع من نفسه موقعا ويجد فيه سميعا مطيعا . وذلك هو الذى يحفل بالعذل ويصغى إلى مقالة العذال « والشىء لا يوجب زواله إلا ضد ما أوجب ثباته فكما أن الهوى الاختيارى يضاده التوقيف على مواضع

---

(١) كتاب الزهرة ص ١١٨ .
(٢) « « « ١٢٢ .
(٣) « « « ٣٢٢ .

الحال فيوجب على صاحبه أن يختار إزالته فكذلك الهوى الاضطرارى لا يزايله الاضطرار بمضاده . . . وهو لا يزول إلا بزوال الجهة التى أوجبته إذ محال أن يكون شىء علة لشىء فيزول المعلول والعلة قائمة[١] » .

وأبو بكر فى هـذا الباب عقلى منطق يشيع فى كلامه الجفاف ويغلب فيه التأثر بالفلسفة وهو بعيد بعداً ما عن أن يتكلم بلسان المحب الذى يستنبط من نفسه ما يكشف عما هو بصدد الحديث فيه .

والحق أن تقسيم الحب إلى اختيارى واضطرارى أمر ليس من الواقع فى شىء بل الواقع أن عاطفة الحب فى شكلها الكامل السوى مزيج من الاضطرار والاختيار وإن كان فى مبدأ نشأته أقرب إلى أن يكون اضطرارا أو بعبارة أدق ليس للاختيار فيه نصيب كبير وأقصد بالاختيار الاختيار العقلى المسبب وهو من العواطف غير قريب .

أما إذا كان أبو بكر يريد بالحب الاضطرارى ذلك الذى ينشأ من أول النظر فيعظم أمره من غير أن يرقى فى المراتب المعروفة فهو كما قال فيه قبل ليس إلا استحسانا مبالغا فيه أو نزوة من نزوات الغريزة لم تبلغ مبلغ العاطفة . وقد مر بنا فى الكلام على الحب أنه عاطفة مركبة من انفعالات تستمد معينها من دوافع غريزية ومن عناصر عقلية تستمد من قوة التفكير والتعليل[٢] .

والعذل بعد ذلك نوعان : عذل يقع ابتداء « فليس على النفس منه مؤونة » وهو يمر بالمحب فلا يحفل به . وعذل ممن يؤمل المحب منه المعونة ويرجوه للإسعاد وهو يعقب المعذول « تعبا كاسرا لمنقلبه ومسقطا لهمته[٣] » ولأبى بكر فى العذل أبيات جميلة يرويها على لسان بعض أهل العصر :

يعاتبنى أناس فى التصابى بألباب وأفئدة صحاح
إذا اختلط الزمان وهم سكارى بكاسات الرقاد إلى الصباح
ولى سكر يجنبنى رقادى فما أدرى الغدو من الرواح
أما لى فى بلاد الله باب يؤدينى إلى سبل النجاح
بلى فى الأرض متسع عريض ولكن قد منعت من البراح
وما يغنى العقاب عيان صيد إذا كان العقاب بلا جناح[٤]

---

(١) كتاب الزهرة ص : ٣٢٣ .
(٢) فى الكلام على الحب أعاطفة هو أم انفعال — الفصل الأول من الكتاب الأول .
(٣) كتاب الزهرة ص : ٣٢٦ . (٤) كتاب الزهرة ص: ٣٢٩ — ٣٣٠ .

ويتوهم بعض المحبين أن العذل يغرى المحب بزيادة المحبة ويبعث فى نفسه الرغبة فى الاستزادة منها وأبو بكر يلتفت إلى ذلك التفاتة المحلل النفسى الدقيق العارف بخلجات القلب الراصد لخطوات النفس فينفى أن يكون العذل باعثا على مثل ذلك وإنما العذل يثير في نفس المحب : « الاشفاق على حال من عوتبت فى محبته » والخوف على منزلته فيها والخشية من أن يزول منها ما كان له فيها من المكانة . وخاطرة الاشفاق هذه تهيج الفكر وتزيد فى التشبث بالحب وفى التعلق بالمحبوب فيظن المحب أن محبته قد زادت بالعذل وهى فى الواقع لم تزد ولم تنقص[١] .

وهذه لفتة نفسية قيمة تدل على خبرة بالحب وتنبىء عن رصد لخواطر النفس وتتبع لخوالج القلب وتأمل عميق فى تلك الخواطر والخوالج .

ومن دواهى الحب وآفاته الفراق وهو ما خلق إلا لتعذيب العشاق « وهو مستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق فى وصفه[٢] » ولا يزال العاشق من الفراق على وجل يخشى أن يهم به ويحذر أن يقع فيه :

على كبدى من خيفة البين لوعة يكاد لها قلبى أسى يتقطع
يخاف وقوع البين والشمل جامع فيبكى بعين دمعها متسرع
فلو كان مسرورا بما هو واقع كما هو محزون بما يتوقع[٣]
لكان سواء برؤه وسقامه ولكن وشك البين أدهى وأوجع

وخوف الفراق إنما يستظهر فى الأكثر على العشاق والمتيمين أولئك الذين وجدوا لذة الإسعاد من الأحبة واستشعروا الأنس بالقرب منهم فهم من زوالهم على حذر وهم من فراقهم على وجل . أما الولهون الذين فقدوا التمييز وخرجوا عن الإرادة والتعقل فهم مشغولون بما توسوس لهم نفوسهم من غدر المحبوب وخيانته من أن يفكروا فى الفراق أو الهجر[٤] .

ومن المحبين من يسعى إلى الأذى بنفسه ويقع فيه باختياره فيجترىء على فراق محبوبه وذلك يكون إما لنفى أقوال الوشاة عنهم وإما لضجر يصيبهم « وأما لنشاط فى النفس وزهد يلحقها لقوة الظفر بما قد حصل لها[٥] » وهذا النشاط يولده الغرور بالظفر والثقة بود المحبوب .

---

(١) كتاب الزهرة ص : ٣٢٥ .
(٢) كتاب الزهرة ص : ١٩٢ .
(٣) فى الأصل « كما هو مسرور بما يتوقع » وبما صححناه يستقيم المعنى .
(٤) كتاب الزهرة ص ١٦١ .
(٥) كتاب الزهرة ص : ١٧٨ .

أصول به تيها عليه فمن رأى من النفس قبلى عاشقا يتصلف
إذا خفت منه الغدر أبدى توافيا يزول به خوفى ويبقى التخوف[١]

وربما فارق المحب حبيبه امتحانا لصبره على فراق الحبيب؛ وهذا كما يقول أهل العصر لعب بالنار تصدق فيه حكمة أبى بكر: « من تجلد على النوى فقد تعرض للبلى[٢] » وربما رحل عنه ليجد لذة اللقاء بعد الفراق وليبعث فى قلب حبيبه الشوق إليه « وكثيرا ما يجرى الأمر فى ذلك على ضد تقديره[٣] ويصدق على ذلك قول أبى بكر: «من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه » وقوله على لسان بعض أهل العصر :

ألا يا لقومى للهوى المتزايد وطول اشتياق الراحل المتباعد
رحلت لكى أحظى إذا أبت قادما فأوردنى الترحال سوء الموارد
كأنى لديغ حار عن كنه دائه طبيب فداواه بسم الأساود
فمال مع الداء القديم دواؤه فيالك من داء طريف وتالد[٤]

ويرى أبو بكر بحق : « أن الحزم لأهل الهوى ألا يبسطوا على أرواحهم يد النوى فان عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش ويبرح القلوب فكيف إذا تحكم فيه سلطان الفوارق وأمدت صاحبه الفكر بخواطر الاشتياق والتهبت فى الضمير لوعات الاشتياق حينئذ تسكب العبرات وتتمكن الحسرات[٥] وهذا كلام خبير ذاق اللوعة وجرب الغصة .

والفراق بعد هذا يقوى الحب ويزيد فى توكيده ذلك أن الحب إذا فارق حبيبه تذكر قربه وتخيل أنسه به والتذاذه بوصاله فضاعف فى قيمته وبالغ فى فقره إليه فزاد ذلك فى تعلقه به وحرصه عليه :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تفرقنا تذكرت ما مضى فأيقنت أنى إنما كنت ألعب
فقد والذى لوشاء لم يخلق النوى عرضت فما أدرى إلى أين أذهب[٦]

وكلما تطاول به الأمد زاد شوقا إليه وكلما طاب له عيش أو صفا له حال تذكر أيام قربه من حبيبه فنغص التذكار عيشه وزاد فى حنينه إليه :

كفى حزنا ألا أعاين بقعة من الأرض إلا زدت شوقا إليكم

---

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) كتاب الزهرة ص ١٧٨ .
(٥) الزهرة ص : ١٨٤ — ١٨٥ .
(٦) « « : ١٩٧ .

وأنى متى ما طاب لى خفض عيشة تذكرت أياما مضت لى لديكم
فنغص تذكارى لها طيب عيشتى فقلت سيغنى ذا فيأسى عليكم[١]

ولا يفتأ المفارق يحن إلى لقاء حبيبه حتى إذا قعد إليه استطال الطريق عند اقترابه وضجر منه وفى ذلك يقول الموصلى :

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

وعلة ذلك « أن تطاول المدة يزيد فى الشوق مع تقارب المشقة وقوة الرجاء لسرعة اللقاء من أقوى الأسباب فى تقوية الشوق عند الاقتراب[٢] » .

وهذه لفتة خبير ذاق فعرف .

أما الهجر فهو عند أبى بكر أربعة أضرب . هجر ملال وهجر دلال وهجر مكافأة على الذنوب وهجر يوجبه البغض المتمكن فى القلوب[٣] .

وليس هجر الدلال بحقيق أن يسمى هجرا فهو كما يقول أبو بكر ألذ من كثير الوصال[٤] على أنه يخشى أن يطول به الأمد فيضيق به المحب وتنقبض منه نفسه فيستثقل من الحبيب ما لو قصد فيه لكان أخف عليه من النسيم العليل . وقلب العاشق كالمرآة يجلوها الوصل ويرين عليها الهجر وإن كان هجر دلال .

وأما مابقى من صنوف الهجر فيزول بزوال مانتج عنه ويبطل باختفاء ماتولد منه فهجر الملال يزول مع الزمن والذى يزيله هو انبعاث الشوق فى نفس المحب أو الحبيب كانبعاث الماء المحتبس بين الصخور والرمال لا يلبث أن يتفجر ينابيع من بعد أن كاد يظن به الغياض .

وأما الهجر المتولد عن ذنب فأبو بكر يرى أن التوبة تفرجه عن القلب بالعتاب وبسط العذر والتوسل والانقياد للأمر .

والصنف الرابع ليس من الهجر فى شىء إذ الهجر طارىء يطرأ على العلاقة بين الحبيبين فلا يفصم عروة ولا يقطع سببا ،وإنما يوهن العرى ويوهى الأسباب والبغض الطبيعى الذى يجعله أبو بكر سبباً لهذا النوع من الهجر لا يستقيم معه الحب فهو ينفيه ويهدمه من أساسه .

والهجر عند أبى بكر أعظم أمراً من الفراق وأشد على النفس وطأة وقد عبر

---

(١) كتاب الزهرة ص ٢٠٢ .
(٢) « « « ٢١٣ .
(٣) « « « ١٣٦ .
(٤) « « « ١٣٦ .

عن ذلك فقال فى عنوان الباب الثامن عشر :« بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار عن الديار » . ذلك لأن بين الهجر والغدر مناسبة . فالهجر إن لم يكن « عقابا على ذنب أو تدللا بإظهار تجن أو عتب أو مراقبة لواش أو مللا من العذل فلا معذر له غير الغدر والخيانة[١] » وهو يلحق بالمحب ضربا من الغيظ لما رماه به حبيبه بلا سبب وكلما نظر إلى محبوبه القريب منه عاوده ذلك الغيظ واشتعلت ناره فى قلبه وليس فى الفراق شىء من ذلك إذ « النفوس تذل للفراق وتنقاد معه لدواعى الإشفاق والاشتياق[٢] » .

وهذا الفراق هو الفراق الاضطرارى الذى تقذف الأيام به المحب أما الفراق الذى يوجبه الهجر أو الغدر فما أظنه المقصود بكلام أبى بكر .

والمحب لا يزال ينقاد للإشفاق فى قربه من الحبيب وفى بعده عنه فهو فى حال القرب يشفق من زوالها ويحذر من تغيرها حتى إذا ابتلى بالفراق زاد فى نفسه الإشفاق وعظم فطار طيرة فيها التفاؤل والتشاؤم :« فتراه حينئذ يتيامن بالسوانح حسب تشاؤمه بالبوارح[٣] » .

وقد رأينا أن الهجر هجر متولد عن ذنب فذلك يزول بالعتاب والاعتذار والتوسل . والعتاب ثلاثة أنواع : عتاب يقع من الارتياب ويقصد فيه إلى إزالة الشك من نفس المعاتب . وعتاب يقع بعد اليقين ويقصد فيه إلى الوقوف على عذر المعاتب وإلا اعتبر ذنبه الذى اقترف داخلا فى باب الغدر . وهذان كثيراً ما يجريان بين المحبين وهما بسبيل مما تقدم ذكره فى الكلام على الهجر . والنوع الثالث من العتاب ما يسميه أبو بكر معاتبة التوقيف ( ولعله يريد بذلك التوقيف على الذنوب ومواضع الخطأ ) وهى كما وصفها تجرى على جهة التعنيف ، وفيها يقف المعاتب من المعاتب موقف المحصى للذنوب المستقصى للزلات لا يترفق ولا يسامح . وهذه الحال كما يقول أبو بكر : « حال لا تكاد تجرى بين المتحابين إلا عند انقطاع الحال بينهما أو عند ضجرة شديدة تلحقهما أو تلحق أحدهما[٣] » .

ولا بد فى الحب ككل العلاقات الاجتماعية من إغضاء عن الصغائر والهفوات

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

---

(١) الزهرة ص : ١٩٢ .
(٢) الزهرة ص : ١٩٣ .
(٣) « « : ٢٤٦
(٤) « « ١٢٤ .

وابو بكر هنا يضع قانوناً على جانب عظيم من الحكمة فى الحب وفى الحياة الاجتماعية عامة . فهو يوصى بالترفق فى العتب وصونه عن أن يقع فيه ما يخل بالعلاقة بين المتحابين ، وتدركه طبيعة المحب وما يمتاز به من الإيثار والإبقاء على حبيبه وتحمل المكاره دونه فيقول : « وأحمد أحوال العتاب صيانة الحال عن أن يجرى فيها شىء من الاختلال بقيا على المذنب لا بقيا على المؤنب[١] » . وهو لا ينصح بترك العتب لأن تركه يدخل عنده فى باب الإهمال بل إن الأمور التى يجرى من أجلها العتب مهما صغر شأنها وقل خطرها لا تلبث أن تجتمع فى النفس — إن لم تصرف — فتحدث فيها انقباضاً قد يسلمها إلى مالا يحمد فى العلاقة بين المتحابين .

وبعد فإن « الموقف على كل ذنب يوجب قطع المواصلة واتصال العتب[٢] » و « من عاتب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه[٣] » .

وقد تبين لنا أن العتاب يكون للوقوف على عذر المعاتب عما بدر منه . فإما اقتنع به المعاتب وعذره وأغضى عما اقترف وإما ظهر له أن ما ارتكب يدخل فى باب الغدر وحينئذ « إذا ظهر الغدر سهل الهجر[٤] » .

وعلة ذلك أن المحب قبل أن يقف على فعل حبيبه الذى دعاه إلى هجره أو فراقه لا يزال يقاوم ذلك فى نفسه ويحملها على العدول عنه إبقاء على الحب وإبقاء على المحبوب حتى إذا ظهر له أن ما أمله فى الحبيب سراب ، وأنه ليس فى بقائه على الحب ووفائه فيه مطمع لم يقاوم الرغبة فى القطيعة بل أرسلها وتركها تتمكن فى نفسه « والنفس الحرة لا تعبأ بمن غدر بها ولا تستصلحه بمعاتبة ولا ترصده بمعاقبة بل تخلى فكرها عن ذكره وتصون خواطرها عن الخوض فى أمره . وفى هذا النحو يقول بعض أهل هذا العصر :

يا قلب قد خان من كلفت به ... فخل عنك البكاء فى أثره
شغلك بالفكر فى تغيره ... أعظم مما لقيت من غيره
فارحل فمن لا يحل مورده ... يفض به صفوه إلى كدره
وارجع إلى الله فى الأمور فلن ... تقدر أن تستجير من قدره[٥]

---

(١) الزهرة ص ١٢٤ . (٢) الزهرة ص : ١٢٥ .
(٣) عنوان الباب التاسع عشر ص : ١٢٩ .
(٤) الباب العشرون ص : ١٤٩ .
(٥) الزهرة ص : ١٤٩ .

ومن الناس من يغلبه : « هواه على الصبر فيصبر لمن يهواه على الغدر[١] » . وهؤلاء هم الموهون الذين تجاوزوا حد العشق إلى تعطل الإرادة وفقد التمييز وضعفت قواهم من أن تصبر على هجر محبوبهم . وهذه ثمرة التردد والحيرة وقلة الصبر على الأذى . فيرجعون صاغرين إليهم ؛ راضين بما فرطوا فى جنبهم « وبين الرضا الاختيارى وبين الرضا الاضطرارى بون بعيد[٢] » .

ثم تغلب أبا بكر طبيعة الفلسف الذى يضع للحب دستورا فيزعم أن « سلو المحب عمن غدر به غير معيب عليه ، ويعلل ذلك بأن الأمر فيه ليس إلى المحب وإنما هو : « نفور النفس عمن خالف شكلها كما توجب المحبة سكون النفس إلى من شاكل طبيعتها[٣] » . لو كان الأمر كما يقول لما وقع الحب ابتداء إذ الحب كما قال من قبل لا يقع إلا بين متشاكلين متوافقين . ما لنا نأخذ عليه ذلك وهو يكتب الكتاب من أجل حبيبه فلعله إذن أراد أن يوحى إليه بذلك إيحاء والإشارة قد تغنى عن العبارة .

## ٦

ولا يزال المحب الذى ابتلى بفراق حبيبه أو هجرانه فى حيرة من أمره وفى غمرة لا تلبث أن تنكشف فيصحو من حيرته وهى تنكشف بأحد أمرين : إما بغلبة الاشتياق إلى حبيبه فيضطره ذلك إلى الرجوع والانابة إليه ولا تشغله عنه لذة من لذات الدنيا ؛ وإما أن يشتغل بغير هذه الحال فيسلو على مر الأيام والليالى[٤] .

وذلك منوط برسوخ المحب فى الحب وتمكنه من نفسه . فمنهم من يستولى عليه فلا يدع فيه مكاناً لسواه بل يعرفه فيه كيف يشاء . فهو لا يأتمر إلا بأمره ولا يصدر إلا عنه فى سره وجهره . هؤلاء الذين تشتغل بغيره قلوبهم .

وقد يسلو بعض هؤلاء من ضجرة تصيبه من « مخالفة محبوبه أو تعذر بعض مطلوبه أو لتأذ بحاجب أو رقيب أو لملال من سعاية واش أو عذول[٥] » ولكنه لا يلبث أن يرجع من قريب ويعيده إلى المحبوب طيف الخيال أو أحلام نائم . وربما ابتلى بالفراق فعاجلته فيه الأشواق وبعثت فى قلبه الإشفاق . وصار هؤلاء

---

(١) الباب السابع والعشرون ص : ١٧٠ .
(٢) الزهرة ص: ١٧٠ — ١٧١ . (٣) الزهرة ص: ١٥٥ .
(٤) « « : ١٩٩ . (٥) « « : ١٦٤ .

أشبه بالصدفة تحيط باللؤلؤة فتحجب بريقها وتخفى لألاءها أو كالرماد يغطى على الجمر المتقد ثم لا يكاد يحرك حتى يبدو الجمر من تحته .

وأما « من كان سلوه تابعاً لظفره بما من أجله كان ابتداء محبته فإن الهجر والفراق لا يعيدان له هوى ولا يتبعان على ضميره أسى [١] » هؤلاء قوم ليسوا فى عداد المحبين والذى يظهر عليهم إنما هو نزوة من نزوات الشهوة وانفعال من انفعالات الغريزة لم تبلغ مبلغ العاطفة فهى لا تثبت ولا تستقر ولا تنصرف إلى شخص معين ، وإنما يغنيها من تطمئن حاجتها فيه أيا كان ، أما الحب فعاطفة فيها الثبات والاستقرار والانصراف كما سبق أن شرحنا ذلك .

والذى يبعث السلو حقاً ويوطن له نفس المحب هو اليأس . ولليأس روعات فأولاها تفاجىء القلب بما لم يعتده وتباغته بما لم يتوقعه وتفجعه « بالرجاء الذى كان يعتاض به من حال الصفاء ويتماسك به من سطوة الفراق [٢] » فهى إما أن تقضى عليه وتتلفه وإما أن تذلله لما بعدها . والروعة الثانية « ألم المعاودة وليس لها ألم فقد العادة فإن هى — الروعة الأولى — لم تتلف وفيها مكروهان لم تتلف الثانية وليس فيها إلا أحدهما وكذلك كل روعة يجلبها الفكر والتذكر هى أهون من التى قبلها لأن المتقدمة قد أنذرت بها ووطأت المواضع لها حتى ينحل ذلك أجمع فى النفس حالا بعد حال [٣] » ولهذا يرى أبو بكر أن « من يئس ممن يهواه فلم يتلف من وقته سلاه [٤] » .

وكلام أبى بكر فى هذا الباب قد يقبله المنطق ولكنه كثيراً ما يأباه الواقع إذ النفوس لا تجرى خطراتها على قانون وتخضع عواطفها لقواعد المنطق . فهى إذا فجئت بروعة اليأس الأولى فلم تتلف أصابها الوهن وضعفت فيها المقاومة وعجزت عن احتمال الروعة الثانية فتأذت بها أكثر من تأذيها بالروعة الأولى وههنا يكون التلف البطىء والموت المتدرج وهو أشق من الموت الوحى وأشد وآلم . وفى مثل ذلك يقول المجنون بعد يأسه من ليلى :

عجبت لعروة العذرى أضحى أحاديثا لقوم بعد قوم
وعروة مات موتا مستريحا وها أنذا أموت كل يوم

---

(١) الزهرة ص : ١٦٣ .
(٢) الزهرة ص : ٣٤٣ .
(٣) « « : ٣٤٤ .
(٤) « « : ٣٤٣ وفى النسخة المطبوعة « من يئس من يهواه فلم يلتفت من وقته سلاه » ولا معنى للعبارة على هذا الوجه . والصحيح ما أثبتناه .

## ٧

أما وقد ألممنا بطرف من آراء أبى بكر بن داود فى الحب مبدئه ومنشئه وأحواله ومنتهاه فنريد أن نلم بما شرط فى الحب من آداب لابد منها لتكون حال المحب تامة أو قريبة من التمام .

فمن آداب الحب العفة وقد عقد لها أبو بكر بابا من أبواب كتابه جعل عنوانه : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » وهو يستهله بحديث يرويه عن النبى عليه الصلاة والسلام « قال أبو بكر بن داود » : حدثنى أبى قال : حدثنا سويد بن سعيد الحدثانى قال : حدثنا على بن مسهر عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعفّ فكتمه فمات فهو شهيد [١] » .

وللعفة عند أبى بكر — فضلا عن أمر الدين بها وتواضع الناس عليها — مكان فى الحب أسمى من ذلك وأجل فهى تبقى على الود وتصون الحب يقول أبو بكر فى ذلك : « ولو لم تكن عفة المتحابين عن الأدناس وتحاميها ما ينكر فى عرف كافة الناس ، محرما فى الشرائع ولا مستقبحا فى الطبائع ، لكان الواجب على كل واحد منهما تركه إبقاء لوده عند صاحبه ، وإبقاء على ود صاحبه عنده [٢] » .

فهو إذن يرى أن امتهان الحب بإشباع الشهوة يهبط به عن رفيع مكانه وسامى منزلته وهو بذلك يسبق الإمام الغزالى الذى وصف الحب الصادق بأنه التعلق بالمحبوب لذاته لا لغاية أخرى ، ويسبق بويس جبسون الذى اصطنع تعبير السرور بالمحبوب لذاته فى الحديث عن عاطفة الحب .

وإفساد الشهوة للحب وإبقاء العفة على الود فى نفس المحبوب وفى نفس المحب معنى جميل يوحى فى النفس أشياء منها أن المحبوب إذ يشعر أن تعلق محبه به علاقة روحية تعلو على المصالح وتسمو على المنافع — فانه يستجيب لها بارتياح واطمئنان حتى إذا أحس أنه يطمع منه فى أشياء تعود عليه بقضاء الحاجة وإشباع الغريزة انقشعت عنه نفسه وازورت عنه خواطره ونأى عنه بجانبه .

والمحب إذ ينجذب إلى حبيبه بهذه العاطفة المركبة يشعر أنه منجذب إليه بكليته بنفسه وبعقله وبروحه حتى إذا غلب بعض هذا على بعض اختلت العاطفة واضطربت أسبابها وفقدت قوتها .

---

(١) الزهرة ص : ٦٦ .

(٢) الزهرة ص : ٦٦ .

وما لنا لا ننظر إلى الحب نظرتنا إلى العلاقات الاجتماعية الأخرى كالأبوة والأمومة والقرابة والصداقة . حيث يحس الطرفان فيها بانجذاب أحدهما إلى الآخر انجذابا لا تقوم على المصلحة أواصره ، ولا تستند إلى المنفعة رابطته . حتى إذا وسوست لأحدهما المصلحة وتدخلت بينهما المنفعة ضعف الانجذاب ووهنت أسبابه وانحلت قواه .

ثم إن فى العفة ضربا من الحرمان يصهر النفس ويقذف بخبيثها بعيداً . والحرمان قوام حياة الإنسان بما هو إنسان به تنتظم شئون أفراده وتضمن حقوقهم وتصان مصالحهم من الاعتداء والحب وهو ظاهرة إنسانية فيها من كمال الإنسانية ومن جمالها الشيء الكثير لا بد أن تمثل فيه هذه الضرورة الإنسانية بأكمل مظاهرها وأتم جواهرها .

وأية علاقة فى الوجود أسمى وألطف من هذه التى يصورها أبو بكر فى الأبيات الآتية :

لا تلزمنى فى رعى الهوى سرفا ... وما أوفيه إلا دون ما يجب
لو كنت شاهدنا والدار جامعة ... والشمل ملتئم والود مقترب
لا بل مساواة ودى وده بهوى ... كأنه نسب بل دونه النسب
مستأنسين بما تخفى ضمائرنا ... على العفاف ورعى الود نصطحب
فان محا الشوق فرط الأنس أوحشنا ... أنس العواذل إن جدوا وإن لعبوا
فما ندافع بالهجران فهو على ... أن لا يزول هوانا مشفق حدب
عانيت منزلة فى الظرف عالمة ... ورتبة قصرت عن شأوها الرتب
فى عفة نتحامى أن يلم بها ... سوء الظنون وأن تغتالها الريب[1]

وقد يمعن فى العفة ويغرق فيها حتى تستحيل مثالية فيها كثير من الغرابة فهو لا يروى لحظة من النظر إلى حبيبه لأن قلبه يغار عليه من لحظه وهو إنما يفعل ذلك ضنا به وإبقاء عليه :

يامت قبلك قد والله برح بى ... شوقى إليك فهل لى فيك من حظ
قلبى يغار على عينى إذا نظرت ... بقيا عليك فما أروى من اللحظ[2]

ومن آداب الحب الصبر على ما يلقاه المحب من هجر الحبيب وصده فقد يقصر الحبيب عن مواصلته ويصد عنه ويتراخى عن إظهاره على مكانه فى نفسه ثقة به

(١) الزهرة ص : ٧١ .
(٢) الزهرة ص : ٧٢ .

واطمئنانا إلى صادق وده وسكونا إلى تمكن الحب من قلبه ، وقد يقع فى وهم المحب أن حبيبه إنما يفعل ذلك خيانة له وغدراً به ؛ فيكافئه على ذلك بالانحراف والهجر فيجنى على نفسه ويلقى بها إلى التهلكة ، يحسب أن انحرافه عن حبيبه أيسر عليه من الصبر على دلاله ثم لا يلبث أن أزمع صرما وأنفذ عزما على الفراق والهجر أن يرجع إلى حبيبه صاغراً . وأبو بكر يجعل ذلك فى قوله : « والحازم من صبر على مضاضة التدلل والتمس العز فى استشعار التذلل [١] » .

وليس يجمل بالمحب أن يضجر إن مسه الضر من حبيبه من بعد مساعفة منه وإسعاد والضجر مما ليس للمحب عنه مهرب « مهجن لمظهره ومزر يستشعره [٢] » فهو واقع فى الحب لاطاقة له بالانفلات من أسره سواء عليه أصبر أم جزع ماله من محيص ، والصبر حينئذ أجمل به وأولى وأحسن ، على أنه مع ذلك غير ملوم على الضجر ولا معنف على الجزع فهو كفاقد النعمة الواقع بعد بلهنيتها فى النقمة لابد له أن يجزع لزوالها ويضجر لتحول حالها « فإن من تسامح له الزمان وتغافلت عنه صروف الأيام فوقع فى مرعى خصيب وظفر بما لم يأمله ( من [٣] ) المحبوب ثم عطفت عليه الأيام عطفة الحنق المغتاظ فاسترجعت ما أعطته واستردت ما أعارته لغير معنف على الحيرة والتخليط والتأسف على ما قدم من التفريط [٤] » .

على أن المحب الذى اكتمل فى نفسه الحب وتدرج فى مراقيه حتى بلغ منتهاه لايلبث أن يصبر بعد الجزع ويسكن بعد القلق ويفيق من غمرة الضجر وحيرة التبرم بحبه طوعا أو كرهاً . فالحب يملك على المحب النفس ويهيمن عليها فلا يزال يصارع الضجر ولا ينفك ينازل الجزع حتى يخضد منهما الشوكة فترجع نفس المحب إلى الصبر على الحب راضية أو غير راضية .

أما الذى يخيل إليه أنه بلغ الذروة من أول نظرة فهو أبعد ما يكون عن الثبات وأهون ما يكون على التقلب وأيسر على الانفلات « فكما كان ارتقاؤه فيه سريعاً كان انحطاطه قريباً [٥] » .

والمحب العريق فى الحب لا يقف به الأمر عند الصبر على مرائره ومضاضته ولكنه يرضى به ويطمئن إليه قلبه وتسكن إليه نفسه فلا يطلب منه فكاكا

---

(١) الزهرة ص : ٥٢ .
(٢) الزهرة ص : ١٠٩ .
(٣) ساقطة فى الأصل ولا يستقيم المعنى إلا بها .
(٤) الزهرة ص : ١٠٩ .
(٥) الزهرة ص : ٣٣٥ .

ولا يود من ربقته انفلاتا وهو لو قدر على الفكاك منه لما فعل فهو يستعذب فيه العذاب ويستحلى ما فيه من المرائر ولقد مر بنا قول القائل :

إذا ما سألتك وعدا تريح به مهجتى فأنا المستريح
فلا تعطنى الوعد خوف السلو فإنى على حسراتى شحيح
أحب إلى من الصبر عنك فؤاد قريح وقلب جريح

وأبو بكر يستحسن قول يزيد بن الطثرية :

يقولون صبراً يا يزيد إذا نأت ويا رب لا ترزق على حبها صبراً

ويعقب عليه بقوله : « فهذا يختار لنفسه البلاء ضنا بمحلها من الهوى ولعمرى إن هذه لحال وكيدة وإنها لو فارقته حتى يرى نفسه بعين الحرية من ملكها لانتقل عن رأيه وندم على وفائه[1] » .

وهو ينقد قول القائل :

يلومك فيها اللائمون نصاحة فليت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلى أطاعنى أطعت ولكن الهوى قد عصانيا

وفيه من البرم بالحب والضيق بالحبيب شىء كثير . وأبو بكر ينقده فيقول : « وهذا الكلام لا يكون إلا عن حال ضعيفة أو يعقب ضجرة شديدة لأن صاحبه لم يرض بالتبرم من هواه حتى ضم إلى ذلك تمنى انصراف الحال إلى سواه[2] » .

ويخيل إلى أن العشاق فى هذا الأمر صنفان ؛ فبعضهم يرتقى فى الحب إلى أعلى مراتبه ويتمكن من نفسه ويدخل فيها كل مدخل ولكنه يبقى له أحياناً من الزمن يرجع فيها إلى حاله الطبيعية فيظهر عليه الضجر ويبين منه البرم .

وآخرون لا يكتفون بذلك أو لا يكتفى الحب منهم بذلك بل يستغرق فيهم ويستغرقون فيه فلا يحسون كما يحس الناس بل تتبدل عندهم وسائل الإحساس ويختلف تقديرهم للذة والألم عن تقدير الآخرين ، وإن شئت فهم فى شىء شبيه بالغيبوبة ، لا يتألمون لما يألم منه الصاحى ولا يلتذون بما يلتذ به . وما أظن ذلك على بعض النفوس ببعيد ولا بعسير ؛ فلكل نفس من النفوس منطق وجدانى يختلف عن منطق غيرها بعض اختلاف .

---

(١) الزهرة ص : ٢٦ .
(٢) « « : ٢٢٩ .

ومن آداب الحب أن يجمل المحب فى زيارة حبيبه وأن يقصد فى التمتع بوصاله ولا يرسل نفسه فيه كل الإرسال فإن الحبيب مهما كان مقيما على الود راعياً لحقوق الحب فلا بد أن يصيبه الملل من جراء ذلك . يقول أبو بكر : « على أن الحزم لمن سومح بالوصال ألا يرسل نفسه كل الإرسال فإن ذلك ربما دعا المحبوب إلى الملال وإن كان مقيما على رعاية الحال [١] » .

وينبغى للمحب الذى ساعفته الأيام بوصال حبيبه وعطفت عليه بإسعاده ألا يصف للناس جماله ولا ينعته لهم بأخلاقه ولا يحدثهم بما يجرى بينهما من أسباب المواصلة والإسعاد . وأبو بكر يحذر المحبين من ذلك فى الباب الثامن فيقول فى عنوانه : « ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف » وفى العبارة إشعار للمحب بأن حبيبه من رفيع المنزلة بحيث ينبغى أن لا يتبذل بوصفه للآخرين . وهو يرى أن وصف الخصال التى يرتضيها المحب فى حبيبه وينجذب إليه من أجلها يطمع الآخرين فى حبيبه ويدعوهم إلى التماس وده ومنافستهم إياه فيما استطاع أن يصل إليه . يقول : « وليعلم أن وصف ما فى صاحبه من الخصال المرتضاة مغر بمن علمها المشاركة له فى هواه [٢] » .

وكما يجمل بالمحب أن يضرب عن وصف جمال المحبوب فكذلك يجمل به أن لا يبوح للناس بما خبر من طباعه وما بلا من خلائقه . « فإن المحبوب ربما دعته الرأفة بمحبه والإشفاق عليه إلى أن يحمل نفسه له على ما يوجبه حق الهوى عليه . . . . فإذا كان وصف الخلقة التى لا يتهيأ نقلها ولا يعاب بها صاحبها ليس بجميل كان وصف الخلائق التى قد سومح فيها أحرى أن يكون غير جميل [٣] » .

ويعود فى آخر الباب فيناقض نفسه ويقول إن « وصف الخلائق والأفعال أسهل من وصف الخلقة بالجمال وكلاهما داخل فى الدلالة على الشركة فى الأحباب [٤] » وهو على أية حال يرى أن وصف الحبيب خلقته أو خلقه وما يجرى بين المحب وبينه « معيب ممن حكاه عن نفسه وعن صاحبه إلا أنه عيب لا ينهتك ستر المودة بمثله » ولكنه مع ذلك دون حال التمام فى الحب .

---

(١) الزهرة ص ٦٥ .
(٢) « « ٧٣ .
(٣) « « ٧٤ .
(٤) « « ٨١ — ٨٢ .

وكلام أبى بكر فى وصف الحبيب يصدر عن أنانية المحب وحرصه الشديد على أن لا يعلم بحاله وبما ينتابه من الوساوس والهواجس أحد خوفاً من أن يطمع الناس فى حبيبه فيشاركوه ويجنى على نفسه بذلك ما لا يستطيع أن يتلافاه . وهذه حال من لم يرسخ فى الحب قدمه ولم يقدم به عهده أما المحب الذى امتلأت بالحب نفسه فلا يبالى بمثل هـذا ولا يعبأ به فهو يكون فى الغالب واثقاً من ود حبيبه لا يخاف عليه مشاركة غيره فى وده بل لعل ذلك لا يخطر بباله ولا يدور بخلده فهو منشغل عنه بأحواله منصرف إلى الاستمتاع بإسعاد محبوبه .

ومن آداب الحب أيضاً الكتمان . وأبو بكر يشتد على المحبين فى ذلك فيدعوهم إلى كتمان وجدهم بمن يحبون صيانة له عن أن يتعرض لقالات الناس وتشنيعاتهم وصونا لأنفسهم عن السعاية والارتقاب . وهو يوصى بذلك المستطيع ومن أمر سره إليه على أن من المحبين من يغلبه الوجد على صبره فيظهر للناس مكنون سره . وهؤلاء على الإفشاء غير ملومين بل إن حالهم عند أبى بكر هى الحال التامة ، ذلك لأن أحدهم ما يزال يؤثر الإسرار على الإعلان ويجتهد فى إخفاء أمره وكتمان سره حتى يصرح الوجد عن مكنونه وذلك لا يكون إلا إذا تملكه الوجد « ملكا يزول معه الكتمان فيكون ضابطا لنفسه مؤثراً لكتمان سره مادام التميز معه إلى أن يغلبه من الوجد ما لا يستطيع أن يدفعه [١] »

على أن هناك أموراً لا تنطوى تحت الذى أسلفنا ولا يعذر مفشيها بحال من الأحوال . تلك هى : « أسرار المحبوب عند المحب مثل مواعيده له وزياراته إياه ومساعدته له على مايهواه ومايجرى بينهما من المعاتبات بل من سائر المخاصمات [٢] ذلك لأن شدة الوجد تفصح عما فى نفس المحب وتفضحه بما لاقبل له به وشدة الوجد لا تكشف عن مثل هذه الأسرار ولا توجب إفشاءها بل توجب صونها وإخفاءها . يقول أبو بكر : « ولن يشيع مثل ما وصفنا إلا ضعيف فى الحال جدا [٣] » .

وكتمان هذه الأسرار عن الأولياء والأصفياء جميل وهو عن الأعداء أوجب ذلك أن من ضاق صدره عن سره فلا يلم غيره على نشره فكيف إذن بالعدو

---

(١) الزهرة ص ٣١٧ .
(٢) « « ٣٠٧ .
(٣) « « ٣٠٧ .

الذى يتربص بعدوه الدوائر ويتحين الفرص للإيقاع به . وفى ذلك يقول أبو بكر على لسان بعض أهل العصر :

وإنى وإن شاعيت لديك سرائرى ... فان الذى استودعتنى غير شائع
أبى الله لى إلا الوفاء لكل من ... رعى لى عهداً أو أضاع ودائعى
فكن آمناً من أن أذيع بسركم ... فما سر أعدائى لدى بشائع
وما أنا ممدوحا بحفظ وديعة ... أقل حقوق الناس حفظ الودائع[1]

ومن الناس من يكتم الأسرار ويخفى مايضطرم بين جوانحه خشية أن يغضب من ذلك محبوبه وحال مثل هذا منقوصة ، ذلك لأنه إنما يفعل ذلك إبقاء على نفسه وأدنى منه إلى الحال التامة وأقرب إلى الكمال من يؤثر حبيبه على نفسه فيمتنع من إفشاء السر ومن شكوى ما يلقى إشفاقا عليه وابقاء على وده[2] . ذلك الذى يكون عليه من نفسه رقيب يصونها عن مكاره إلفه . وفى ذلك يقول أبو بكر :

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى ... وآخر يرعى ناظرى ولسانى
فما عاينت عيناى بعدك منظراً ... يسؤوك إلا قلت قد رمقانى
ولا خطرت من ذكر غيرك خطرة ... على القلب إلا عرجا بعنانى
إذا ما تسلى الغابرون عن الهوى ... بشرب مدام أو سماع قيان
وجدت الذى يسلى سواى يشوقنى ... إلى قربكم حتى أمل مكانى
وفتيان صدق قد سئمت لقاءهم ... وعففت طرفى عنهم ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى ... أراك على كل الجهات ترانى[3]

وهكذا نرى أنه لا يكتفى بإلزام المحب بما ألزمه به آنفاً حتى يريد أن يربى فيه ما يمكن أن نسميه (ضمير المحب) .

ورأس مقومات الحب وعنوان آدابه الوفاء . وأبو بكر يتحدث عنه حديث الفقيه فيقول : « الوفاء اسم للثبات على الشرائط فكل من عقد على نفسه أو عقد عليه غيره ممن يلزمه عقده شيئا فثبت عليه ولم يزل عنه سمى موفيا ، وكل من شرط على نفسه شرطا وزال عنه للزوال سمى غادرا[4] » .

---

(١) الزهرة ص ٣٠٩ .
(٢) « « ٣٩ .
(٣) « « ١٤٦ .
(٤) « « ٣٦١ .

ويمعن أبو بكر فى هذا الحديث الفقهى ويفقد الروح التى تشيع فى أغلب مناحى الكتاب روح المحب الخبير بأحوال الحب والمحبين ويسترسل فيه حتى يبلغ به القياس الصورى البعيد عن الواقع النفسى الوجدانى أن يقول : « فالمحبوب يكون موفيا لمحبه ويكون غادراً بعهده والمحب لا يكون موفيا ولا غادرا لأن محبته قائدة له إلى محاب إلفه فيما يصلح الإنقياد إلى مثله[١] » .

فيم إذن قوله قبل سبع صفحات من هذا الكلام فى عنوان الباب التاسع والأربعين « لا يعرف المقيم على العهد إلا عند فراق أو صد[٢] » وفيم ينعى على المتقلبين غير الثابتين على الود تقلبهم وقلة وفائهم .

هذه شنشنة أعرفها من أخزم . فأبو بكر حين يلبس ثياب الفقهاء ويتقمص أهاب المتفلسفين وأهل المنطق يقذف بقلبه وشعوره بعيداً ويضرب بهما عرض الحائط .

ونحن نلتمس حديثه عن الوفاء فى موضع آخر فهو يرى أن المحب الصادق فى حبه المقيم على عهد حبه إنما يظهر صدقه حين يفارق من يحب أو حين يصد عنه فهو إذ ذاك لا يزال مقيما على وده لا يتحول عنه إلى غيره . يقول أبو بكر: « وإنما يبين الصادق فى هواه إذا فارقه أوصد عنه من يهواه فأقام حينئذ عليه ولم ينتقل إلى سواه[٣] » .

وهو يصف وفاءه لحبيبه وثباته على حبه ثباتا لا ينال منه الهجر ولا يعصف به اليأس فى هذه الأبيات الجميلة فيقول :

يا غارس الحب بين القلب والكبد ... فرقت بالهجر بين الصبر والجلد
إذا دعا اليأس قلبى عنك قال له ... حسن الرجاء فلم يصدر ولم يرد
يا من تقوم مقام الموت فرقته ... ومن يحل محل الروح من جسدى
قد جاوز الشوق بى أقصى مراتبه ... فان طلبت مزيداً منه لم أجد
والله لا ألفت نفسى سواك ولو ... فرقت بالهجر بين الروح والجسد
إن توف لى لا أرد ما دمت لى بدلا ... وإن تعزبت لم أركن إلى أحد[٤]

وهناك منزلة فى الوفاء أرفع مما سبق وأعلى وأسمى تلك هى أن يفنى المحب

---

(١) الزهرة ص ٣٦٢ .
(٢) « « ٣٥٥ .
(٣) « « ٣٥٥ .
(٤) « « ٣٥٩ — ٣٦٠

للحبيب الذى خانه وغدر به ، فيلزم نفسه قطيعته ويصبرها على فراقه والبعد عنه وهو برغم ذلك يرعى سابق عهده ولا يقابله غدرا بغدر وخيانة بخيانة . ذلك مثل الذى يقول :

والله لا نظرت عينى إليك ولا سالت مساربها شوقا إليك وما
إلا رياء لدفع القول عنك ولا نازعتك الدهر إلا مكرها كلما
إن كنت خنت فلم أضمر خيانتكم والله ياخذ ممن خان أو ظلما
سماحة لمحب خاف صاحبه ما خان قط محب يعرف الكرما

فـ « هذا البائس قد ألزم نفسه قطيعة من غدر به وصبرها على المكروه كله إلا أنه مع ذلك غير مضيع لما فى ذمته من رعاية صاحبه بنفى الظنون عنه وهذا أكثر ما يمكن من الرعاية وأتم ما يتهيأ من الصيانة لمن بادر بالخيانة ولمن ضيع حقوق الأمانة ومن منع نفسه من طاعة الاشتياق وهو بعد مقيم تحت راية الإشفاق فقد قدر على أمر عظيم وظفر بحظ جسيم[1] » .

## ٨

وبعد أن عرضنا لآراء أبى بكر محمد بن داود فى الحب نشأته وأسبابه وأحواله وملابساته وآدابه نريد أن ننظر فيها نظرة عامة فنلاحظ فيها أمورا . منها أن ابن داود كان فى أغلب كلامه على الحب وما يتصل به عميق النظرة صادق الفراسة خبيرا بالنفوس المحبة عارفا بخلجات القلوب . ذلك لأنه اختبر هذه العاطفة ومر بأدوارها المختلفة وتقلب فى أحوالها العديدة وذاق لذتها وامتحن ألمها فعرف ما يقاسيه غيره من المحبين . وكان يصدر فى آرائه عن تجربة طويلة بعيدة الأثر فى نفسه تضفى على أغلب آرائه السداد والإصابة .

ولعلى فيما أسلفت قد وفيت الإشارة إلى ذلك بعض الوفاء ، ولا بأس بأن أضيف أشياء أخرى إلى جانب ما سبقت إليه الإشارة ليتضح ذلك فضل اتضاح . لننظر إلى ابن داود وهو يعلق على قول بشار :

وما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقا إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقى

---

(١) الزهرة ص ١٧٦ .

فيقول : « وهذه المكاره كلها أثمار تلك الملاذ التى قبلها وذلك أن من هوى إنسانا فإنما قصاراه حين يهواه أن يعيد نظره إليه فيروى من شخصه ويستمتع من لفظه فاذا تهيأ له ذلك ازداد وجده به أضعافا على ما كان فى قلبه ثم تدعوه نفسه بعد ذلك إلى كثرة التلاقى والمواصلة وتنبسط للمساءلة والمشاورة ؛ وهو فى كل هذه الأحوال مشغول بحظوظ نفسه غير فارغ معها لصبابة غيره بل يحب أن يكون إلفه سمحا بالمواصلة لمن علم أنه يوده ليكون ذلك سبباً له إلى مواصلته وتسهيلا له السبيل إلى معاشرته ، فاذا تمكن وده من نفس محبوبه فاستشعر الوفاء له ودفع قياده إليه ، فلم يعترض شىء من أمره عليه لكسبه ذلك ضنا به وصيانة له[١] » .

فهو فى هذه الفقرة يتتبع تدرج الحب فى النفس وتغلغله فيها شيئاً فشيئاً ويستقصى خلجات القلب وما يمر به من أحوال فى الحب حتى لكأنه يستخلص ذلك من يوميات أو مذكرات كتبها بنفسه وسجل فيها ما مرت به نفسه فى هذه التجربة النفسية تسجيل المراقب الدقيق الملاحظة .

وهو حين ينعى على المتضاجرين من هجر أحبابهم ويدعوهم إلى الصبر عليه والرضى به يتحدث عنهم وعما يدور فى أنفسهم حديث المجرب العميق الخبرة ، فيقول : « يحسبون أن انحرافهم عن أحبابهم أقل أذى عليهم من الصبر على محباتهم ولو قد أنفذوا ماعزموا عليه من الفراق والهجر لشاهدوا مايضطرهم إلى الرجوع بالصغر والتوسل إلى الصفح بالعذر[٢] » .

ولننظر فى هذا التعليل الجميل الذى يتخذه أبو بكر مادة للدفاع عن المعتذر أنه يحمل بين ثناياه خفقات قلب رقته الحب وخلجات نفس هذبها الوجد . يقول أبو بكر « المعتذر لا ينفك من إحدى حالين إما أن يكون صادقا أو كاذبا فإن كان صادقا فعذره مقبول ، وإن كان كاذبا فانه لم يتجشم مضاضة الكذب فى نفسه إلا لنفاسة صاحبه فى صدره ، ومن كان بهذه الحال قبل عذره بل وجب شكره[٣] » .

وقد سبق لى أن ألمحت إلى أن لأبى بكر بن داود فى الكتاب أكثر من شخصية واحدة ، فهو فى كثير من مواضع الكتاب محب يكتب فى الحب بروح

---

(١) الزهرة ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢،٣) الزهرة ص ٥٧ .

المختبر المجرب فتأتى نظراته صادقة نفاذة ويشيع فى أسلوبه جمال النفس المحبة التى صقلها الوجد وزانتها لوعة الحب .

وهو يبدو فى بعض أجزاء الكتاب فقيها متفلسفا يقف همه على المقدمات والنتائج ويحصر جهده فى القياس الصورى البعيد عن الواقع النفسى فيخرج كلامه ثقيلا على النفس يشيع فيه التكلف ويغلب على أسلوبه الاضطراب والتعقيد .

وقد تتلاقى هاتان الشخصيتان فيبدو أبو بكر العاشق مثاليا يلزم العشاق بأخلاق الملائكة ويفرض عليهم ما لا طاقة لبنى آدم به . ذلك حين يتحدث عن مرتبة الكمال فى الحب وعن الحال التامة فيه . وأسلوبه فى ذلك سلس لطيف خفيف الوقع على النفس إلا أن الإغراق فى المثالية يثير فى نفس قارئه شيئاً شبيها بالعتب عليه ودعوته إلى الترفق بقلوب العشاق .

على أنه لا يلتزم بما يلزم به غيره من تمام الحال ومرتبة الكمال ، فنحن نجد فى شعره الذى ينسبه إلى بعض أهل عصره كثيراً مما ينقد غيره على الوقوع فيه . وقد مرت الإشارة إلى كثير من هذه المواضع فيما سبق[1] .

ولقد صدقت فيه فراسة أبيه وأقرانه فى الطفولة فقد بقى كما نبزوه عصفور شوك خجولا مرهف الشعور شديد الحساسية وظهر ذلك فى كتابه باجلى مظهر وأوضح صورة فهو يبدو فيه خجولا يكاد يذوب من فرط رقته واستتر حتى لا يكاد يبين وتوارى فى رواية شعره وراء بعض أهل عصره . وهو قليل التحدث عن نفسه فى الكتاب بل لم يكد يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم أبدا .

ولست أعود بذلك على الجانب الشخصى فى أبى بكر بن داود فحسب فلقد كان للبيئة التى نشأ فيها أثرها فى إخراج الكتاب على هذه الصورة ويبدو ذلك واضحاً إذا تذكرنا تزمت أهل العراق وتشدد فقهائهم فى مثل ما كتب فيه ابن داود كتابه . وإذن فليس ببعيد أن يكون ذلك بعض البواعث التى حدت بابن داود أن يتستر فى رواية شعره وأن يضرب عن الحديث عن نفسه وعن حوادث الحب وأحاديثه فى البيئة التى نشأ فيها .

ورغم أن الكتاب فى جملته مستمد من خبرة شخصية ومن معاناة ذاتية للحب إلا أنه يمتاز بأن كاتبه قد فنى فى الحب الذى يتكلم فيه ، وأصبح جزءا منه لا يكاد يتميز .

---

(١) مر بعض ذلك فى الفصل الأول من هذا الباب أثناء الحديث عن حبه .

## ٩

وثمة مسألة يثيرها الأستاذ ماسينيون فى كتابه عن الحلاج تلك هى أن أبا بكر محمد بن داود قد أفتى بقتل الحلاج حين اشتهرت ببغداد فتنته . وواقع الحال أن الحسين بن منصور الحلاج استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ومن حرمه وأغراهم بالانضمام إلى أنصاره حتى خاف الخليفة جعفر المقتدر عاقبة ذلك فحبسه واستفتى فى قتله الفقهاء فاختلفوا . فأما أبو العباس بن سريج رأس فقهاء الشافعية فى بغداد آنئذ فتوقف ولم يفت بقتله . وأما أبو بكر محمد بن داود فقد أفتى بقتله[١] .

ويروى الخطيب البغدادى أن أبا بكر محمد بن داود الفقيه الأصبهانى كان شديداً على الحلاج وكان يقول فيه : « إن كان ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم حقاً وما جاء به حق فما يقول الحلاج باطل[٢] » .

والأستاذ لوى ماسينيون يعلل اشتداد محمد بن داود على الحلاج وفتواه بقتله بأسباب تكاد تكون شخصية[٣] تلك هى ما يطلق عليه العداء العاطفى[٤] الذى أثار فيه هذا الحقد الدفين على الحلاج[٥] .

ويريد الأستاذ ماسينيون بالعداء العاطفى بين ابن داود والحلاج الوحشة التى كانت بينهما والتى مردها أن ابن داود ذو مذهب فى الحب يرى تحريم الوصل من المخلوق والحلاج كان يعتقد بل يقول بإمكان الوصل مع الخالق[٦] .

وما أريد أن أخوض فى النقاش حول الباعث الذى حدا بابن داود فأفتى بقتل الحلاج فهو بلا نزاع باعث دينى مذهبى استوحاه من مذهبه الظاهرى فى الفقه . ولكنى أريد أن أشير إلى ما يفهم من كلام الأستاذ ماسينيون من أنه

---

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ ويروى القاضي عياض فى كتاب الشفاء أن فقهاء بغداد فى أيام المقتدر من المالكية وقاضى قضاتها أبى عمر المالكى أجمعوا على قتل الحلاج وصلبه لدعواه الإلهية والقول بالحلول وقوله أنا الحق مع تمسكه الظاهر بالشريعة ولم يقبلوا توبته ص ٢٨٢ ط استنبول .

(٢) تاريخ بغداد المجلد الخامس ص ١٢٩ .

(٣) Raisons presque personels. (٤) L'hostilité Sentimenti.

(٥) La Passions d'Al Hallaj Tome I, p 169.

(٦) حدثنى بذلك حين التقيت به فى دار المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة يوم الاربعاء ١٩٤٧/١/٢٩ .

يجعل محمد بن داود صاحب مذهب فى الحب يسميه مذهب الظاهرية [١] ويجعل خليفته فيه أبا محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم صاحب طوق الحمامة فى الألفة والألاف . وهذا المذهب فيما يرى ترديد لآراء أفلاطون فى الحب تلك التى بسطها فى كتابه المعروف بالوليمة الأفلاطونية أو المائدة : Symposium أو Banquet

وما أظن أن هذا المذهب فى الحب إن جاز أن يسمى مذهبا شىء جديد فى تاريخ الأدب العربى فقد عرف هذا الحب العفيف من قبل محمد بن داود بقرنين أو أكثر حيث تغنى به فريق من شعراء البادية فى الحجاز وما جاورها وعرفت به قبيلة حجازية مشهورة هى قبيلة عذرة وعرف بها فقيل له الحب العذرى واشتهر أمره فى الأدب العربى حتى صار يطلق على كل حب عفيف لا يتعلق بالجسد ولا يهدف إلى ارضاء رغباته .

وجاء محمد بن داود فكتب فيه كتابا جمع فيه طائفة من شعر الحب وحاول أن يشرح تكوين الحب ومنشأه وأحواله وآدابه ولا بد لمن يأخذ نفسه بذلك أن يستهدى بما يشيع فى عصره من الثقافة فى العلم وفى الفلسفة .

وكان مبلغ القوم — فى عصر ابن داود — من العلم فلسفة اليونان التى بدأوا ينقلونها إلى العربية فلا بدع إذن أن يفر ابن داود إليها يلتمس فيها الحل لما أشكل عليه فى منشأ الحب وفى أسبابه .

---

(١) La Passions d'Al Hallaj Tome II p 691 .

# الباب الثانى

## ابن حزم وآراؤه فى الحب

كان أبو بكر محمد بن داود بن على الأصبهانى الظاهرى ، كما مر بنا من قبل . أول من ألف فى الحب فشرح أسبابه وبين مراحله ومراتبه وأحواله . ووضع للمحبين آدابا يقفونها ويسيرون عليها . وأبو بكر كما هو معلوم فقيه من فقهاء أهل الظاهر ، بل هو ابن مؤسس المذهب وخلفه فى مشيخته . ونحن إذا نظرنا فى تاريخ الأدب العربى لم نجد بعد أبى بكر مؤلفاً فى هذا الموضوع يعول عليه غير فقيه ظاهرى آخر سلك سبيل أبى بكر فى الفقه وفى الحب والتأليف فيه ، ذلك هو أبو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسى الوزير الفقيه الأديب . ويذكر جولدتسيهر(١) ممن سبق ابن حزم إلى الكتابة فى الحب عدا محمد بن داود : —

١ — إخوان الصفا . وفى مجموعة رسائلهم رسالة فى العشق عرضت لذكرها فى فى الفصل الأول .

٢ — أبو بكر السراج صاحب مصارع العشاق وهو كما يظهر من اسمه طائفة من الأخبار تتعلق بموت العشاق .

٣ — الخرائطى وكتابه المسمى باعتلال القلوب وهو كتاب مخطوط محفوظ فى مكتبة أوكسفورد(٢)

---

(١) نقل ذلك عنه نيكل في ترجمته لطوق الحمامة المسماة بالإنكليزية The Dove's Neck Ring about Love and Lovers. — المقدمة .

(٢) أخبرنى بذلك الأستاذ ماسينيون .

# الفصل الأول

## ابن حزم – حياته وحبه

### ١

هو أبو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد . ويزيد هذا فارسى كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس[١] .

ولد أبو محمد بقرطبة فى الجانب الشرقى من ربض منية المغيرة[٢] وكانت ولادته فيما كتب به إلى القاضى صاعد بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من رمضان عام أربع وثمانين وثلاثمائة[٣].

ولد فى أسرة فارسية الأصل كانت تقيم فى منت ليشم وكان جده يزيد أول من أسلم منها . ونزح إلى الأندلس جده خلف بن معدان[٤] .

ويجمع مؤرخوه على ذلك إلا دوزى فهو يزعم أن ابن حزم سليل أسرة مسيحية من أصل أسبانى . وأن جد أبيه حزما أول من دخل فى الإسلام . ويرى أن أبا محمد على بن حزم ادعى من بعد أنه سليل أسرة فارسية الأصل نزحت إلى الأندلس على ما يذكر غيره من المؤرخين وأنه فعل ذلك هرباً من عار الانتساب إلى أصل مسيحى[٥] . وهى دعوى لا يقيم دوزى عليها دليلا ولا يسعفه فيها برهان .

ولعله فعل ذلك ليرد نبوغ ابن حزم إلى أصله المسيحى الإسبانى . وهو قد فعل ذلك فزعم أن ما نشهده عند ابن حزم من طريقة فذة فى التفكير وإحساسه المرهف وتعبيره الرشيق إنما ينزعه فيه عرق مسيحى اسبانى لم يفقده بإسلامه وتعربه وأن ما نلحظ فيه من الصفاء والرقة والروحية أمور لم تكن يوما ما عربية[٦] . ومن الحق أن نقرر أن الرقة والروحية والصفاء والإحساس المرهف

---

(١) و (٢) طبقات الأمم للقاضى صاعد ص ١١٧ ط مطبعة السعادة .

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٨ . (٤) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٥) Dozy : Histoir des Musulmans d'Espagne Tome III p 326

(٦) دوزى المرجع السابق ص ٣٢٨ .

وغير ذلك مما امتاز به ابن حزم أمور لم تكن ولن تكون مقصورة على أمة من الأمم .

وقد تابعه فى القول بذلك فان ارندنك كاتب مقالة ابن حزم فى دائرة المعارف الإسلامية .

وتسكت المصادر الأخرى عن البلد الذى نزح منه جده خلف بن معدان إلى الا ندلس على أن فى شعره إشارة إلى العراق قد يفهم منها أنها كانت موطن أجداده . يقول من قصيدة :

ولى نحو أكناف العراق صبابة ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

وسكن جده قرطبة فى أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر[١] ونالت أسرته فى قرطبة جاها عريضا ومنزلة رفيعة فكان أبوه أبو عمرو أحمد بن سعيد بن حزم وزيرا للمنصور محمد بن عبدالله بن أبى عامر ووزر لابنه المظفر من بعده[٢] وكان مولد أبى محمد فى عهد وزارة أبيه للمنصور بن أبى عامر فنشأ فى الغنى والسلام وبلهنية العيش تحوطه النعمة وترفرف عليه أبهة الملك وسلطان الوزارة .

وقد نشأ أبو محمد بين النساء وربى فى حجورهن وهن علمنه القرآن وروينه كثيراً من الأشعار ودربنه فى الخط ولم يعرف غيرهن ولا جالس الرجال إلا وهو فى حد الشباب[٣] . وكان لنشاته هذه كما سنرى فيما بعد أثرها البالغ فى تفتح قلبه للحب وفى معرفته بأحوال النساء وأخلاقهن .

كانت أسرة ابن حزم تقيم فى الجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة المدينة التى أنشأها المنصور بن أبى عامر إلى عام تسعة وتسعين وثلاثمائة حيث انتقل أبوه فى اليوم الثالث لتولى أمير المؤمنين محمد المهدى إلى دورهم القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث وذلك فى جمادى الآخرة من العام المذكور[٤] .

وكان أبو محمد فى ذلك الحين يتلقى العلم على شيوخ من جلة أهل العلم فى

---

(١) نيكل مقدمة ترجمته للطوق .
(٢) طبقات الأمم .
(٣) طوق الحمامة فى الألفة والألاف ص ٤٦ — ٤٧ ط دمشق .
(٤) طوق الحمامة ص ١١٠ .

زمانه فقد كان يأخذ الحديث عن أبى عمر أحمد بن محمد بن الجسور وكان أول سماعه قبل الأربعمائة ذلك لأن شيخه ابن الجسور توفى سنة أربعمائة[١] .

وكان شيخه فى اللغة الفقيه أبو الخيار اللغوى وشيخه فى الجدل والكلام أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى[٢] وأخذ علوم اليونان على همام بن أحمد بن نبوشى وأبى عمر التملنكى وابن الكنانى الذى كان عالما بالطب وبمنطق ارسطو[٣] .

واجتاح الطاعون قرطبة فى سنة إحدى واربعمائة فأصيب بوفاة أخيه أبى بكر فى شهر ذى العقدة من السنة المذكورة وعمره اثنتان وعشرون سنة[٤] ثم تتابعت عليه وعلى أسرته النكبات فحين تولى الخلافة هشام المؤيد أصاب أسرة ابن حزم من أعوان هشام أذى كثير من الاعتداء والاعتقال إلى أن توفى أبوه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم لليليتين بقيتا من ذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة واتصلت بهم تلك الحال من بعده[٥] .

وفى سنة أربع وأربعمائة دهمت قرطبة غارات البربر وانتهبتها ودمرت منازلها فاضطر ابن حزم أن يجلو عنها ويرحل إلى المرية[٦] . وهو يتحدث عما فعل البربر بقرطبة فى غاراتهم عليها من التخريب والتدمير فيقول :

« ولقد اخبرنى بعض الوارد من قرطبة وقد استخبرته عنها أنه رأى دورنا ببلاط مغيث فى الجانب الغربى منها وقد أمحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران وفيافى موحشة بعد الأنس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعاباً مفزعة بعد الأمن ومأوى للذئاب ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيدي سبأ[٧] .

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس للضبى من مجموعة المكتبة الأندلسية ص ٤٠٣ نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) طوق الحمامة ص ١٠٣ و ١١٧ .

(٣) مقدمة نيكل لترجمة طوق الحمامة .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٦ .

(٥) طوق الحمامة ص ١١٠ .

(٦) طوق الحمامة ص ١١١ و ١١٧ .

(٧) طوق الحمامة ص ٩١ .

وظل مقيما بالمرية حتى انقطعت دولة بنى مروان وقتل سليمان الظافر وظهرت دولة الطالبيين وبويع على بن حمود الحسنى الملقب بالناصر خليفة على قرطبة بعد ان تغلب عليها . ثم لم يلبث ان وشى به أعداؤه إلى خيران صاحب المرية واتهموه بأنه يسعى هو وصاحبه محمد بن اسحق للثورة على الدولة ليعيدا سلطان الأمويين فاعتقلهما خيران أشهرا ثم أخرجهما من المرية منفيين حتى بلغا حصن القصر فتلقاهما صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبى [١] — المعروف بابن المقفل — بالترحاب وأكرم مثواهما فأقاما عنده على الرحب والسعة شهوراً ولما بلغهما ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد فى بلنسية ركبا إليه البحر [٢] وكان أبو محمد بن حزم فى جيش المرتضى الذى حارب فى غرناطة وكان وزيراً له فأسره العدو ولكنه عاد فأطلق سراحه بعد مدة وجيزة [٣] .

وفى عام تسعة وأربعمائة رجع ابن حزم إلى قرطبة إبان حكم القاسم بن حمود المأمون ونزل على بعض نساء أسرته [٤] .

وحين خلع القاسم بن حمود عام أربعة عشر وأربعمائة ونودى بعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر خليفة استوزر صديقه أبا محمد بن حزم [٥] .

ويروى ياقوت أنه وزر من بعد لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر [٦] .

ثم ارتحل إلى شاطبة عام ثمانية عشر وأربعمائة وانصرف فيها إلى العلم والتدريس وزهد فى السياسة والرياسة من بعد ما أصابه منها الأذى والتشريد واشتغل بالعلم . وكان فى أول أمره شافعيا مناضلا ثم انتقل منه إلى مذهب أهل الظاهر وكان شديداً على مخالفيه كثير الوقوع فيهم وقد تصدى للمالكية المتعصبين فى الأندلس ووقع فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل فى الطعن على أئمة المسلمين والجلة من علماء السلف وبخاصة الإمام أبو الحسن

---

(١) فى الأصل النجيبى ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٢) طوق الحمامة ص : ١١٧ — ١١٨ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .
(٤) طوق الحمامة ص : ١١١ ودائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .
(٥) طبقات الأمم ص : ١١٧ ودائرة المعارف الإسلامية .
(٦) ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص : ٨٦ ط مرجليوث .

الأشعرى ومقامه عند المالكية من أهل الأندلس وغيرهم مقام رفيع . فألب بذلك الفقهاء عليه فطعنوا فيه وشنعوا عليه ووشوا به إلى السلطان فمنعه من التدريس وأبعد عنه طلاب العلوم خشية أن يتأثروا به ثم أقصى عن وطنه ونفى إلى البادية نفاه إليها حاكم قرطبة وأقر ذلك الخليفة هشام المعتد[١] . وبقى فى بادية لبلة حتى توفى فيها لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة[٢] .

وكان أبو محمد بن حزم شغوفا بالعلم كلفا بالمعرفة فقد أقبل بعد أن أدبرت عنه الرياسة على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وألم بجميع معارف عصره أو بأكثرها فدرس المنطق وألف فيه كتابا سماه التقريب لحدود المنطق بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف ارسطاليس واضع هذا العلم فى بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض فى كتابه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط[٣] » .

وأقبل على علوم الشريعة فنهل منها وعل واستكثر من فنونها « حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله[٤] » . وقد صنف فى علوم الشريعة مصنفات كثيرة جرى فيها على مذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى وهو المعروف بمذهب أهل الظاهر الذين ينفون القياس والتعليل .

ومن أشهر كتبه كتاب الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرايع الإسلام فى الواجب والحلال والحرام وساير الإحكام وكتاب الأحكام لأصول الأحكام فى أصول الفقه وكتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل وقد حمل فيه على أئمة السلف تلك الحملة التى لقى من جرائها ما لقى من تشنيع الفقهاء عليه وطعنهم فيه وتأليبهم السلطان عليه حتى نفى ومات غريبا بالبادية .

وكان بعد هذا أديبا لغويا له من علوم العربية وقرض الشعر والكتابة نصيب وافر ويحسبه أن ترك لنا من بعده كتاب طوق الحمامة فى الألفة والألاف .

وكان أبو محمد بن حزم فيما يظهر من كتبه حاد الذهن قوى العارضة مرهف

---

(١) نيكل مقدمة ترجمته لطوق الحمامة وهو بذلك ينفى استيزاره ابن حزم ولم يشر إلى مصدره .

(٢) نفح الطيب وابن خلكان وطبقات الأمم وبغية الملتمس وغيرها .

(٣ ، ٤) طبقات الأمم للقاضى صاعد .

الإحساس شديد الإعتداد بنفسه كثير التحدث عنها والفخر بها . وقد أغرى ذلك به أهل العلم فاشتدوا فى مخاصمته وأهملوه ومنعوا الناس من الأخذ عنه . وها هو ذا يشكوهم فيقول :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجد على ما أضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة ... ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجىء به الكتب
هنالك يدرى أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب[1]

ولعل ما اشتهر به من سلاطة اللسان والعنف فى الخصومة آت مما أصابه فى صدر شبابه من النكبات التى أتينا عليها فى الكلام على حياته . فقد توفى أخوه وخلع أبوه وأجليت أسرته عن منازلها واعتقل ونفى وشرد وأصابه من أذى السلطان شىء كثير ومثل هذه النكبات تقع فى النفوس أحد موقعين : فإما أن تيأس النفس وتذل وتستخذى فتقبع فى ركن هادىء وتبتعد عن مواطن النشاط الإنسانى لا زهدا به ولكن إحساسا بالعجز عن الخوض فيه وتلك هى النفوس التى تميل بطبعها إلى الهدوء وتؤثر السلامة والعافية . أما النفوس التى طبعت على الكفاح وجبلت على التقلب فى وجوه النشاط المختلفة فلا تلبث أن تلج وتستشرى وتتحدى النكبات ويزداد إقبالها على الكفاح فتشتد فيه وتقسو ومن هذا الطراز كان مترجمنا أبو محمد على بن حزم . فهو حين نكب فى السياسة وأصابه من أذاها الكثير لم يثن ذلك من عزمه بل عاود الاشتغال بها والكفاح فيها مرة بعد مرة حتى إذا استنفدت حيلته أقبل على العلم فكافح فيه وجالد واشتد عليهم فى الخصومة ولم يذل لسلطان ولم يستخذ لملك بل كان دائب التحدث عن نفسه كثير الإدلال بعلمه كثير الوقوع فى خصومه حتى لقد شبهوا لسانه بسيف الحجاج وقرنوه به[1].

وأبو محمد بن حزم شخصية فذة فى التاريخ الإسلامى فقد نشأ فى بيت عز وسلطان تحوطه النعمة وتضفو عليه الرفاهية ولكن هذه النشأة الأرستقراطية

---

(١) بغية الملتمس ص : ٤٠٤ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان .

لم تمنعه من ظهور مواهبه المتعددة الجوانب فقد طلب العلم حباً به وطمعا فى تزويد عقله بمتعه وشحذ فكره وبلغ فيه ما لم يبلغه أحد من الأندلس وخلف فيه من الآثار ما لم يعرف لأحد من علماء الإسلام مثله إلا محمد بن جرير الطبرى .

حتى لقد بلغت مصنفاته فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة[١].

وقد ناظره فى طلبه العلم أبو الوليد الباجى فقال له : « أنا أعظم منك همة فى طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق » . فقال له ابن حزم : « هذا الكلام عليك لا لك لأنك إنما طلبته وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة » فأفحمه[٢].

والحق أن من يقرأ سيرة ابن حزم تتملكه الدهشة ويزدهيه الإعجاب بنفسه القوية وشخصيته المتعددة الجوانب فقد كان يقدر لفتى من أبناء الوزراء يعيش صدر شبابه بين النساء يدللنه ويخفضن له جناح الحنو والرفق أن ينشأ (ابن ذوات) ناعماً لا خير فيه ولا رجاء لديه ولكن أبا محمد كان على عكس ما يقدر لمن ينشأ نشأته . كان مكافحاً فى السياسة وفى العلم . وكان يكفيه أن يبرز فى واحد منهما فيشتهر أمره ويخلد ذكره .

## ٢

وثمة جانب آخر هو الذى يعنينا من حياة أبى محمد على بن حزم فى هذا المقام وهو الذى سقنا ما تقدم تمهيداً للكلام فيه . ذلك أن ابن حزم وقد مر بنا ما تقلب فيه من النكبات وما أصابه من أذى معاصريه كان له فى حياته جانب عاطفى عظيم الشأن جليل القدر فإن حياته المتعددة الألوان لم تخل من الحب بل لقد كان الحب جانباً من جوانبها القيمة التى حفظت له فى التاريخ الأدبى مكانا رفيعا . وهو لم يدع هذه التجربة النفسية تمر به فيعبر عنها بالشعر تارة وبالنثر تارة أخرى ، بل لقد جمع أطراف هذه التجربة ولم شمل هذه الخبرة فأودعها كتابا هو ثانى اثنين فى تاريخ الأدب العربى ذلك هو كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاف »

---

(١) طبقات الأمم للقاضى صاعد .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

وصنوه فى هذا الشأن كتاب « الزهرة » لسلفه الفقيه الظاهرى أبى بكر محمد ابن داود الأصبهانى .

وقد سبق لى أن أشرت إلى نشأته فى حجور النساء وتربيه فى أكتافهن وأنه لم يخالط الرجال إلا عند اكتمال شبابه[١] . وهو بذلك قد أنار أمام الباحث سبيل البحث فى حبه لم نشأ وكيف نشأ .

وقبل أن أبدأ بالكلام على نشأة حبه العفيف الذى عرف به واشتهر به كتابه أود أن أرجع بالفكر إلى سبق الكلام فيه ذلك هو الألفة أكسير الحب وعنصره الأول الذى يقوم عليه تكوين عاطفته .

ولا مندوحة لمن ينشأ بين النساء تحيط به الفتيات والجوارى من كل جانب أن يستلطف واحدة منهن ويستحسن عشرتها ويعجب بها ثم يختارها لصحبته من بين الأخريات فيألفها وتألفه ألفة المودة الى لا تلبث أن ينضاف إليها من الشعور ومن التفكير ومن الدوافع الحيوية أشياء فتصبح حباً قويا . وابن حزم يحدثنا مرة أنه ألف فى أيام صباه ألفة المحبة جارية نشأت فى دارهم وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها[٢] . ويخبرنا مرة أخرى أنه أحب فى صباه جارية له شقراء الشعر فما استحسن من ذلك الوقت سوداء الشعر[٣] .

وأغلب الظن أن علاقته بهاتين لم تكن إلا استحساناً وإعجاباً لم يبلغ أن يصبح عاطفة ثابتة فيها التركز والانصراف إلى شخص بعينه . وتلك مرحلة طبيعية لابد أن يمر بها الصبى الذى تتفتح نفسه للحب وتقبل على الانغمار فيه .

والاستحسان كما مر بنا من قبل طليعة الحب وباكورته . وفى حديث — ابن حزم — عن جاريته الشقراء ما يدل على ذلك ويؤيد ما ذهبت إليه فهو فيه بصدد الحديث عن استحسان صفة من صفات الجمال والإعجاب بها بل أنه ليصرح بالاستحسان فى عبارته الآنفة الذكر فيقول : « فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر . . . الخ » .

ثم يخبرنا ابن حزم عن نفسه أنه كان أشد الناس كلفا بجارية له اسمها نعم

---

(١) طوق الحمامة ص ٤٦ — ٤٧

(٢) « « « ١٠٨

(٣) « « « ٢٥ .

وكانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لى وكنت أبا عذرها[١] وكنا قد تكافأنا المودة[٢] » .

وحديثه عن نعم يزيدنا يقينا بأنه لم يحب من قبلها حباً بالمعنى المراد من عاطفة الحب ويدلنا على أنه استحسن الأخريين وأعجب بهما من قبل أن يحب نعما ويكلف بها . فهو يخبرنا أنه فجع بحبيبته نعم فكان حزنه عليها عظيما وما طاب له من بعدها عيش ولا أنس بسواها . يقول : « دعنى أخبرك أنى أحد من دهى بهذه الفادحة « موت الحبيب » وتعجلت له هذه المصيبة وذلك أنى كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بجارية لى كانت فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لى وكنت أبا عذرها وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار واخترمتها الليالى ومر النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هى دونى فى السن فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوتها حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ..... وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفى حبى لها على ما كان قبله وحرم ما كان بعده[٣] » .

وقد كانت هذه الفجيعة قذى فى عينه وشجى فى صدره ولم يزل برحها يعاوده كلما عن له ذكر الأحبة . وقد خلعت لوعتها على أسلوبه شيئا كثيراً من الرقة الحزينة يتردد صداها فى قلب القارىء . ها هو ذا يقول :

« وإن حنينى إلى كل عهد تقدم ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء[٤] .... وما انتفعت بعيش ولا فارقنى الإطراق والانعلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة وإنه لشجى يعتادنى ووازع هم ما ينفك يطرقنى . ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه[٥] » .

ولعل ذلك يكفى لأن يقرر الباحث مطمئنا ، أن أبا محمد بن حزم ، لم يحب حبا حقيقيا قبل حبه لنعم ، فقد ملأت عليه قلبه ، وملكت عليه نفسه ، حتى أن

---

(١) فى النسخة المطبوعة « وكنت أنا عذرها » ولا معنى لها ولعل الصحيح ما أثبتناه .
(٢،٣) طوق الحمامة ص : ٨٨ .
(٤) طوق الحمامة ص : ٢٢ .
(٥) « « « : ٢٣ .

موتها لم يستطع أن يخلى بينه وبينها ، فلم يحب بعدها ، ولم يأنس بسواها ، فنحن حين نتحدث عن ابن حزم ، إنما نريد حبه لنعم .

ومن المؤسف حقا أن ابن حزم لم يدون فى كتابه شيئا كثيرا عن علاقاته فى الحب ، وما مر به من أحوال ، تقلبت بين وصل وهجر ورضى وسخط ، بخلاف سلفه محمد بن داود ، فقد عرفنا عن حبه ، وعن علاقته بحبه شيئا كثيرا . ويغلب على الظن أن ذلك يعود إلى سببين أحدهما أن حب ابن حزم كان قصير الأمد ، فقد عدا الموت على حبيبته وهو دون العشرين ، وخلف موتها ذكرى عميقة الغور فى القلب ، بعيدة الأثر فى النفس ، تمتزج لذتها بالألم المبرح . والآخر أنه أضرب عن ذكر ذلك وصفح عن إيراده رأفة بنفسه التى ما انتفعت بعيش مذ ذاقت فراق الأحبة ، وتذكر الماضى اللذيذ الممتع ، يذكر حين أضفى عليه اللذة والإمتاع ، وهو الحبيب ، وذكراه تثير فى النفس ألما دفينا ، وتستجد فيها حزنا قديما . وقديما قال شاعرهم :

* ولكن نكأ القرح بالقرح يبجع *

وفى المرارة التى تشيع فى حديثه عن نعم وعن عهده بها ، ما يوحى بذلك .

ويريد نيكل أن يجعل ابن حزم فى حبه ذا شخصيتين : شخصية المحب الأرضى[١] الذى يشتهى حبيبته اشتهاء جسمانيا ، ويتعلق بها تعلقا قوامه الغريزة وأساسه الشهوة ، وشخصية المحب السماوى[٢] الذى ينطبق وصفه ما نسميه بالمحب العذرى ، الذى تربطه بحبيبته عاطفة الحب القوية ، التى تعلو على الغريزة وتسمو على الشهوة ، فابن حزم فى حبه لنعم ، محب سماوى عذرى ، وهو فى حبه للأخرى أو الأخريات محب أرضى .

وهو يستدل على ذلك ببترارك Petrarch — فقد كان له محبوبتان كان يصارح إحداهما هذا الحب الأرضى وكانت لورا محبوبته التى يكن لها فى قلبه الحب السماوى . وهو يزعم أن الفتاة الشقراء التى يتحدث عنها ابن حزم فى الصفحة ٢٥ من طوق الحمامة هى إحدى الجوارى اللواتى كانت الأسرة الكبيرة تهبن للأولاد الذين قاربوا البلوغ ليحفظن عليهم السلامة الجسمانية وذلك يكون غالباً فى سن الرابعة عشرة . وهو يذكر أيضا أنه بلغه أن هذه العادة لا تزال شائعة بين الأسر الكبيرة فى تونس[٤] .

---

(١) Earthly Lover. (٢) Heavenly Lover.

(٣) مقدمة نيكل لترجمة طوق الحمامة .

وهذه مسألة خطيرة ليس من اليسير أن نقطع فيها برأى وليس لدينا ما يؤيدها .

وابن حزم يحدثنا فى بعض مواضع من كتابه حديثا يكشف عن طبيعة حبه فهو مثلا يعجب ويطيل العجب ممن يزعم أنه يحب من أول نظرة ولا يكاد يصدق أن الحب يكون بمثل هذا اليسر . ويجعل ذلك ضربا من الشهوة العابرة التى لا تثبت فى النفس ولا تستقر فى القلب . يقول : « وإنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة وأما أن يكون متمكنا من صميم الفؤاد نافذا فى حجاب القلب فما أقدر ذلك[١] » .

وهذا يعيد إلى الذهن كلام هافيلوك أليس فى التمييز بين الحب والشهوة[٢] وبمثل ذلك قال أبو بكر محمد بن داود .

ويتحدث عن حبه فيخبرنا أنه لم يحدث إلا بعد ملازمة طويلة وعشرة مديدة وأخذ فى كل جد وهزل وهو لذلك قد ثبت فى قلبه فعز على السلو . ها هوذا يقول : « وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والتوق فما نسيت وداً لى قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه صفته[٣] » .

وهو حب رزين وقور لا ملول ولا متقلب : « وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به ولا أسرعت إلى الأنس بشىء قط أول لقائى له وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت لا أقول فى الألاف والإخوان وحدهم لكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك[٤] » .

وصفوة القول أن عاطفة الحب عند ابن حزم عاطفة رزينة يكاد العنصر العقلى يبرز فيها ويطغى عليها وذلك يرجع فى أغلب الظن إلى قوة شخصيته ومتانة تكوينه وإرادته القوية فهو لا ينقاد للشهوة ولا ينحرف بتيار الغريزة بل يتحكم فى كل ذلك بإرادته . على أنه لا يلبث أن يؤتى من مأمنه فإذا وقع فى الحب وقع فيه إلى غير قومة وانغمر فى عبابه أى انغمار وتمكن من نفسه واستقر فى قلبه

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٢ .

(٢) تمييزه بين Lust و Love فى كتابه : Psychology of Sex .

(٣) طوق الحمامة ص : ٢٢ .

(٤) طوق الحمامة ص ٢٣ .

فصار لا يروى منه إلا طلب المزيد ويطول به العهد فلا يحس سآمة ولا يشعر بملل أو هكذا يقول هو عن نفسه : « عنى أخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . . . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتنى إلا مستزيدا ولقد طال بى ذلك فما أحسست سآمة[١] » .

وحسبنا أن هذا الذى نشأ فى بيت رفيع يتقلب فى النعمة ويتبوأ منها حيث يشاء تحيط به الجوارى الحسان من كل جانب وتستجيب لإشارة منه وتكون طوع يديه حسبنا أن الحب جعله لا يعترف من عمره إلا بساعة الوصل حيث يقول :

وسائل لى عما لى من العمر ... وقد رأى الشيب فى الفودين والعذر
أجبته ساعة لا شىء أحسبه ... عمرا سواها بحكم العقل والنظر
فقال لى كيف ذا بينه لى فقد ... أخبرتنى أشنع الأنباء والخبر
فقلت إن التى قلبى بها علق ... قبلتها قبلة يوما على خطر
فما أعد ولو طالت سنى سوى ... تلك السويعة بالتحقيق من عمرى[٢] »

---

(١) طوق الحمامة ص ٥٩ .
(٢) طوق الحمامة ص ٥٦ — ٥٧ .

# الفصل الثانى

## طوق الحمامة

### ١

قلت قبل قليل إن ابن حزم لم يدع هذه التجربة النفسية تمر به فيعبر عنها كما يعبر باقى المحبين بل لقد جمع أطرافها ولم شملها فى كتاب هو ثانى اثنين فى بابه ذلك هو كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » . ومن الطريف أن يغلب جمال الحب وتشيع نضرته فى الكتاب كله فيكون لعنوانه من هذا الجمال نصيب . ففيه رقة ترتاح لها النفس ويتفتح لها القلب .

والحمامة ذلك الطائر الذى يفيض رقة ودماثة عنوان هذه العلاقة التى يعنى الكتاب بوصفها وتحليلها . وقد اشتهرت بين الشعراء بذلك فاتخذوها مثالا للأليف الوفى الذى يرعى عهد أليفه ولا ينفك يحن إليه وتخيلوا هتافها فى رونق الضحى حنينا إلى حبيب غائب لا يطيب العيش حتى يعود وطالما فزع إليها المحبون من الشعراء يتأسون بها فى الصبر على فراق الحبيب والاشتياق إليه ، ويلتمسون فيها العزاء والإسعاد ، ألا إن منهم القائل :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وأغلب الظن أن أبا محمد بن حزم قد استوحى هذه المعانى حين سمى كتابه بهذا الاسم الذى جاء ملائماً كل الملاءمة لموضوع الكتاب وموفقاً كل التوفيق فى الدلالة عليه .

* * *

ومن العجيب أن لم يذكر هذا الكتاب أحد ممن ترجموا لابن حزم غير المقرى فى نفح الطيب ولا تعرض أحد منهم لهذا الجانب من حياة ابن حزم

بخلاف ما كان من أمر كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود فقد أجمع مترجموه على ذكره والتحدث عن حبه . ولولا أن ابن حزم قد أفاض فى الحديث عن نفسه وعما لقى فى الحب لكنا من أمر حبه فى جهل .

وأول من كشف عن الطوق وأظهر الناس عليه المستشرق الهولندى رينهاردت دوزى حين كتب عنه فى فهرست مخطوطات ليدن[١] . ثم عاد فتحدث عن ابن حزم فى كتابه تاريخ المسلمين فى أسبانيا[٢] الحديث الذى أشرت إلى بعضه فى الفصل السابق وتكلم على حياته العاطفية وما جرى فيها من الحب ورسم لحبه صورة مجملة مستخلصاً ذلك من كتاب طوق الحمامة فى الألفة والألاف[٣] . وكان يرجى أن يأخذ دوزى نفسه بنشر الكتاب ولكنه لم يفعل . فجاء من بعده المستشرق الأسبانى فرنسيسكو بون بواج[٤] وعزم على نشر الكتاب فعاجله أجله دون ان يتم ذلك . ثم تبعه المستشرق الأسبانى ميجل آسين بالاثيوس فاطلع على الكتاب فى ليدن واقتبس منه فقرات[٥] .

وهكذا بقى هذا الكتاب مخطوطاً حتى قيض الله له المستشرق الروسى ر . ك . بيتروف أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورج فقام بنشره وأخرجه سنة ١٩١٤ م مطبوعاً فى مطبعة بريل بليدن وقدم له بمقدمة باللغة الفرنسية تكلم فيها عن الكتاب بما سبق أن نقلنا عنه وأردفها بالحديث عن ابن حزم وعن حبه وعن مكانه فى تاريخ الحياة الفكرية والأدبية ثم أجمل فى الخاتمة ما اشتمل عليه الكتاب ، وحاول أن يعرض تلخيصاً لأفكاره ينتفع به طلاب الاستشراق ممن لا تسهل عليهم قراءته بالعربية .

وهو يصف مخطوط ليدن فى أول المقدمة فيقول : إنه نسخة وحيدة موجودة فى مجموعة فارنر (Warner) وليست هى بخط المؤلف ولكنها بخط ناسخ أرخ فراغه من نسخها بعام ٧٣٨ هـ . ثم يوقفنا بتروف على أمر خطير فى تاريخ الكتاب فيذكر أن فى الصفحة ٢٧٦ من المخطوط المذكور إشارة قيمة لا يعرف الذى أشار بها ، تقول إن كاتباً مجهولا قد حاول أن يختصر الطوق بحذف بعض ما فيه

---

(١) D. K. Petrof : Collier de la Colombe : L'Introduction

(٢) Dozy : Histoir des Musulmans d'Espagne . . . . . .

(٣) » » » » » Tome III p 328

(٤) Francicso Pons Boigues

(٥) Nykl : The Dove's Neck Ring — Introduction

من الشعر ، ولهذا فالنسخة التى بين أيدينا الآن ليست هى النسخة الأصلية للكتاب كما خلفها المؤلف . وإلى هذا أشار الأستاذ سعيد الأفغانى فى مقال له فقال : « وكان من نعمة الله على المكتبة العربية أن يسلم لها مختصر الكتاب طوق الحمامة[١] » .

ويظهر من وصف المخطوط أن فيه غلطاً كثيراً جاء عن جهل الناسخ الذى يبدو أنه كان من الجهل بحيث لم يكن يفهم ما كان ينسخ[٢] . وإذا أضفنا إلى ذلك أن بيتروف ناشر الكتاب رجل « رومانيست » درس العربية بطريق الترجمة[٣] أدركنا مبعث هذه الأغلاط الشائعة فى النسختين المطبوعتين من الطوق .

وقد اقترح جولد تسيهر فى مقال له بمجلة (Z. D. M. G.) مجلة الجامعة الألمانية للمستشرقين تصحيحات عديدة فى النص المطبوع ، وكذلك فعل بروكلمان فى Literarlsches centralblett أما آسين بالاثيوس فقد كتب عن حياة ابن حزم ومذهبه ، وتعرض فى الجزء الأول من كتابه لدراسة طوق الحمامة دراسة مستفيضة ولكنه قبل النص كما نشره بيتروف ولم يشر إلى الألفاظ .

وقد كتب المستشرق الفرنسى وليم مارسيه مقالا فيه ملاحظات على النص الذى نشره بيتروف وضمنه تصحيحات عديدة[٤] .

وقد طبع طوق الحمامة طبعة أخرى فى دمشق ، طبعته مكتبة عرفة عام ١٣٤٩هـ عن النسخة التى نشرها بيتروف .

وترجم الطوق إلى الروسية م . ا . ساليه M. A. Sallier[٥] . وترجمه إلى الإنكليزية المستشرق التشيكوسلوفاكى ا . ر . نيكل من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو وصدره بمقدمة بحث فيها عن الكتاب ومؤلفه وعصره ، وعن الشعر على جانبى البيرانيس ، وهو الذى نشر من بعد ذلك كتاب الزهرة لمحمد بن داود الظاهرى .

---

(١) « ابن حزم الإمام المحب » مقال فى العدد ٦٧ من السنة الثانية لمجلة الثقافة .

(٢) هذه ملاحظة للمستشرق الهولاندى : وردت فى Snouck Hurgronje W. Marcois : Observations sur le Texte du Tawq, p 59 du :

(٣) نفس المرجع السابق : Memorial Henry Basset

(٤) ونشر ذلك فى مقال بعنوان : Observations sur le Texte du Tawq Al Hamama d'Ibn Hazm-' Memorial Henri Basset, p 95—88.

(٥) ملحق دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .

## ٢

كتب ابن حزم هذا الكتاب استجابة لصديق أرسل إليه يسأله أن يصنف له « رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه[٦] » وقد وردته رسالة هذا الصديق من المرية وكان هو يقيم فى شاطبة . وقد مر بنا أن ابن حزم ارتحل إلى المرية بعد أن خربت غارات البربر قرطبه وهدمت منازل أسرته فيها ثم أخرج من المرية منفيا على ما ذكرنا ، ثم وزر للمرتضى عبد الرحمن بن محمد وللمستظهر من بعده حتى دالت دولتهم فارتحل إلى شاطبة عام ثمانية عشر وأربعمائة ( ٤١٨ هـ ) حيث ورده كتاب هـذا الصديق وفيه رغبته التى أشرنا إليها آنفا . وبهذا العام أو حواليه يؤرخ ، فان أرندنك تأليف طوق الحمامة[١] . أما نيكل مترجم الكتاب إلى الانكليزية فيرى أن ابن حزم قد كتب كتابه عام ١٠٢٢ م أى حوالى عام اثنى عشر وأربعمائة للهجرة ، قبل أن يلى عبد الرحمن المستظهر بالله الخلافة مستدلا على ذلك بعدم ذكره فيه[٣] . ونحن ننشد ابن حزم فى هذا التاريخ وما يقرب منه ، فنجده رجع إلى قرطبة عام تسعة وأربعمائة فى خلافة القاسم بن حمود الذى يبدو أنه صفح عنه وأجاز له الإقامة فى مسقط رأسه . ولا نعرف أنه خرج منها إلا بعد مقتل صديقه وأميره الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله ، حيث سجنه المتغلبون على الأمر . ولا نعرف عنه بعد ذلك إلا أنه ارتحل إلى شاطبة أو كان فيها عام ثمانية عشر وأربعمائة ، حيث انصرف فيها إلى العلم والتعليم ( وقد مر تفصيل ذلك فى الكلام على حياته ) وبذلك يكون ، فان أرندنك أقرب إلى الصواب فى تأريخه تأليف الكتاب بسنة ٤١٨ هـ .

وما أظن ذكر المستظهر فى الكتاب أو السكوت عنه يقدم فى الأمر أو يؤخر إذا ظهر لنا أن الكتاب ألف فى شاطبة وأن ابن حزم لم يكن فيها قبل سنة ٤١٨ . بل لعله لم يذكر المستظهر تجنبا لإثارة ما فى نفس الحكام من الحقد عليه لأنه كان وزيره وصفيه . وعهد هؤلاء به غير بعيد .

وهناك أمر آخر يجعله نيكل حجة يلوذ بها فى تأريخه لتأليف الكتاب ، ذلك أنه يرى أن ابن حزم لابد قد ألف كتابه قبل سن الثلاثين حيث لم تنكسر فى

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .
(٣) مقدمة ترجمته لطوق الحمامة .

نفسه سورة الشباب ولم تخمد شوكته، وحيث كان لا يزال يأمل فى عودة الأمويين إلى الحكم أو عودة الحكم إليهم . وهو يرجح أن يكون ابن حزم قد كتبه وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وإذن فتاريخ تأليفه الكتاب يكون عام عشرة وأربعمائة ، حيث أن ابن حزم ولد كما كتب بخط يده إلى القاضى صاعد عام أربعة وثمانين وثلاثمائة . وقد كان فى هذا العام الذى يذكره نيكل مقيما فى قرطبة على الأرجح ، فقد ذكر أنه ارتحل إليها عام تسعة وأربعمائة إبان حكم القاسم بن حمود المأمون[١] .

## ٣

وقد أشرت إلى أن ابن حزم إنما ألف طوق الحمامة إجابة لرغبة صديق كتب إليه يسأله أن يصف له رسالة فى الحب ، ويبدو أن هذا الصديق كان عزيزاً عليه ، أثيراً لديه ، فعزم على الامتثال له ، والإجابة إلى ما دعاه إليه . وهو يخبرنا بذلك فى أول الرسالة فيبدؤها مخاطباً صديقه :

« وبعد ، عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا ما لا طاقة لنا به ، وقيض لنا من جميل عونه ، دليلا هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه ، أدباً صارفا عن معاصيه ، ولا وكلنا إلى ضعف أهوائنا . فإن كتابك وردنى من مدينة المرية ، إلى مسكنى بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك مايسرنى ، وحمدت الله عزوجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك . .[٢] » . إلى أن يقول : « وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه ، وأسبابه وأغراضه ، وما يقع فيه ، ولو على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفننا ، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره فبادرت إلى مرغوبك . ولولا الإيجاب لك ، لما تكلفته[٣] » .

وهذا يدلنا على أن القوم فى الأندلس ، كانوا ينظرون إلى الحب على أنه جانب قيم من جوانب الحياة ، إلى الحد الذى يكلف مثل ابن حزم بالكتابة فيه . وذلك يتضح بجلاء لمن يقرأ أخبار كبريائهم وأمرائهم وفقائهم فى الحب . وقد أتى ابن حزم على طائفة منها فى كتابه .

---

(١) طوق الحمامة فى الألفة والألاف ص : ١١ .
(٢) « « « « « « : ١ .
(٣) « « « « « « : ٢ .

وهكذا يبدو لنا أن الدافع الذى حدا بابن حزم إلى تأليف كتابه ، هو الإيجاب لصديقه الذى سأله ذلك . ولكن الأستاذ الدكتور طه حسين يرى أن ذلك أيسر الجواب على هذه المسألة ، ويقول : « إن هناك جوابا آخر ، قد يكون أجل من هذا خطراً ، وأبعد منه أثرا ، فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال[١] لم يقصد بهما إلى الحب فى نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه فى البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب ، وكيف يصورونه ، وكيف يصفونه فى الشعر وفى النثر[٢] » .

ولست أظن أن من حق الناقد ، أن يقرر غاية الكاتب من وضع كتابه ، على حين يخالف تقديره ما صرح به الكاتب ، وما قرر أنه فعل ذلك من أجله .

ويبقى هنالك احتمال آخر ، يعسر تصوره فى هذه الحال بصفة خاصة ، وذلك أن الكاتب قد صرح بما دفعه لتأليف الكتاب ، وهو يخفى فى نفسه الدافع الحقيقى الذى دعاه إلى ذلك .

ودليل الدكتور طه حسين على ما نذهب إليه ، أن ابن حزم قد بث فى كل فصل من فصول الكتاب نماذج شعرية ، ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره : « وأكبر الظن أنه صنع كثيرا من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب » .

وهذا شىء لا يطرد فى الكتاب ، ولا يسلم دليلا على ما ذهب إليه الدكتور إذن أن بعض الأبواب ، قد خلا من النماذج الشعرية خلوا تاما . مثال ذلك باب الإشارة بالعين[٣] « وباب المساعد من الإخوان »[٤] ، وقد أورد فى الكتاب أبياتا لابن عمه أبى المغيرة مطلعها :

اجزعت أن أزف الرحيل وولهت أن نص الذميل[٥]

على أن النماذج الشعرية التى شحن بها أبواب الكتاب ، ليست من الطراز الشعرى الذى يحتذى فى تصوير الحب ، وفى تصويره والتعبير عنه . فهى فى الغالب شعر فقيه متكلم ، ليس له من الطبع الشعرى حظ كبير ، وهى بعد ذلك

---

(١) فى الحب De L'Amour وقد أشرت إليه فى الكتاب الأول من هذه الرسالة .
(٢) مقال « فى الحب » فى العدد الخامس من المجلد الثانى من مجلة الكاتب المصرى .
(٣) طوق الحمامة ص : ٢٩ — ٣٠ .
(٤) « « « : ٤٤ — ٤٧ .
(٥) « « « : ٩٠ .

سقيمة الأسلوب فى الغالب ، تشيع فيها تعابير الفقهاء والعوام ، التى لا تليق بالشعر ولا يستسيغها متذوقه . وصفوة القول فيها ، أن أغلبها شعر مصنوع ، قد يكون صنعه خاصة لهذا الكتاب ، يشيع فيه التكلف ويشبه من بعض وجوهه الشعر التعليمى إلى حد كبير ، وسأمثل لذلك بعد قليل .

على أن الذى دعاه إلى الاقتصار على شعره فى الاستشهاد به ، هو ما سبق أن لاحظت — فى الكلام على حياته — من اعتداده بنفسه ، ومبالغته فى الإعجاب بمواهبه .

ورأى الدكتور طه ، فى الغاية التى هدف إليها ابن حزم ، من تأليف كتابه يغض من الكتاب ، ويضع من شأنه ، إذ أنه لم يبلغ مما رمى إليه ، أو مما يظن الدكتور أنه رمى إليه — شيئا ذا قيمة ، فى حين أنه درس الحب ، دراسة لها قيمتها ولها شأنها .

## ٤

وطوق الحمامة رسالة فى الحب ، ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، وما يقع فيه ، وقد احتاط ابن حزم ، لما يمكن أن يتعرض له ، من بعض المتزمتين من الفقهاء ، فيعيبوا عليه إنفاقه الوقت والجهد فى مثل هذا العمل ، فبرر صنيعه هذا ، بقول يرويه بسنده عن أبى الدرداء ، أنه قال : « أجموا النفوس بشىء من الباطل ، ليكون عونا لها على الحق » وبالقول المأثور : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد »(١) .

وقد قسم الرسالة ثلاثين بابا ، عشرة منها فى أصول الحب وهى : ماهية الحب وذكر من أحب فى النوم ، وذكر من أحب بالوصف ، وذكر من أحب من نظرة واحدة ، وذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، وباب التعريض بالقول وباب الإشارة بالعين ، وباب المراسلة ، وباب السفير . واثنا عشر بابا فى أعراض الحب وصفاته هى : باب الصديق المساعد ، وباب الوصل ، وباب طى السر ، وباب الكشف والإذاعة ، وباب الطاعة ، وباب المخالفة ، وباب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، وباب القنوع ، وباب الوفاء ، وباب الغدر ، وباب الضنى ، وباب الموت . وستة أبواب فى آفات الحب وهى : باب العاذل ، وباب

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢ .

الرقيب ، وباب الواشى ، وباب الهجر ، وباب البين ، وباب السلو .

ثم اختتمها ببابين ليسا من موضوع ما جرى فيه ، ولكنهما مواعظ دينية ونصائح خلقية للمحبين ، شرح لهم فيهما فضل التعفف ، وقبح المعصية .

وهكذا نرى أنه وضع لرسالته خطة منسقة ، واتبع فيها طريقا منطقيا ، فبدأ بالكلام على ماهية الحب وعلاماته ، ثم عن مبدئه ومنشئه ، وأردف ذلك بالحديث عن توسل المحب بشتى السبل للوصول إلى المحبوب ثم تكلم على ما يلابس الحب من طى للسر ، أو إذاعته ، وما يدخل عليه من آفات ، كالواشى والرقيب والعاذل ، واختتمه بما يختتم به الحب ، من الهجر أو البين ، أو السلو أو الموت .

وقد أضرب ابن حزم عن أن يسوق شيئاً من أخبار من غير من العشاق وأن يستشهد بشىء من أشعارهم . وهو يقول لصاحبه الذى رغب إليه أن يكتب فى الحب : « ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار[1] » .

فكتابه سجل لما شاهد أو سمع من الثقات فى عصره وفى الحقيقة التى عاش فيها بصفة خاصة . بل فى بيئته الأندلسية فحسب إذ لم يأت فى كتابه على ذكر المشارقة ولم يخرج بكتابه من الأندلس إلا مرتين مرة إلى المغرب الأقصى وأخرى إلى بغداد حيث يروى خبر عالم أندلسى فتن بجارية رآها فى أحد أزقة بغداد فمات هياما بها .

فالكتاب إذن فى الحب عند أهل الأندلس ومسحة الإقليمية بارزة فيه أى بروز . وهذه المسحة الإقليمية بعض ما فى آثار ابن حزم من تعصبه للأندلس ولأهلها ولحيانهم الاجتماعية والأدبية[2] وهذا التعصب كان — فيما يبدو — رداً على شعور الأندلسيين بالنقص فى الناحية العلمية والأدبية واعتبارهم أنفسهم عمالا على المشارقة فى كل شىء وإعجابهم بالمشرق وعلمائه وكتبه إعجابا بلغ بهم أن يغمطوا نوابغهم ولا يسووا بينهم وبين المشارقة فى الاعتبار . ولابن حزم فى الشكوى من هذه الحال شعر كثير .

ولعل ابن حزم كان يرى فى هذا التعصب للأندلس إرضاء لغروره وردا

---

(١) طوق الحمامة ص ٣ .

(٢) ولابن حزم رسالة في فضائل أهل الأندلس رواها المقرى فى نفح الطيب .

لاعتباره الذى كان يرى شعور الأندلسيين بالنقص مسقطا له ومزريا به ونائيا به عن المنزلة التى كان يرتضيها لنفسه .

وقد يكون إعراضه عن إيراد أخبار المتقدمين عائداً إلى الشك فيما كان يتداول عنهم من الأخبار وهو إذن يتقيد بمنهج علمى صحيح ويستحق على ذلك الثناء وقد يكون أراد أن يكون كتابه جديدا فى طريقته وفى مادته فيستمدها من نفسه ومن بيئته ويبدع فى التأليف أسلوبا لم يشع بين المؤلفين من قبل .

على أنه لم يكن أول من تعصب للأندلس فى تأليفه فقد سبقه إلى ذلك أبو عمر أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق الذى ألفه على غرار كتاب الزهرة ولم يورد فيه لغير الأندلسيين شيئا[١] .

وفى النفس أشياء من قوله : « وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار » وهى قد تفسر إعراضه عن إيراد أخبار المتقدمين ورواية أشعار غيره وفيها من الإعجاب بنفسه والإدلال بمواهبه ما لا يليق بطالب المعرفة والمتمرس بخدمة العلم . ولو شاء دارس كتابه أن يثبت كذب دعواه لاستطاع فهو على أية حال قد قرأ كتاب الزهرة لمحمد بن داود وأفاد منه بل وأجرؤ أن أقول إنه نقل عنه بالنص . مثال ذلك كلامه على ماهية الحب وعلى الهجر وتقسيمه إياه أربعة أضرب كما فعل ابن داود ونقل عنه عبارات بأكملها . مثل قوله فى هجر الدلال إنه ألذ من كثير الوصال[٢] .

وصفوة القول أن طوق الحمامة رسالة فى الحب تستمد معينها من حياة المؤلف العاطفية وما جرى له فى حبه من أحداث وما تقلب فيه من أحوال ومن الحياة العاطفية لمعاصريه من وجوه الدولة والعلماء وطلاب العلم فقد كان له من اطلاعه على خفايا الأمور فى الأسر الكبيرة عونا على تأليف الكتاب ومادة بنى منها هيكله وأقام منها بناءه .

ولولا أنه يعالج فى الكتاب عاطفة إنسانية عامة تكاد أصولها تتحد فى نفوس المحبين مهما اختلفت بيئاتهم وتباعدت أزمانهم لغلب عليها اللون الإقليمى وهو قد غلب إلى حد ما وأظهرنا على طراز خاص يكاد يتميز عن غيره من أطرزة الحب . حيث يفسح له الخلفاء والوزراء والفقهاء مكانا فى نفوسهم

---

(١) رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس وترجمة أبى عمر المذكور فى معجم الأدباء .

(٢) يراجع على سبيل المثال باب الهجر فى طوق الحمامة .

فلا يخشون من ذلك ملاما ولا يجدون فيه معابا ومن ثم يصبح ضرورة اجتماعية إلى حد ما مبرأة مما فى حب المشارقة من الإيغال والإغراق والبلوغ فيها مبلغ التتيم والوله هو حب مترف يناسب الحياة المترفة التى كان يحياها أهل الأندلس فى بلد كانت تجبى إليه ثمرات كل شىء وتفيض جوانبه بحسان الغال والقوط .

أما ما فى الكتاب من الشعر فقد حرص ابن حزم — كما قدمت — على أن لا يورد فيه لغيره شيئا[١] فأفسد بذلك كتابه وأساء إليه . وهو يتكلف فى شعره تكلفا يصل به أحيانا إلى السماجة فينظم معانى الأبواب فى أبيات ثقيلة على النفس لا يكاد يسيغها الذوق . فمن ذلك قوله :

منهم فتى كان فى محبوبه وقص ... كأنما الغيد فى عينيه جنان[٢]
وكان منبسطا فى فضل خبرته ... بحجة حقها فى القول تبيان
إن الها وبها الأمثال سائرة ... لا ينكر الحسن فيها الدهر إنسان
وقص فليس بها عنقاء واحدة ... وهل تزان بطول الجيد بعران
وآخر كان فى محبوبه فوه ... يقول حسبى فى الأفواه غزلان
وآخر كان فى محبوبه قصر ... يقول إن ذوات الطول غيلان[٣]

وهكذا نرى أن شعره هذا أشبه بالشعر التعليمى يحاول أن ينظم به معانى الباب الذى كان يتكلم فيه وهو باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها . وليست هذه الغثاثة بقاصرة على هذا الطراز من شعره ولكنها تشيع فى أغلبه حتى الذى يخاطب به الحبيب . ها هو ذا يقول :

وإنى وإن تعتب لأهون هالك ... كذائب نقر زل من يد جهذ
على أن قتلى فى هواك لذاذة ... فيا عجبا من هالك متلذذ[٤]

ويقول فى التذلل للحبيب :

ليس التذلل فى الهوى يستنكر ... فالحب فيه يخضع المستكبر
لا تعجبوا من ذلتى فى حالة ... قد ذل فيها قبلى المستبصر
ليس الحبيس مماثلا ومكافئا ... فيكون صبرك ذلة إذ تصبر
تفاحة وقعت فآلم وقعها ... هل قطعها منك انتصارا[٥] يذكر

---

(١) خرج على ذلك مرة واحدة كما أسلفت فروى أبياتا لابن عمه أبى المغيرة ص ٩٠ .
(٢) لم أفهم لها معنى .
(٣،٤) طوق الحمامة ص ٢٦ — ٢٧ .
(٥) طوق الحمامة ص ٣٩ .

ولا يظن أنى أختار من شعره أردأه فشعره فى الغالب سواء فى الخلو من العاطفة وفى هزال المعانى وبرودة التشابيه وركاكة الأسلوب والتكلف شائع فى ثناياه . وقد أفسد بإيراده الكتاب وقطع على القارىء لذة التمتع بأسلوبه الأنيق الجميل فى النثر حتى لا يكاد يصدق أن هذا الشعر لصاحب هذا النثر لولا أنه يفاخر بنسبته إليه ويعتز به فيقول فى معرض استشهاده به : « وفى ذلك أقول وأنا أقول » إلى غير ذلك .

ومن عجب أن يبلغ التفاوت بين شعر ابن حزم وبين نثره هذا المبلغ وأعجب منه أن يعجب هو بشعره هذا ويفخر بنسبته إليه ولا يتستر عليه ولعل ذلك عائد إلى أن ابن حزم كان يعجب بنفسه إلى حد الإفراط ويبالغ فى الاعتداد بعلمه وأدبه . وهذا الإعجاب قد يبلغ بالمرء إلى أن يغض طرفه عن عيوبه ولا يكتفى منه بذلك بل يريه مساوئه محاسن وهذره كلاما منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وأغلب الظن أن ابن حزم قد حدثته نفسه يقول الشعر ليستكمل لنفسه صفات الأديب العالم المحيط بكل شىء والقادر فى كل فن فأراد أن يقول الشعر فقال ولم يسعفه الطبع ولم تواته السليقة فكان من أمره ما نواه وما تعيبه عليه .

# الفصل الثالث

## آراؤه فى الحب

وقبل أن أفيض فى شرح آراء ابن حزم فى الحب أود أن أشير إلى النبع الذى كان يغرف منه والمعين الذى كان يصدر عنه فى هذه الآراء . فهو كما سبق أن لاحظنا عليه ونقلنا عنه قد أعرض عن رواية أخبار المتقدمين وأضرب عن ذكر أشعارهم فلم يفد فى ظاهر الأمر منها وزعم أنه انتصر على ما رأى أو صح عنده بنقل الثقات[1] .

على أنه قد سجل على نفسه فى أول الكتاب أنه اطلع على كتاب الزهرة لمحمد بن داود حيث قال فى صدد الكلام على ماهية الحب : « لا على ماحكاه محمد ابن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة[2] . . . الخ » .

وهذا يضيف إلى مصدره الذى زعم أنه لم يصدر عن سواه مصدرا آخر ودارس الكتاب لا يملك إلا أن يحكم أن ابن حزم قد أفاد من ابن داود إلى حد بعيد وسيأتى بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله .

فمصادره التى استقى منها آراءه فى الحب إذن ثلاثة . خبرته الشخصية بالحب وما جرى له فيه وكتاب الزهرة لمحمد بن داود وما كان يجرى فى عصره من حوادث الحب التى كان يطلع عليها عن طريق الأصحاب وعن طريق النساء اللواتى كان اتصاله بهن وثيقا .

### ١

وأصل الحب عند ابن حزم أنه « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع . . . على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها[3] » أى أن الحب فى رأيه إنما يكون بين النفوس التى كانت من أصل واحد فى عالمها العلوى وعلى هيئة متقاربة متجاورة فى تركيبها .

---

(١) طوق الحمامة ص : ٣ .

(٢) » » » : ٥ .

(٣) » » » : ٥ .

وهو لا يقبل ما نقله محمد بن داود عن بعض المتفلسفين من « أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع منه النصف الذى كان معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة[١] » .

ومهما يكن من أمر هذه الخرافة الافلاطونية التى رددها كلاهما ترديدا ممسوخا بعض المسخ فإن كلام ابن حزم يدل على قصر باعه فى الفلسفة وقلة ذات يده فيها فهو يخلط بين النفس والروح خلطا فيزعم أن للنفوس عالما علويا وعنصراً رفيعا وذلك لا يكون إلا للروح إذ النفس هى مجموعة القوى التى تصدر عن التركيب الإنسانى من عقل وإحساس وانفعال . أما الروح فهى التى تستمد منها النفس قوتها . وقد قسم ابن سينا النفس إلى أقسام منها النفس الناطقة والنفس الشهوانية والنفس الحيوانية[٢] وتحت كل من هذه الأقسام تتدرج القوى التى ذكرناها . والنفس فى العلم الحديث موضوع بحث السيكولوجيا العلم الذى يدرس مظاهر التفكير والإحساس والانفعال فى الإنسان .

وابن حزم يشير فى خلال كلامه على ماهية الحب إلى أن الحب وهو فى رأيه اتصال بين النفوس لابد أن يكون بعيداً عن الغرض مبرأ من الغاية لأن الاتصال هو الذى يوجبه ويفرضه على المتحابين[٣] . وهو بذلك يقول بما قال به الإمام الغزالى من بعده وبويس جبسون من أن الحب سرور بالمحبوب لذاته لا لأنه يضمن رغبة أو يقضى شهوة .

ثم يعرج على مسألة قديمة لم يتكلم فى الحب أحد من علماء المسلمين إلا أشار إليها وأفاض فيها تلك هى مسألة المشاكلة والمجانسه والمطابقة فقد تعرض لها أغلب من تحدثوا عن الحب فى مجلس يحيى بن خالد بن برمك ثم تكلم فيها أبو بكر محمد ابن داود فى كتاب الزهرة وتحدث عن إخوان الصفا فى رسائلهم . وها نحن أولاء نرى أن هذه المسألة لا تزال قدرا مشتركا فى كلام أهل الاسلام فى الحب على أن ابن حزم يفسرها بالاتصال ويجعله جوهرها وعنصرها الأصيل وأصلها الأول فيقول : « والشكل دأبا يستدعى شكله والمثل إلى مثله ساكن وللمجانسة

---

(١) كتاب الزهرة ص ١٥ .

(٢) رسالة العشق وقد مر الكلام عليها فى الفصل الأول من الكتاب الأول .

(٣) طوق الحمامة ص ٦ .

عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر فى الأضداد والموافقة فى الأنداد والنزوع[١] فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافى الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ومنحها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق . . . الخ[٢] » .

وهو يدلل على ماذهب إليه فى شأن الموافقة والمجانسة فيقول : « ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لاتجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق (فى) الصفات الطبيعية لا بد من هـذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عياناوقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[٣] » .

وقد تتغير النفس فى هذا العالم الأدنى وتحيط بها الطبائع الأرضية فتحجب كثيراً من صفائها[٣] فتنفر بمن يسكن إليها ولا تحس بالجزء الذى كان متصلا بها من قبل فى عالم النفوس[٤] .

وهـذا الاتصال بين النفوس وبالتالى الموافقة والمشاكلة بين الطبائع هى التى تصل بين النفوس بعلاقة الحب وتجمع عليها المتحابين ، فإذا وجدت النفس شكلها وظفرت بمثلها لم تبال بصورته ولم تهتم بعرضه فأما ما يشاهد من ميل الإنسان إلى الجميل وتعلقه به فى أغلب الأحيان فتفسيره عند ابن حزم أن النفس تولع بالحسن فهى إذا رأته وميزته فى إنسان تعلقت به وتثبتت لعلها تجد فيه المجانسة والمشاكلة فتحبه وإلا لم يتجاوز تعلقها به الصورة وذلك فى رأيه هو الشهوة . يقول : « وأما العلة التى توقع الحب أبدا فى اكثر الأمر على الصـورة الحسنة الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز أحبابها الصورة وذلك هو الشهوة[٥] » .

وتفسيره الإعجاب بالجمال بأنه هو الشهوة إسفاف منه وإمعان فى المادية لا يقبل منه بحال . ومن عجب أنه لم يلحظ أن فى المحبين من أحب الجميل من غير

---

(١) فى الاصل « النزاع » وبما صححناه يستقيم المعنى .
(٢) طوق الحمامة ص ٦ .
(٣) « « « ٨ .
(٤) « « « ٢٣ .
(٥) « « « ٧ .

أن ينال منه الإسعاد أو المواصلة فثبت على الحب ودام عليه . إلا أن الإعجاب بالجمال أكسير هذه الحياة به يتعاطف الإنسان مع الإنسان بل مع غيره من مظاهر الكون الجمال معناه الواسع الذى لا يحد بالصورة والعرض .

وما دام الحب اتصالا بين النفوس فهو لا يتصل بالجسد ولا يحفل بلذته ، « وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدى واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان فهذا[١] سر الشهوة ومعناها على الحقيقة[٢] » . فهو إذن يميز بين الحب والشهوة كما فعل ذلك من بعده هافيلوك اليس .

والحب يكون « إذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس[٣] » .

فالحب إذن شىء آخر غير الشهوة وغير الاستحسان والإعجاب وهو أعمق من ذلك وأبعد فى النفس غورا . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه الحب العذرى .

على أن ابن حزم قد نظر إليه من جانب واحد فقط فقال : إنه يبدأ شهوة واستحسانا ثم تنفصل الشهوة وتزول أو تصبح شيئاً ثانويا ، وهذا أيضاً رأى بعض علماء النفس المعاصرين .

ولكن من الحب العذرى ما يبدأ من قبل أن تظهر الشهوة ، يبدأ ألفة بين حبيبين يستلطف أحدهما الآخر ويسكن إليه ويرتاح لصحبته ثم تستيقظ فى النفس غريزة الجنس فيحس كل منهما بها إحساسا مبهما يربطه بأليفه ويجذبه إليه أكثر من ذى قبل وهكذا حتى تكتمل فيهما عاطفة الحب . وهذا شأن أكثر العشاق العرب الذين اشتهروا فى تاريخ الأدب بالعشاق العذريين[٤] .

ثم يلتفت ابن حزم إلى مقوم آخر من مقومات الحب العذرى هو التوحيد فيه والانصراف إلى شخص بعينه وأنه لا يمكن أن يحب المرء اثنين حبا حقيقيا فيقول : « ومن هذا ( من الخلط بين الحب والشهوة ) دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفا وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق[٥] » .

---

(١) فى الأصل « هذا » وبما صححناه تستقيم العبارة .

(٢) طوق الحمامة ص ٢٣ .

(٣) طوق الحمامة ص ٢٣

(٤) مر الكلام فى ذلك فى الباب الثانى من الكتاب الأول من هذه الرسالة .

(٥) طوق الحمامة ص ٢٣ .

## ٢

أما الوقوع فى الحب فقد استقصى ابن حزم الأسباب التى تؤدى اليه وشاء أن يكون دقيقا فيبدأ بالسهل والأهون وذلك أن يحب الإنسان فى النوم وقد شاهد ذلك فى صاحبه أبى السرى عمار بن زياد مولى المؤيد حين دخل عليه فرآه مفكراً مهتما فسأله عما به « فتمنع ساعة ثم قال : لى أعجوبة ما سمعت قط قلت : وما ذاك قال : رأيت فى نومى الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبى فيها وهمت بها وإنى لفى أصعب حال من حبها . ولقد بقى أياما كثيرة تزيد على الشهر مغموما مهموما لا يهنئه شىء وجدا . . . الخ[١] » .

ولا شك أن هذا أمر غريب إذا صح وهو على أية حال نزوة شذوذ يبعثها الحرمان والكبت .

وقد يقع الحب بالوصف فيعلق الإنسان شخصا لم يره ولم يعاينه وقد تقوى هذه العلاقة بالمراسلة والمكاتبة ثم تشتد فتظهر فيها آثار الحب من الهم والوجد والسهر وابن حزم يفسر ذلك بتأثير وصف المحاسن فى النفس وتخيلها للموصوف فتألفه وتتعلق به ثم تحبه على أنه فى نظره بنيان قائم على غير أساس فهو لا يلبث أن يكشف أمره بالمعاينة فتؤكده أو تنفيه وتذهب به ذلك أن الصورة المتخيلة إما أن تكون أكبر من حقيقة المتصور فإذا عاينها من وقع فى حبها بالتصور وخبرها فتر وصدمته خيبة الأمل وإما أن تكون أقل فإذا عاينها ازداد لها حبا وبها تعلقا والحال الأولى أكثر وقوعاً وأدنى إلى طبيعة الخيال . وابن حزم يلاحظ أن هذا يقع أكثر ما يقع « فى ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال[٢] » .

وأقوم ما فى هذا الذى سقناه من كلام ابن حزم أنه يعرض لنا نموذجا جديداً وطريقة مبتكرة من طرق البحث فى الحب بل وفى العلائق الاجتماعية فهو دراسة للظواهر فيها شىء من الدقة والاستقراء تعتمد على الملاحظة والمشاهدة وفيها كذلك شىء من الموضوعية « objectivity » .

ولعل ابن حزم من أقدم من وضع حجر الأساس لهذه الطريقة الجديدة

---

(١) طوق الحمامة ص : ١٧ .

(٢) « « « : ١٨ .

التى يمتاز بها العلم الحديث فى مختلف فروعه من طبيعة وسيكولوجيا واجتماع وغير ذلك . على أن فيها مع ذلك سذاجة الابتداء وبساطته .

* * *

وكثيراً ما يقع الحب من نظرة واحدة وابن حزم يقسم أن هذا النوع من الحب قسمين فيبدأ على عادته بالأغرب النادر الوقوع الذى يخالف الحب بالوصف حين يعرف المحب صفات محبوبه ويسمع عن محاسنه ويتخيل فيخال من غير أن يبصر ويعاين . وهو هنا يحب بالنظر فلا يعرف عن الصفات والمحاسن شيئا . وابن حزم يقول فيه : « هو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هى ولا يدرى لها اسماً ولا مستقرا[١] » وهو يستشهد على ذلك بما حدث للشاعر الرمادى الذى فتن بجارية لم يعرفها ولم يعرف منزلها ولكنه راها لأول مرة فهام بها وظل كذلك يتسقط أخبارها ويتعرض للموضع الذى رآها فيه فلم يحل بطائل وبقى يتغزل بها وقتاً طويلا ويكن لها المحبة فى قلبه[٢] » .

والقسم الآخر أن يعشق المرء من يعرفها ويعرف اسمها ومكانها[٣] .

وهو يقر بأن هذا النوع من الحب خليق بأن لا يدوم فهو كما ابتدأ سريعا لابد له أن ينتهى سريعاً كذلك « فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفادا[٤] » .

ولأبى بكر محمد بن داود كلمة جميلة فى هذا المعنى يقول فى خاتمتها : « أخلق بمن يسقيه أول داء أن يشفيه أول دواء » .

ثم يعود ابن حزم فيعقد بابا لمن لا يحب إلا مع المطاولة وهو يقرر أن الحب لا يقع وقوعاً حقيقيا إلا بطويل المشاهدة وكثير المخافتة ومتمادى الأنس . وهذا الحب خليق بأن يبقى وأن يدوم . وهو يعجب ممن يدعى أنه وقع فى الحب من أول النظر ولا يكاد يصدقه بل إنه ينفى أن يكون ما يدعيه حبا متمكنا من النفس راسخا فى القلب ويرى أن ذلك شهوة عابرة لا تبقى ولا تستقر .

وهو يعزز ذلك بحديثه عن نفسه وكيف يقع فيها الحب ويتمكن منها .

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٠ .
(٢) « « « : ٢٠ — ٢١ .
(٣) « « « : ٢١ .
(٤) « « « : ٢١ .

حديثا فيه صدق وفيه إخلاص يتبينهما القارىء من أثر الكلام فى نفسه يقول : « وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهرا وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والشوق فما نسيت وداً لى قط وإن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء[1] » .

ولقد مر بنا حديث ابن داود فى هذا الشأن وتبين لنا أنه وضع للحب مراتب ومراحل إذا قطعها المحب واحدة بعد واحدة كان خليقا بأن يقيم على الحب وإلا كان انحطاطه قريبا كما كان ارتقاؤه فيها سريعا وظن أن الحب لا يتقيد بذلك ولا يلتزمه وابن حزم كان أقرب إلى الواقع فى اقتصاره على طويل الملازمة ومديد المخافتة ومتمادى الأنس .

ومما يلاحظ أن ابن حزم حين يستقرىء ظواهر الحب فيمن حوله من الناس يخرج حديثه سطحيا لا عمق فيه ولا نفاذ ، بل قليلا مايسلم من الشطط والتهافت حتى إذا استبطن نفسه واستشف قلبه واستخبره وجد عنده الخبر اليقين . وها هو ذا حديثه عمن أحب فى النوم ومن أحب بالوصف ومن أحب من نظرة واحدة حديث لا يعدو الظواهر ولا ينفذ منها إلى ما بعدها ويخيل إلى أن الكلام فى العواطف والمشاعر — عواطف الآخرين ومشاعرهم — لايمكن أن يذعن للموضوعية إلى حد بعيد والشخصية أو الذاتية « sudjectivity » التى تشاهد الخلجات وتراقب الخطرات لا بد منها لمعرفة القدر المشترك بين أبناء الجنس . ومن هنا ندرك إخفاق المذهب السلوكى فى علم النفس وقلة احتفال العلماء به ذلك لأنه يقتصر فى بحثه على الملاحظة والمشاهدة والتجربة الموضوعية على دراسة النفس الإنسانية . وقديما قيل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

## ٣

وهذا الحب الذى لا ينشأ إلا بالمطاولة وكثير المخافتة يرقى المحب فيه مراتب ويقطع الطريق فيه مراحل كل تسلم إلى ما يليها .

فأول مراتب الحب عند ابن حزم الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه ويؤخذ بها أو أن يستحسن أخلاقه وصفاته .

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٢ .

وثانى المراتب الإعجاب ، وهو رغبة المستحسن فيمن استحسنه ، وفى قربه وهو الذى سماه أبو بكر بن داود بالمودة . حتى إذا تهيأ له ذلك وتزود منه ارتقى إلى المرتبة الثالثة وهى الألفة وهى « الوحشة إليه إذا غاب » .

ثم تزداد الألفة وتقوى أواصرها فيشغل المألوف بال أليفه ويستحوذ على تفكيره ويتمكن من خواطره ، فتستحيل الألفة كلفا ، وهو المرتبة الرابعة . حتى إذا زاد انشغال البال وتحكمت الهواجس والوساوس وتبلبلت الخواطر أصاب الكلف منها « امتناعه عن النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك » وهذا هو الشغف وهو المرتبة الخامسة ، آخر مراتب الحب ، وليس وراءه فى الحب منزلة بل لقد يؤدى إلى المرض والتوسوس أو الموت[١] .

ولعل من المفيد أن نرجع البصر إلى محمد بن داود وكلامه فى مراتب الحب فقد جعلها ثمان الاستحسان ثم المودة ثم المحبة ثم الخلة ثم الهوى ثم العشق ثم التتيم ثم الوله ، وهو قد أفرط فيها فأدخل أحوالا تطرأ على الحب أو صفات تغلب عليه فى بعض الأحوال .

وأحسب أن ابن حزم كان أكثر منه توفيقا فى بيان مراتب الحب ومراحله.

## ٤

ولا يلبث الحب أن يسم المحب بميسمه ويطبعه بطابعه فتبدو فيه أعراضه وتلوح عليه أماراته وعلاماته ، وللحب علامات وأعراض لا يملك المحب إخفاءها ولا يمكن أن يتحفظ منها ويتستر عليها . وقد عقد لها ابن حزم بابا يقول فى أوله : « وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدى إليها الذكى » ثم أخذ يعددها ويشرحها ويستشهد عليها بما شهد فى نفسه وفيمن حوله من المحبين .

فأول علامات الحب إدمان النظر إلى الحبيب ، فالمحب لا يزال يتتبع حبيبه بنظره ولا يلتفت إلى شىء سواه . ومنها إقبال المحب بحديثه على المحبوب والالتفات إليه والإنصات لحديثه إذا حدث كأن الحديث إليه وحده يوجه[٢] . ومن علامات الحب ما يبدو على المحب من البهت والروعة عند رؤية محبوبة فجأة . وإذا خطر أمامه شبيه بحبيبه أو خطر اسمه بسمعه اضطرب وفقد اتزانه[٣] .

---

(١) ابن حزم — رسالة فى الأخلاق والسير ص ٥٨ .

(٢) طوق الحمامة ص ١٠ — ١١ .

(٣) « « « ١١ .

ومن علامات الحب أن يجود فيه البخيل وتنبسط فيه اليد المغلولة إلى العنق ، وينطلق فيه القطوب ويتشجع الجبان ويتأدب الجاهل ويتفتك الناسك ويتفقى المسن ... الخ[١] . كل ذلك إرضاء للمحبوب وابتغاء للزلفى عنده . وقديما قال كثير :

ويرتاح للمعروف فى طلب العلا لتحسن يوما عند ليلى شمائله

ثم يفيض ابن حزم فى استقراء ما شاهده فى نفسه ، وفى غيره من علامات الحب استقراء دقيقا وتقصيا للجزئيات عجيبا ، فيذكر من علامات الحب وشواهده الظاهرة : « الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى والميل بالاتكاء ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما ابقى المحبوب .الخ[٢] إلى غير ذلك مما نسميه بلغة العصر مداعبات المحبين ، حتى لكأنه ينظر إلى مجلس عاشقين ، ويحصى عليهما الحركات والسكنات والنظرات والخطرات .

وقد يحدث بين المحبين — إذا تكافآ فى المودة وتأكدت بينهما — الغضب لليسير من الأمور وتأويل الكلام بغير مايدل عليه . وهذا كما نرى مخالف لما مر من الإقبال بالحديث والإنصات إليه ، وتصديق المحبوب فى كل ما يقول ، وابن حزم يفسر ذلك بأن : «الأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها تشابهت . فنجد الفرح إذا أفرط قتل والغم إذا أفرط قتل[٣] » وهو يرى أن ذلك إنما يحدث بين المحبين : « تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما فى صاحبه[٤] » . وآية ذلك عنده سرعة الرضى بعد هذا الغضب والعود إلى جميل الصحبة وسقوط الخلاف .

ومن علامات الحب ، أن يلتذ المحب بذكر محبوبه ، « فيستدعى سماع اسمه ويستلذ الكلام فى أخباره ويجعلها هجيراه »[٥] .

ومنها أن يغصه تذكر المحبوب بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ويبعث فيه الوجوم والإطراق ، وينعقد لسانه فى الحديث ، ويتعثر فى منطقه ، وهذا يضاد ما قبله ويناقضه . ولم يفسر ابن حزم ذلك ، ولم يحاول أن يفرق بين الحالين ، بل اكتفى بأن يصف الحال الأخيرة ، وصفاً فيه كثير من اللوعة ومن حرقة القلب . الأمر

---

(١) طوق الحمامة ص ١١ .

(٢، ٣، ٤) طوق الحمامة ص : ١٢ .

(٥) طوق الحمامة ص : ١٢، ١٣

الذى يوحى إلى القارىء أنه إنما يتحدث عن نفسه . « ويعرض للصادق المودة أن يبتدى فى الطعام وهو له مشته ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له من ذكر من يحب ، صار الطعام غصة فى الحلق ، وشجى فى المرىء . وهكذا فى الماء والحديث فإنه يفاتحكه مبتهجا فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحوالة فى منطقه ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوجوم والإطراق »[٢] . وأغلب الظن ، أن هذه الحال الأخيرة ، تكون إذا ابتلى المحب بفراق حبيبه ، أو دهته الأقدار بهجرانه أو فقدانه ، حينئذ يبعث التذكر فيه ألما دفينا يشجى به صدره ، وتقذى به عينه .

ومن علاماته أن المحب يحب أهل محبوبه وقرابته ، ويؤثرهم بمودته[٤] كأن المودة فيض يفيض من المحبوب على أهله وخاصته . وهكذا النفس الإنسانية فهى إذا تأثرت بشىء واستجابت إليه ، خلصت مثل هذه الاستجابة على ما يحيط به وما يتصل منه بسبب . وقد سبق إلى هذا المعنى جميل بثينة حيث يقول :

وقالوا يا جميل أتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب
أحبك إن نزلت جبال جسمى وإن ناسبت بثنة من قريب

وهكذا يفيض ابن حزم فى الكلام على علامات الحب ويطنب فيلاحظ ويشاهد تارة ويستبطن نفسه وما يختلج فيها تارة أخرى وقد كان موفقاً فى هذا الباب إلى حد كبير وآية ذلك أن علامات الحب مما يلزم أن تلتقى فيه المشاهدة والملاحظة الخارجية بالاستبطان ومراقبة الخوالج ومن هنا جاء حديث ابن داود عنها وهو لا يكاد يتعدى الاستبطان إلى المشاهدة — مقتضبا موجزا إلى حد الإخلال فلم يزد على أن يقول : « وللحب دلالات تتبين فى الزفرات واللون والنظرات » أو لعله كان أرفق بالمحبين من أن يفضحهم ويدل عليهم ويعرفهم بسيماهم .

## ٥

وإذا وقع الإنسان فى الحب التمس الوصول إلى المحبوب وتوسل إلى ذلك بوسائل شتى يذكر ابن حزم منها :

---

(١) طوق الحمامة ص ١٣ .

(٢) « « « ١٥ .

١ — التعريض بالقول : « إما بإنشاد شعر أو تعمية بيت أو طرح لغز أو تسليط كلام » وهذا أمر يختلف باختلاف المحبين إدراكا وبلادة وباختلاف المحبين فى الإقبال والإعراض[١] .

ويصف ابن حزم موقف المحب ينتظر من المحبوب الجواب على تعريضه وصفاً رائعاً ينبىء عن خبرته بمثل هذا الموقف فيقول : « وانتظاره الجواب إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات لموقف بين الرجاء واليأس هائل وإن كان حيناً قصيرا ولكنه إشراف على بلوغ الأمل وانقطاعه[٢] » .

هذا مايقع من المحب قبل أن يعرف مكانه فى نفس محبوبه وقبل أن يقع على رأيه فيه وشعوره نحوه حتى إذا عرف أنه يكن له فى نفسه الحب ويبطن له الود كان عقد المواعيد والسؤال عن بعض ما يدعو إلى التساؤل تعريضاً بكلام يفهمه كلاهما ولا يفهمه الآخرون إذ يصطلحان على رموز وإشارات وعبارات يريدان بها معانى تخفى على الآخرين على أن هذه الرموز وتلك الأسرار قد يفتضح أمرها عند ذى الحسن النافذ أو التجربة السابقة فى الحب[٣] .

تلك جزئيات بسيطة قد لا يلتفت إليها من يكتب فى الحب ممن أصيب به ووقع فيه ولكن طبيعة الاستقصاء عند ابن حزم أبت عليه إلا أن يحيط بها .

٢ — حتى إذا أصاب المحب غرضه من التعريض بالقول ووجد من المحبوب مواصلة وإسعادا أتبع ذلك الإشارة بلحظ العين . وللألحاظ لغة يحسن المحبون التفاهم بها ويقضون بها الحوائج من غير أن يسمع نجواهم رقيب أو يتسلط عليها واش أو عذول :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاما تكلمنا بأعيننا سراً
فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجة ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا

وأبو محمد بن حزم يضع فى لغة العيون معجما ينبىء عن مبلغ تضلعه فيها وإحاطته بها . وهو يعترف بعجزه عن أن يعبر عن ذلك بالألفاظ تعبيرا دقيقا ، ويقر بأن ذلك لا يدرك إدراكا واضحا إلا بالرؤية . وهو يصف ما تيسر من هذه المعانى فيقول : « فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر وتقتيرها إعلام بالقبول وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف وكسر نظرها آية الفرح

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٧ .
(٢) « « « : ٢٧ — ٢٨ .
(٣) « « « : ٢٨ .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال وقلب الحدقة من وسط العين بسرعة شاهد المنع وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . . . الخ[١] » .

ومثل هذا ينبىء بخبرة ابن حزم فى الحب وفنونه ، وطول ممارسته لها واحتفاله بها ، ويدل على ما كان للحب فى البيئة الأندلسية من مكانة ، وعلى شيوعه بين القوم . حتى لقد اصطلحوا فيه على رموز يحتمى بها المحبون من الرقيب الثقيل والواشى الولوع بالإفساد بين أهل الود .

وما أظن أن ابن حزم استمد ذلك من اختباره للحب بنفسه فحسب ، ولكن يغلب على ظنى أنها مشاهداته وملاحظاته فى بيئته التى يبدو أنها كانت تحتفل بالحب احتفالا كبيرا .

٣ — ثم يتصل المتحابان إذا عز عليهما اللقاء بالمراسلة ومن المحبين من يراسل محبوبه لوجد لذة الكتابة إليه ولذة جوابه على ما يكتب إليه من أنه يسير عليه لقاؤه قريب منه مزاره .

ومن المحبين من يسقى الحبر بدمعه أو يسيل دمه فيكتب به إلى حبيبه[٢] وفى مثل ذلك يقول ابن حزم :

جواب أتانى عن كتاب بعثته فسكن مهتاجا وهيج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبته فعال محب ليس فى الود خائنا
فما زال ماء العين يمحو سطوره فيا ماء عينى قد محوت المحاسنا
غدا بدموعى أول الخط بيننا وأضحى بدمى آخر الخط بائنا

٤ — وقد يدخل المتحابان بعد حلول الثقة بينهما رسولا يصل بينهما حيث لا يتيسر اللقاء ويسفر بينهما حيث يمتنع عليهما الوصول . وفى ذلك يقول محمد ابن داود : « من منع من الوصول اقتصر على الرسول » .

وابن حزم ينصح بتخير السفير : « وارتياده واستجادته واستفراهه فهو دليل عقل المرء وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى[٣] » .

وأكثر مايستخدم المحبون فى السفارة إلى من يحبون : « إما حائلا لا يؤبه له

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٩ .
(٢) « « « : ٣٠ — ٣١ .
(٣) طوق الحمامة ص : ٣١ .

ولا يهتدى للتحفظ منه لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة فى طلعته وإما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها وما أكثر هـذا فى النساء ولا سيما ذوات المكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين[١] » .

ويبد أن أمر هؤلاء قد بلغ فى قرطبة مبلغا عظيما حتى هتكن الأسرار وسهلن الصعاب ومهدن الوعر فهو يحذر منهن وينبه عليهن بشدة[٢] .

ويذكر فى آخر الباب خبرا ظريفا عن عاشقين كانت تسفر بينهما حمامة مؤدبة بعقد الكتاب فى جناحها . وفى ذلك يقول :

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبى إليك فهاكها رسائل تهدى فى قوادم طائر[٣]

## ٦

وللحب أحوال منها أن يجهد المحب فى طى سره وإخفاء أمره وأن يتصنع الخلو من الحب . وقد يفلح ذلك فيجوز تدبيره على غير ذى الحس اللطيف حتى إذا استحكم فيه الحب وملك عليه أمره لم يلبث أن ينكشف السر ويبدو الخفى فيظهر الحب فى حركاته ونظراته[٤] .

وهذا الذى ذكره ابن حزم من علامات الحب التى تدل على المحب وتفضحه وتكشف سره أمر لا تقاومه الإرادة وهو يروى عن بعض من يعرف ممن رام أن يجحد ما يبدو عليه من الوجد أن واحدا من ذوى وده وأهل الحظوة لديه جرى معه فى تصديقه بما يزعم من خلوة قلبه من الحب فسر بذلك وابتهج حتى كان قاعدا ذات يوم فمر به من يهواه فبان عليه الاضطراب وامتقع لونه وانعقد لسانه بعد انطلاق فذكره صاحبه بما يحاول أن يخفيه عن الناس فاعترف بمضاضة وأقر إقرار مجبر قليل الحيلة[٥] .

ولهـذا الكتمان أسباب . فبعض الناس يكتم حبه لأنه يظن أن الحب من صفات أهل البطالة التى تنافى الورع وتجافى التقوى وابن حزم يرد على هؤلاء رد

---

(١) طوق الحمامة ص ٣٢ .
(٢) » » » » .
(٣) » » » » .
(٤) » » » ٣٣ .
(٥) » » » ٣٤ .

الفقيه لا المحب فيقول : «وما هذا وجه التصحيح فيحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى ياتيها باختياره[١] » .

وهذه حال من لم يقدم فى الحب عهده ولم يرسخ فيه قدمه إذ المحب العريق فى الحب لا بد له أن يرضى به وتطيب به نفسه ، ويسكن إليه قلبه وينشغل بلذته فلا يحفل بسواه .

ومن دواعى الكتمان إبقاء المحب على محبوبه وصونه من أن يسلقه الناس بألسنة حداد[٢] .

ومنها أيضاً أن يتوقى المحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب وابن حزم يحكى أن بعض شعراء قرطبة تغزل بصبح أم المؤيد فغنت بشعره جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلهما[٣] .

وقد قتل أحمد بن مغيث ، واستؤصلت أسرته لأنه تغزل باحدى بنات الخلفاء[٤] .

وقد يتحكم العشق فيغلب العاشق على إرادته ، فيبدى مالا يحسن أن يبديه ، ويسدر فى غلوائه ، فيستعذب الافتضاح بعد التصون والتستر : « وكم من مصون الستر مسبل القناع ، مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأحل حماه فصار بعد الصيانة علما ، وبعد السكون مثلا ، وأحب شىء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه فسهل ما كان وعرا ، وما كان عزيزا ، ولان ما كان شديدا[٥] » . وهو يمثل لذلك ببعض من رأى ومن خبر : « ولعبدى بفتى من سراوات الرجال وعلية إخوانى قد دهى بمحبة جارية مقصورة فهام[٦] بها . وقطعه حبها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر إلى أن كانت هى تعذله على ماظهر منه مما يقوده إليه هواه[٧] » .

ونحن إذا رجعنا إلى محمد بن داود وحديثه عن الكتمان ، وجدناه أرحب من ابن حزم أفقاً وأعمق نظرا ، وأنفذ فراسة فقد أوسع الكتمان بحثاً فلم يقتصر

---

(١) طوق الحمامة ص ٣٣ .
(٢) طوق الحمامة ص ٣٤ .
(٣، ٤) طوق الحمامة ص ٣٥ .
(٥) طوق الحمامة ص ٣٦ .
(٦) فى الكتاب « فلم بها » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٧) طوق الحمامة ص ٣٦ .

على الجانب الذي عرض له ابن حزم منه ؛ وهو كتمان المحب حبه عن الآخرين ، وإنما عرض لجانب آخر منه ذلك . هو كتمان المحب عن المحبوب ما يجده فيه وما يكنه فى نفسه . وتكلم على أسرار المحبوب عند لمحة من زيارات ومواعيد ، وما إليها من الأمور التى يعذر المحب فى إظهار الناس عليها .

ويخيل إلى أن ذلك كان رهنا بطبيعة الحب كما أدركه كل منهما ، وكما اختبره وتقلب فى أحواله . إذا لم تكن حياة ابن حزم تبيح له أن ينغمر فى الحب شأن ابن داود ، أو أن يعانى فيه ماعاناه . فقد كان محبوب ابن حزم طوع يديه إلى حد بعيد ، ولم يكن يتكلف فى رضاه كثيرا ، أو يبذل من أجله غالباً ، وهكذا يكون حب المترفين فى الغالب . وهذا الأمر يوحى فى النفس فكرة التكافؤ فى الحق ، وبالغ أثرها فى تكوينه وفى تكييفه ، وسنعود إلى بسط القول فيها بعد قليل .

ومن أحوال الحب أن يؤثر فى طباع المحب وأخلاقه . فيوجهها كما يشاء المحبوب ويعرفها كما يهوى . فتراه يطيعه فيما كان قبل الهوى يعسر عليه ، ويعظم أمره لديه ، وابن حزم يصور ذلك تصويرا طريفاً ، ويعبر عنه تعبيرا لطيفاً . فيقول : « وربما يكون المرء شرس الأخلاق ، صعب الشكيمة جموح القياد ، ماضى العزيمة ، حمى الأنف أبى الخسف . فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورط غيره ، ويعوم فى بحره عادت الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلالة والحمية استسلاما[1] » .

ولسلطان الهوى من القوة ماتذل له الأعناق ، وتعنو له الوجوه . فقد يبتلى المحب بمحبوب يكره الشكوى ، ويضيق بها فيضطر المحب إلى أن يكتم حزنه ويخفى وجده ، وينطوى على علته . وقد يتجنى المحبوب لغير ذنب يجنيه المحب فلا يملك هذا إلا الاعتراف بذنب لم يقترفه . وابن حزم يعرف من دهى بمثل هذا المحبوب « فما كان ينفك من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتب عليه ، والضغط وهو نقى الجلد[2] » .

وتدرك ابن حزم تربيته الارستقراطية ، ومنزلته الاجتماعية الرفيعة فيبرر ذلة المحب للمحبوب تبريراً لايسعفه فيه طبع من ذاق الحب فعرفه ، وتهذبت به نفسه صبر فهو ينفى أن يكون المحب على الذلة للمحبوب دناءة فى النفس . لا لأن الحب

---

(١، ٢) طوق الحمامة ص: ٣٩ .

يفرض ذلك عليه ، ولكن لأن « المحبوب ليس له كفؤاً ولا نظيراً فيقارض بأذاه وليس سبه وجفاؤه مما يعبر به الإنسان ، ولا يبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء . فيكون الصبر مستجرة للمذلة وضراعة قائدة للاستهانة . فقد ترى الإنسان يكلف بأمته التى يملك رقها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها[١] » .

وعجيب من ابن حزم أن يقول بذلك ، وهو يصف الحب بانه اتصال بين النفوس فى عالمها العلوى ، وانجذاب بعضها إلى بعض لأنهما فى الأصل من جوهر واحد ، ولعل نفسه حجبت بمظاهر البيئة التى نشأ فيها ، وتأدب بآدابها حتى انكشف نورها .

وأين هذا من قول أبى بكر بن داود فى هذا الشأن : « والحازم من صبر نفسه على مضاضة التدلل ، والتمس العز فى استثمار التذلل » .

وهنا تعاودنا فكرة التكافؤ فى الحب ، وهو لابد منه ليأخذ الحب مكانه فى النفس ، ويستقر فيهما ذلك أن الحب لابد فيه من الشعور بالافتقار إلى الحبيب والحاجة إليه من غير أن يظن المحب أن ذلك وهم يجلوه اليقين .

## ٧

وكما أن للحب مراتب يرقى فيها المحب واحدة بعد واحدة وأحوالا يتقلب فيها حالا فحالا . فان فيه آفات تصيب المحب فتنغص عيشه وتقض مضجعه .

فمن آفات الحب العاذل ، وهو عند ابن حزم أقسام وأفضلهم « صديق قد أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه . فعذله أفضل من كثير المساعدات » وهو بذلك يقى المحب من الاستسلام لحبه استسلاما يورده موارد الهلاك ، وأحسن ما يكون هذا العاذل وأنفع ، إذا كان رفيقا فى القول يدرك متى يقع فى النفس كلامه ، ومتى تزور عنه وتنأى بجانبها « على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعده وقبوله وعصيانه[٢] » .

ومن العذال عاذل زاجر يغرى بالعذل ، ولا يفيق من الملامة وهو كما يقول فيه ابن حزم خطب شديد وعبء ثقيل . وقد وقع له هو مثل ذلك[٣] .

---

(١) طوق الحمامة ص : ٤٠ .

(٢) « « « : ٤٣ — ٤٤ .

(٣) « « « : ٤٤ .

على أن من المحبين من يبتلى بالحب قلبه وتعمر به نفسه ، فلا يعبأ بالعذل ولا يبالى بالعاذل . بل قد يميل إليه ، ويلذ له عذله ليريه عصيانه إياه، ومخالفته له .

وقد شاهد ذلك ابن حزم فيمن عرف من المحبين[١] . وما ذلك من المحب بعجيب فقد يجد فى العذل لذة ذكر المحبوب والأنس بالحديث عنه .

وقد كان أبو بكر بن داود أعمق منه نظراً فى الكلام على العاذل فقد تنبه إلى أمرين خطيرين فى العذل هما أى المحبين ينفع فيه العذل والثانى هل يزيد العذل فى المحبة . وتحدث عنهما حديث الخبير بالحب وبأحوال المحبين .

وابن حزم يتبع باب العاذل بباب يتكلم فيه على المساعد من الإخوان ويذكر فيه حرص النساء على الأسرار وولوعهن بالكتمان وشغفهن بإصلاح ذات البين بين المحبين .

ومن آفات الحب الرقيب وهو الموكل بالوصل يكدره ويشوب صفاءه وابن حزم يصفه وصف الذى أصيب به فطالت به مصيبته وابتلى به فعظمت به بليته فيقول : « ومن آفات الحب الرقيب وإنه لحمى باطنة وبرسام ملح وفكر مكب[٢] » وهو كعادته يقسم الرقباء أقساما . فأولهم رقيب حسن النية ليست مراقبة المتحابين دأبه ولا غرضه وإنما يوقعه بهما الطالع السيء فيطلع عليهما نحسا يصيبهما منه قلق قد لا يصيبهما مما هو أشد منه وقد شاهد ابن حزم مثل ذلك وهو يحكيه فى ص : ٤٧ .

ومنهم رقيب فضولى « أحس من أمر العاشقين بطرف وتوجس من مذهبهما شيئا » فهو يريد أن يروى فضوله ويشفى غليله فيتمهد المواضع التى يأويان إليها ويخلوان فيها فيدمن الجلوس فيها ويرمقهما من طرف خفى لا تفوته حركة ولا تعدوه خطرة . وابن حزم يعرف من هم أن يباطش رقيبا هذه صفته[٣] .

هذان رقيبان على المتحابين كليهما وهما أقل خطرا وأهون شرا ممن يوكل بالرقابة على المحبوب وهو الذى لا مفر من أذاه إلا برضيه فإذا هو لم يرض كان على المحب أن يقنع بإشارة اللحظ وبالهمس وبالتعريض بالقول على ما سبق أن ذكرنا فى سبيل الوصول إلى المحبوب . ويرى ابن حزم بحق أن أشد ما يكون الرقيب على المتحابين . « إذا كان ممن امتحن بالعشق قديما ودهى به وطالت مدته

---

(١ ، ٢) طوق الحمامة ص : ٤٤ .

(٣) طوق الحمامة ص : ٤٨ .

فيه ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه[١] » إنه إذن لا يدع للعاشقين حيلة يلتمسان فيها الوصل إلا أفسدها ولا خطة يحكمان حبكها إلا فك عراها .

ومن طريف أمر الرقيب أن ابن حزم شهد محبين كلاهما واقع فى هوى محبوب واحد فكل منهما رقيب على صاحبه[٢] .

ويلاحظ على ابن حزم فى هذا الباب أنه تكلم فى الرقيب كلاما موضوعيا فاستقصى وألم به من أطرافه ولكنه لم يعرض لنظرة العشاق إلى الرقيب بالنسبة لغيره من آفات الحب كالعذل والوشاية والهجران والفراق . وقد فعل ذلك من قبله — فأحسن — محمد بن داود .

ومن آفات الحب الواشى . والوشاة ضربان يتفاوت أذاهما . أحدهما واش يسعى بين المتحابين ليقطع ما بينهما من أسباب المودة ويحل ما بينهما من عرى المحبة وهو على ما فيه من أذى شديد أخف من الآخر وطأة وأفتر سوأة ذلك لأنه مفسد بطبعه لا يرمى من وراء إفساده إلى غرض ولا يهدف إلى غاية أما الآخر فهو الذى يسعى لقطع ما بين المتحابين حتى يستأثر هو بالمحبوب وينفرد به وهو يكون أدهى أذى وأشد بلاء لأنه يجهد فى سعايته ويتوسل بكل الوسائل لقطع ما بين المحب ومحبوبه تحدوه إلى ذلك غاية ويستثيره إليه غرض يصور له لذة الظفر فيزيد فى اجتهاده ويضاعف فى سعيه[٣] .

وأبو محمد بن حزم يلاحظ أن وشاية الواشى وسعايته تكون بالمحب إلى المحبوب فأما السعى بالمحبوب لدى المحب « فهيهات حال الجريض دون القريض ومنع الحرب من الطرب شغله بما هو ( فيه ) مانع له من استماع الواشى وقد علم الوشاة ذلك وإنما يقصدون إلى الخلى البال العائل بحوزة الملك . . .[٤] » .

وهذا صحيح إلى حد ما إلا أن ابن حزم يبالغ حين ينفى الوشاية بالمحبوب إلى المحب هذا النفى القاطع مع أن العذل من جنسها يكون والعاذل قد يسعى بما يعلم عن المحبوب إلى المحب ليصرفه عنه وليزيله عن وده .

ويذكر ابن حزم من الوشاة جنساً آخر وهو الذى يسعى بالمحب والمحبوب

---

(١ ، ٢) طوق الحمامة ص ٤٩ .

(٣) طوق الحمامة ص ٥٠ — ٥١ .

(٤) « « « ٥٠ .

(٥) « « « ٥١ .

كليهما ويكشف سرهما وهو عنده ليس بذى بال ولا يلتفت إليه إذا كان المحبوب مساعداً[١] . وهو من جنس الرقيب .

والحق أن المتحابين إذا تأكدت بينهما الثقة وتكافأت بينهما المودة فليس إلى قول الوشاة سبيل إليهما .

ويبدو أن ابن حزم قد لقى فى حبه وفى غير حبه من الوشاة عنتا شديدا وبلاء مبينا فهو يختص بالكلام على الوشاية والنميمة من الناحية الخلقية والدينية أكثر الباب ويستشهد على شناعة فعلهم بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأقوال الحكماء . ولا ننس أنه لقى من السعاية والوشاية فى حياته ما ألقى به فى سجن خير ان صاحب المرية حين بلغه من بعض الوشاة أن ابن حزم وصاحبه محمد بن اسحق يسعيان لإعادة بنى أمية إلى الحكم[٢] . فلا عجب إذن أن يفيض فى الكلام على الوشاية والوشاة هذه الإفاضة الطويلة . بخلاف سلفه أبى بكر ابن داود فقد سبق أن لاحظت أنه أقصر فى ذلك فلم يطل لأنه — فيما يبدو — لم يبتل بالوشاة كثيراً ولم يلق منهم ما يلقى غيره من المحبين لتأكد الثقة بينه وبين حبيبه وعنوان باب الواشى فى كتاب الزهرة يوحى بذلك ويدل عليه : « من أحبه أحبابه وشى به أترابه » .

ومن آفات الحب التى يوجس منها المحبون خيفة ويحذرون منها جهدهم الهجر وابن حزم يصنفه سبعة أصناف :—

١ — هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وأنه — فى نظر ابن حزم — لأحلى من كل وصل[٣] . وهو تظاهر بالهجر وليس هجراً إذ ليس فيه ما يغيظ المحب من تغير محبوبه وانحرافه عنه وإنما هو ضرورة تدعو إليها ظروف المحبوب والمحب ولقد سماه أبو بكر بن داود بالحجاب ولم يدخله فى باب الهجر وهو لا يستلزم احتجاب المحبوب عن محبه إذ قد يكون كما ذكر ابن حزم إضرابا عن التحدث بحديث الحب والتظاهر بأعراض كل منهما عن الآخر[٤] .

٢ — وهجر يوجب التدلل . وهو كما ينقل ابن حزم عن ابن داود ألذ من كثير الوصال وفيه اختبار لصبر المحب ولثباته على الحب . وقد لاحظ فيه

---

(١) طوق الحمامة ص ٥١

(٢) « « « ١١٧ — ١١٨ .

(٣) « « « ٦٣ .

(٤) « « « ٦٣ — ٦٤ .

ابن حزم ما سبق أن علقت به على كلام ابن داود فيه من : « مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل فيكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره »[١] وابن حزم يحدثنا أن ذلك قد حدث له فى صباه مع من كان يألف حتى كثر فشك فى ود أليفه[٢] .

وليس هذان الصنفان من الهجر فى شىء إذ ليس فيهما مضاضته وليس فيهما ما يبعثه الهجر فى نفس المحب من غيظ وأسف ولوعة .

٣ — ومن الهجر هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب[٣] ، وهو الذى يدعوه ابن داود هجر المكافأة على الذنب ويرى أن التوبة تخرجه من القلب . وابن حزم يرى فى هذا الهجر بعض الشدة على أن فرحة الرجعة وسرور الرضى يغلب عليه ذكرها فيطيل فى الحديث عنهما ويعرض عن ذكر شدته ومضاضته . وهو يصف موقف الحبيبين فى مجلس خلا من الرقيب فأخذا فيه بأطراف الحديث هذا يعاتب وهذا يبسط عذره فيقول : « وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام فى فكر ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلا وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمة مانع من الإطالة فابتدأ المحب فى الاعتذار والخضوع والتذلل والادلاء[٤] بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم لما سلف فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يرد بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفى وربما أدامه فيه ثم يبتسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر »[٥] . وهذا الإبداع فى التصوير ، والصدق فى التعبير ، ينم عن خبرة بمثل هذا الموقف ، ووقوع فى مثل هذا المأزق ، وألفة لهذه المواقف ، وقد اعترف هو بذلك فأخبر عن نفسه أنه اختبر الوقوف بين أيدى الملوك والاعتذار إلى السلاطين فكان أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا يجيب إلى الدنية ولا يساعد على الخضوع ، ووقف بين يدى محبوبه فكان أذل من الرداء وألين من القطن يبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نقع ، ويغتنم فرصة الخضوع لو نجع[٦] .

---

(١) طوق الحمامة ص ٦٦ .
(٢) « « « ٦٦ .
(٣) « « « ٦٧ .
(٤) فى الأصل « الأدلة » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٥) طوق الحمامة ٦٧ . (٦) طوق الحمامة ص ٦٧ — ٦٨ .

٤ — وقد يفلح الواشون فى نقض أسباب المودة فيحدث الهجر .

٥ — ومن أصناف الهجر هجر الملل وهو صفة توجد في بعض الناس فلا يصح لهم صديق ولا يصفو لهم إخاء ، والملول « لا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطول مساعدته لمحب ولا يعتقد منه ود ولا بغض »[١] ولذلك أبعد ابن حزم هذه الصفة عن المحبين ، وجعلها فى المحبوبين ، فهم فى الجملة أهل التجنى والتظنى والتعرض للمقاطعة[٢] .

وقد اكتفى ابن حزم بأن نفى صفة الملل عن المحبين وقال إن حق من تزيا بزيهم وهو ملول « أن يهرج مذاقه وينفى عن أهل هذه الصفة »[٣] ولكن ابن داود كان أكثر منه إحاطة بأحوال المحبين فقد قال إن هجر الملال إنما يزيله الشوق المنبعث فى نفس الهاجر .

٦ — ومن الهجر ما يبدأ به المحب لجفاء يبدو من المحبوب نحوه وانحرافه عنه . أو من أجل ثقيل يلازمه[٤] . فيقدم على أهون الشرين فى نظره ويستجير من الرمضاء بالنار .

٧ — هجر القلى . وقد سماه أبو بكر بن داود بالهجر الذى يوجبه البغض المتمكن فى القلوب . وليس هو بالهجر ولكنه زوال ما أوجب المحبة وانقطاع لأسباب المودة لا حيلة فى وصله ولا سبيل إلى ذلك لأن الهجر طارىء يعرض للعلاقة بين الحبيبين وفتور يكون بينهما أما المحبة فقائمة قيام اللؤلؤ فى الصدف وطالعة طلوع الشمس من وراء الغمام ، لا يلبث الطارىء أن يزول حتى يعود الأمر بينهما إلى سيرته الأولى ، أما فى مثل هذه الحال ، حال القلى ، فالمحبة التى يتوهمها المحب هى الطارئة إذ ليس فيها تكافؤ فى المودة ولا تجاوب بين النفسين . ولست أدرى كيف جاز ذلك على ابن حزم وهو يقول فى أول الكتاب إن المحبة اتصال بين النفوس وموافقة فى الطبائع ومشاكلة فى الخلائق .

ومن آفات الحب التى ترمى المحبين فتصميهم وتقصدهم فتقصدهم البين وليس شىء أشد على النفوس منه : « ولو سالت الأرواح به فضلا عن الدموع كان قليلا »[٥] . والبين أصناف فمنها بين مؤقت ترجى العودة من بعده وينتظر الإياب ، ولا يزال المحب فيه يتقلب على الجمر حتى يتاح له اللقاء . وابن حزم

---

(١ ، ٣ ، ٣) طوق الحمامة ص ٦٩ .

(٤) طوق الحمامة ص ٧١ .

(٥) « « « ٨٠ .

يعرف من كان يغيب محبوبه عن بصره يوما واحداً فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتى عليه[١] .

ومن البين أن يحتجب المحبوب عن المحب بأن يضطر إلى الاحتجاب اضطرارا أو أن يفعله بنفسه مختارا . وهذا يولد من الحزن والأسف غير قليل وقد جربه ابن حزم فكان مرا[٢] .

ومن أصناف البين ما يوقعه المحب بنفسه قطعاً لألسنة الوشاة وحذارا من أن يكون قربه من الحبيب سبباً لأن يفشو أمرهما ويشتهر فيقع الحجاب ويمتنع عليهما اللقاء[٣] وقد أوجز ابن حزم فى حديثه عن ذلك فى حين أن سلفه محمد ابن داود قد قال فيه فأطال وفصل الدواعى التى تدعو المحب إلى أن يبسط على روحه يد النوى . ونصح المحبين نصح المجرب الخبير فقال : « من تجلد على النوى فقد تعرض للبلى » وفصل ذلك تفصيل الرفيق بأهل الهوى العزيز عليه أذاهم فقال : « إن الحزم لأهل الهوى ألا يبسطوا على أرواحهم يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش ويبرح القلوب فكيف إذا تحكم فيه الاشتياق ، وأمدت صاحبه الفكر بخواطر الإشفاق ، والتهبت فى الضمير لوعات الاشتياق ، حينئذ تسكب العبرات ، وتتمكن الحسرات[٤] » .

ومن البين ما يوقعه بالمحب بعض آفات الزمان فيضطره إلى الرحيل عمن يحب وعذره فى ذلك مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل[٥] ومن هذا ما يخبر به أبو محمد بن حزم عن صديق له كانت داره بالمرية وقدم شاطبة فنزل عنده وكان له بالمرية علق يتعلق به ويهيم فيه فسدت فى وجهه سبل الرجوع حتى أصابه من ذلك غم وهم وحزن كبير[٦] .

وأشد ما يكون البين حين لا يكون المحب من الأوبة على يقين وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائى هو المحبوب وهو الذى قالت فيه الشعراء فأكثرت وفيه يقول ابن حزم :

وذى علة أعيا الطبيب علاجها ستوردنى لاشك منهل مصرعى

---

(١ ، ٢) طوق الحمامة ص ٨١ .
(٣) طوق الحمامة ص ٨٢ .
(٤) كتاب الزهرة ص ١٨٤ — ١٨٥ .
(٥) طوق الحمامة ص ٨٢ .
(٦) « « « ٨٢ — ٨٣ .

رضيت بأن أضحى قتيل وداده كجارع سم فى رحيق مشعشع
فما لليالى ما أقل حيادها وأولعها بالنفس من كل مولع
كأن زمانى عبشمى يخالنى أعنت على عثمان أهل[١] التشيع

وقد أغفل ابن حزم ما يفعله البين بنفوس العشاق فيستثير فيها كامن الأشواق . ويضاعف فيها التعلق بالمحبوب .

وفى رحيل المحب عن المحبوب أو رحيل المحبوب عن المحب يقع الوداع وهو موقف هائل تنقطع فيه القلوب وتدمى المحاجر . وابن حزم يقسمه قسمين « أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة[٢] » ويذكر أن من الشعراء من كان يتمنى البين ليحظى فيه بالوداع وهو ينعى ذلك عليهم ويقول فى ذلك قولة الخبير المجرب : « فما يفى سرور ساعة بحزن ساعات[٣] » .

ثم يوازن ابن حزم بين الهجر والبين وأيهما أشد ويقول إن ذلك يختلف باختلاف المحبين « فذو النفس الأبية الألوف الأنوف لا شىء يعدل عنده مصيبة البين » ذلك لأنه لم يبعثه من نفسه باعث ولم يدعه إليه داع من غدر أو جفاء أو انحراف وإنما أصابته به غير الدهر ومصيبات الزمان فلا يزال الشوق إلى من يحب يقطع عليه سبيل الالتذاذ بالعيش من بعده والهجر عنده داعية السلو ورائد الإقلاع[٤] .

وأما « ذو النفس التواقة الكثيرة التطلع القلوق العزوف فالهجر دواؤه وجالب حتفه والبين له مسلاة ومنساة[٥] » ومثل هذا لا يتحقق بالحب ولا يصبر عليه وما إخال كلام ابن حزم فى الهجر يصدق عليه فما دامت نفسه كثيرة النزوع دائمة التطلع فليهجره الحبيب ما شاء فهو لابد واجد غيره ممن يرضى به نزوع نفسه وتوقها وتطلعها .

وابن حزم يخبر عن نفسه بأن الموت عنده أسهل من الفراق وأهون وما الهجر إلا جالب للكمد[٦] .

وأشد أنواع البين وأولعها بمقاتل المحبين ، بين الموت وابن حزم يصفه وصفاً

---

(١) طوق الحمامة ص ٨٣ .
(٢ ، ٣) طوق الحمامة ص ٨٦ .
(٤ ، ٥ ، ٦) طوق الحمامة ص ٨٩ .

تقطر منه اللوعة فيقول إنه هو المصيبة الحالة وقاصمة الظهر وداهية الدهر وهو الويل وهو المغطى على ظلمة الليل وهو قاطع كل رجاء وماحى كل طمع . . .[١] الخ ذلك لأنه أصيب به فما انتفع بالعيش من بعده وما فارقته لوعته ولا زال عنه أساه فقد فجع بحبيبته نعم وأسى عليها أسى شديداً ( وقد مر بنا ذلك فى الكلام على حبه ) .

وقد تسنح الأيام للعاشق وتغفو عنه عين الدهر وتغفل عنه غير الأيام فتسمح له بالوصل من حبيبه وهو غاية التمنى ونهاية الأرب ، ولقد وصف لذته ابن حزم فقال : « ولقد جربت اللذات على تصرفها وأدركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف ولا التروح على المال من الموقع فى النفس ما للوصل لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليها الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء[٢] » .

وللوعد بالوصل — كما يقول ابن حزم — مكان لطيف من شغاف القلب والموعود لا يفتأ يترقب حلول الموعد ويتخيل ما سيحظى به من حظ رفيع ولذة ما بعدها لذة .

ومن الناس من يزعم أن تمادى الوصل يودى بالحب وابن حزم يخالف هؤلاء بحق ويرد عليهم بقوة ويرى أن ذلك إنما يحدث لأهل الملل . فأما المحب الثابت على حبه فكلما زاد وصلا زاد اتصالا وهو يحدثنا عن نفسه فيقول : « وعنى أخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . . . . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتنى إلا مستزيداً ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة[٣] » ويخاطب حبيبته فيقول :

وددت لو أن القلب شق بمدية ... وأدخلت فيه ثم أطبق فى صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره ... إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمت ... سكنت شغاف القلب فى ظلم القبر

---

(١) طوق الحمامة ص ٨٨ .
(٢) « « « ٥٦ .
(٣) « « « ٥٨ — ٥٩ .

فأما إذا لم يظفر بوصل حبيبه ولم تسعفه الأيام بنيل طلبه ، فلابد له أن يقنع بعلائم القبول ، ودلائل المودة ، يعلل بها نفسه ويسكن بها روعه .

إذا المرء لم يقض له ما أراده أراد الذى يقضى له شاء أم أبى

فمن ذلك الزيارة وفيها تتكلم الضمائر وتتحدث السرائر وتبوح العين بما تنوء به الألسن . وهى عند ابن حزم على وجهين . أحدهما أن يزور المحب محبوبه ، وهذا وجه يتسع فيه المجال ، ليشفى المحب غليله ويبل أوامه . والآخر أن يزور المحبوب محبه ، وهذا لا سبيل فيه إلا إلى النظر والحديث الظاهر[١] .

وما أظن ذلك فى هذين النوعين من الزيارة ضربة لازب ، وماذا يحول بين المحب الذى يتحفه المحبوب بزيارته ، وبين أن يأخذ وإياه فى ضروب من الأنس والمتعة كالذى يفعل حين يزوره بنفسه . ويبدو أن ابن حزم قد صنف هذين بناء على ما لديه من المشاهدة والتجربة ، ولم ينظر إليه على أنه أمر يحدث بين المحبين فى كل زمان وكل مكان .

ومن القنوع أن يرضى المحب ويسر ببعض ما يتصل بمحبوبه من أجزاء الجسم أو الثياب أو غير ذلك ، وقد اشتهر عن العشاق تقبيل الأثر والوقوف على المنازل والتسليم على الديار ونحو ذلك . وابن حزم يحدثنا عن بعض ما شاع فى عصره من تهادى خصل الشعر مبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمسطكى وبالشمع الأبيض المصفى ، ولفت بها تطاريف الوشى والخز وما أشبه ذلك[٢] .

ومنه أيضاً أن يقنع المحب بمزار الطيف وتسليم الخيال ويرضى به . وابن حزم يفسر ذلك تفسيراً قريباً مما يقول به المعاصرون فيقول : « وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق وعهد لا يحول وفكر لا ينقضى[٣] . فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف[٤] » .

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٢ .

(٢) طوق الحمامة ص ٩٤ وقد تحدث عن هذه الظاهرة الأستاذ سيجموند فرويد وهو يسميها : Surestimation ويعزوها إلى انحراف جنسى يحدث عن طريق الإكبار الجنسى Fetichisme Sexuel ويذكر أنها لا تظهر إلا حيث لا يمكن الوصول إلى الموضوع الجنسى Freud : Trois sur la Theorie de la Sexualite, p 44.

(٣) وقد سبق إلى ذلك أبو تمام حيث يقول :

زار الخيال لها لابل أزاركه فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم

(٤) طوق الحمامة ص ٩٥ .

وهو يقسم حال المحب المزور فى المنام أربعة أقسام . فمنهم محب مهجور يرى فى منامه ما يتمنى من عودة حبيبه إلى الإسعاد والمساعفة ورجوعه إلى الوصل ، فيسر بذلك حتى إذا أفاق لم يجده شيئا ، فأسف وأسى وتلهف . ومنهم محب بلغ من حبيبه ما يتمناه ، ولكن غوائل الإشفاق تهيمن على نفسه ، فيرى فى منامه ما يشفق منه وما يخشاه فيهتم له ويغتم ، حتى إذا صحا ذهب ذلك وسرى عنه وعلم أنه بعض وساوس الإشفاق[١] . ومنهم محب دانى الديار قريب المزار ، يرى أن التنائى قد فدحه فيحزن ويأسى ، ثم يفيق فيذهب ما به . ومنهم من تنأى به الدار فيرى أنه قد قرب من يهواه ، فيفرح حتى يفيق فيعود إلى غمه وأساه[٢] .

ثم ينقد ابن حزم الشعراء الذين قالوا فى القنوع فاشتطوا وأبعدوا : « فمنهم من قنع بان السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما ، ومنهم من قنع باستوائهما فى إحاطة الليل والنهار بهما[٣] » . وهو يرى أن ذلك محض تحكم فى القول وتشدق باللسان واستطالة بالبيان[٤] .

ومن العجب أن يدلى هو بدلوه بينهم ، فيروى لنفسه ما يصفه بأنه « قول لا يمكن المتعقب أن يجد بعده متناولا ولا وراءه مكانا » . ذلك قوله :

وقالوا بعيد قلت حسبى بأنه ... معى فى زمان لا يطيق محيدا
تمر على الشمس مثل مرورها[٥] ... به كل يوم يستنير جديدا
فمن ليس بينى فى المسير وبينه ... سوى قطع يوم هل يكون بعيدا
وعلم إله الخلق يجمعنا معا ... كفى ذا التدانى ما أريد مزيدا[٦]

ولعله لم يعب عليهم الإبعاد والاشتطاط ، إلا ليزعم لنفسه التفوق عليهم وليوحى إلى القارىء أنه أوسع منهم خيالا ، وأقدر منهم على المبالغة وتلك ظاهرة عامة فى الكتاب .

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٦ .
(٢) « « « ٩٧ .
(٣) ينسب إلى جميل فى هذا المعنى قوله .

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تدان
ترى وضح الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علانى

(٤) طوق الحمامة ص ٩٩ .
(٥) فى الأصل « مروره » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٦) طوق الحمامة ص ٩٩ .

وحديث ابن حزم عن الوصل والقنوع ، يوحى فى النفس أنه يريد بالوصل شيئاً أكثر مما يطمح المحب العذرى إليه ، فهو يجعل الزيارة والحديث وبث الشكوى وغير ذلك مما يكتفى به المحبون العذريون ، ضربا من القنوع يعلل المحب به نفسه عن الوصل . وإذا كان هذا مراده فقد ناقض نفسه وخالف ما قال به فى أول الكتاب ، من أن الحب غير محظور فى الشريعة ما دام لا يدفع المحب إلى ارتكاب المعصية واقتراف الإثم ، بل كيف يكون ذلك وقد ختم الكتاب ببابين حث فيهما على الوقوف عند حدود الشرع والتزام الفضيلة وشرح فيهما فضل التعفف وقبح المعصية .

## ٨

وينتهى أمر الحب فى الغالب بأحد شيئين إما باختزام منية أو سلو حادث .

ونفس المحب لا تسلو إلا لتغلب بعض قواها على قوة الحب التى تولدت فيها فهى إما أن تغلب فيها الأنفة من الغدر فتصرفها عمن تحب كرها وإما أن يتطاول عليها الهجر أو البين فيدخل عليها اليأس فيفتر نزوعها إلى من تحب شيئا فشيئا حتى يبلغ بها ذلك إلى السلو[١] . ولذلك فالسلو عند ابن حزم ضربان سلو طبيعى وهو الذى يسمى النسيان وهو فراغ القلب وخلو البال ويتولد من اليأس إذا تطاول البين أو تزايد الهجران . ولا يخلو السالى على هذه المشاكلة من الذم . والضرب الثانى سلو تطبعى يكره المحب عليه نفسه ويصارعها ويجالدها حتى تتصبر ثم تسلو وهو لا يحدث إلا لأمر عظيم لا يصبر عليه الحر ولا يستقيم معه الحب وليس على من سلا على هذا النحو جريرة ولا يلحقه فى سلوه الذم[٢] .

وللسلو أسباب كثيرة منها : الملل . وليس ذو الملل بالمحب الحقيقى وإنما هو فى رأى ابن حزم طالب لذة ومبادر شهوة والسالى على هذا الوجه مذموم[٣] .

وما أظن أن هذا يطرد فى الملول فقد لا يكون طالب لذة ولا مبادر شهوة بل متمكناً فى الحب فانياً فيه ولكن هذه الخليقة تغلبه وتعلو عليه .

وابن حزم يذهب فى هذا الشان مذهباً جميلا مراده أن الحب لا يمل وأن المحب متى ذاق لذته وأدرك كنهه لم يخطر الملل بباله .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٠٤ .
(٢) طوق الحمامة ص ١٠٤ — ١٠٥ .
(٣) « « « ١٠٥ .

ومن أسباب السلو الاستبدال وهو مثل الملل بل أقبح منه وأكثر استحقاقا للذم .

ومن أسبابه أيضاً الحياء الذى يمنع المحب من التعريض بما به وإظهار المحبوب عليه فيتطاول الأمد وتتراخى المدة فيبلى جديد المودة ويحدث السلو وابن حزم يرى فى مثل هذا المحب رأيين . فإن كان سلوه نسيانا فهو ملوم « إذ منه جاء سبب الحرمان وإن كان متصبراً فليس بملوم إذ آثر الحياء على لذة نفسه[١] .

ولعمرى إن هذا أحرى بان لا يحشر فى سلو المحب عن المحبوب ذلك لأن الحب فى هذه الحال انما يوأد فى مهده ويخترم وهو جنين، فهو لم يبد منه إلا أعراضه الأولى ولم يتمكن بعد فى القلب .

ومن أسباب السلو ما يأتى من قبل المحبوب كمن يتطاول هجره ويكثر عتابه أو أن يهجر المحب ليصل غيره فيغدر به ويتحلل من الوفاء له . والسلو فى هذا المقام لا لوم فيه ولا غبار عليه أما إذا كان الهجر واقعاً من وشاية واش أو من أجل ذنب اقترفه المحب فالسلو فيه مذموم والسالى من المحبين فيه ملوم[٢] .

وهناك أسباب أخرى لا يذم المتصبر من أجلها ولا يلام السالى بسببها فمنها نفار المحبوب الذى لا يطمع محبه فى أن يظفر بحبه أو ينال مودته[٣] أو جفاء من المحبوب لا داعى له إذا زاد وجد المحب فى التصبر مهربا يلوذ به ويستريح إليه[٤] .

ومن أسباب السلو اليأس وهو ثلاثة فروع : « إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبة وإما عارض يدخل على المتحابين[٥] » .

على أن السالى عن يأس لا يخلو من الذم فإن ذكرى المودة وحفاظ العهود والحنين إلى سابق الوصل لا يفتأ يعاود ذا النفس الكريمة فيمنع عنها السلو ويعيد إليها الشوق ويقطع عليها الالتذاذ بما تجد من لذائذ العيش .

## ٩

أما وقد بلغنا آخر المطاف فى الحب وسايرنا ابن حزم فى حديثه عن نشأته وعلاماته وملابساته فلننظر فيما وضع له من الآداب وما شرع للمحبين فيه .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٠٦ .
(٢) » » » ١٠٦
(٣) » » » ١٠٨ .
(٤) » » » ١١١ .
(٥) » » » ١١٢ .

وهو فى هذا المضمار يقصر عن سلفه محمد بن داود ولا يلحق به فقد اقتصر من آداب الحب على الوفاء .

والوفاء عند ابن حزم ثلاث مراتب أولها : « أن يفى الإنسان لمن يفى له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خلاق له[١] » .

وثانيها الوفاء لمن غدر ويلزم بذلك المحب دون المحبوب . وهذه — كما يقول ابن حزم — خطة لا يطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر[٢] .

وابن داود يرى أن هؤلاء هم الذين يغلبهم الهوى فيعطل فيهم التمييز ويبطل عندهم فعل الإرادة وفيهم يقول : « من غلبه هواه على الصبر صبر لمن يهواه على الغدر » .

وابن حزم يرى أن من قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة ولكن هذه الحال حال الوفاء للغادر تسمو عليها وتفوقها . ويرى كذلك بحق أن غاية الوفاء فى هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله والكف عن سىء المعارضة بالفعل والقول والتأنى فى جر حبل الصحبة ما أمكن[٣] .

وثالث مراتب الوفاء أن يفى المحب لمحبوبه بعد أن يفجعه به للوت وتفجأه به المنية : « والوفاء فى هذه الحالة أجل وأحسن منه فى الحياة[٤] » وفيه يقول محمد ابن داود : « قليل الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره « وقت الحياة » .

والوفاء يلزم المحب ويجب عليه أكثر من لزومه المحبوب ووجوبه عليه ذلك لأن المحب هو البادىء بالمودة وهو المتعرض لعقد الأذمة . « فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم ينو حتمها لمن أراده عليها[٥] » .

ويشرح ابن حزم آداب الوفاء وشروطه فيقول : وللوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ويستوى فى سريرته وعلانيته ويطوى شره وينشر خيره ويغطى على عيوبه ويحسن أفعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه وألا يكون طلعة

---

(١) طوق الحمامة ص ٧٤ .
(٢) طوق الحمامة ص ٧٥ .
(٣) « « « ٧٥ .
(٤) « « « ٧٧ .
(٥) « « « ٧٧ .

ثؤوبا ولا (ذا) ملة طروقا، وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبة مثل ذلك وإن كان دونه فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه فى درجتـه ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه[1] به .

ولقد كان ابن حزم أخف على المحبين فى آداب الحب من سلفه محمد بن داود وأرفق بهم منه . فقد حملهم ابن داود ماتنوء به الجبال وتهوى تحت طائله أشداء الرجال . ولكن ابن حزم كان واقعيا أفاد من سيرته ومن مشاهداته فلم يسترسل فيما استرسل فيه ابن داود من المثاليـة التى لا يطيقها أبناء آدم والتى قلت فيها من قبل أنها لاتوجد إلا فى أخلاق الملائـكة .

* * *

ودارس طوق الحمامة تستوقفه فيه معالم واضحة لشخصية مؤلفه أبى محمد على ابن حزم فى حبه وفى تصوره للحب وفى تصويره إياه وفى تعبيره عنه ولا يلبث أن يعود بالفكر إلى سلفه فى هذا الفن فن تصوير الحب والتعبير عنه تعبيراً شاملا جامعا إلى حد، وذلك هو أبو بكر محمد بن داود الظاهرى صاحب كتاب الزهرة .

وحسبى فيما يأتى أن أنقل الصورة التى انطبعت فى نفسى عن شـخصية ابن حزم بالقياس إلى سلفه ابن داود .

## ١

لقد آثر ابن حزم أن يكون كتابه ثبتا لما جرب واختبر وشهد فى الحب فلم يلتفت إلى أخبار العشاق الذين حفل بأحاديثهم الأدب العربى واشتهر امرهم فيـه أى اشـتهار وأعرض عن أن يستشهد بهم وباشعارهم فى كتابه واقتصر فيـه على أخبار أهل الأندلس أو الطبقة العليا فيـه بعبارة أدق فهو كما سبق أن قلت فيه كتاب إقليمى فيه ضيق الإقليمية وتشابه صورها وفيه التصوير المحكم أوالقريب من الإحكام الذى يمتاز به العمل الإقليمى ولولا أنه يبحث فى عاطفة إنسانية تكاد تستوى فى جوهرها وإن اختلفت أشكالها لاقتصرت قيمته فى تاريخ الأدب على كونه صورة لجانب من جوانب البيئة الأندلسية فى ذلك العصر .

---

(١) طوق الحمامة ص ٧٨ .

وسر ذلك فيما أظن أن الرجل كان فيه شيء من العصبية لبيئته فوق ما كان فيه من الاعتداد الشديد المفرط بنفسه ولعل مما يكشف عن ذلك أنه لم يرو لغيره من الشعر شيئا إلا بضعة أبيات رواها لابن عمه أبي المغيرة . ولو أن شعره من الطراز الذى يصدر فيه قائله عن طبع ويعبر فيه عن عاطفة لهان الخطب ولكنه لسوء الحظ ليس له من الطبع الشعرى أو العاطفة حظ يذكر فهو متكلف فى أغلبه بين التكلف تقتحمه النفس ولا تكاد تسيغه .

وهو إلى جانب ذلك كثير الحديث عن نفسه والتبجح بعمله وأدبه والتفاخر بأخلاقه وسجاياه حتى لتمل النفس حديثه حين يدل بعلمه وبما طبع عليه من كريم الخلال وحميد الشيم . فهو لا يكاد يأتى على ذكر أدب من آداب الحب أو خلق كريم من الأخلاق إلا ألصقه بنفسه وأضافه إليه . فهو وفى لمن يحب وفى لمن يرتبط وإياهم برابطة الصداقة لا يتطرق الملل إلى نفسه ولا يخطر البدء بهجر الحبيب على باله إلى غير ذلك مما ينبث فى ثنايا الكتاب ويشيع فى كل باب من أبوابه على وجه التقريب .

## ٢

وليته حين فعل ذلك تأمل فى نفسه فأطال التأمل واستبطنها فأمعن الاستبطان حتى يكشف عن حركاتها وخطراتها فى الحب الذى عاناه واختبره ولكنه لم يفعل ذلك إلا قليلا ولم يأخذ به نفسه إلا نادرا بل لقد شغل نفسه بظواهر الحب التى يدركها دقيق الملاحظة المتتبع للمظاهر وان لم يكن من أهل الحب .

ولعل السر فى عمق محمد بن داود وفى غوصه على دقائق الخوالج أنه كان يكتب كتابه من أجل حبيبه ليقدمه هدية إليه فكان يستعير روحه ويمخض نفسه ليخرج منها هدية استهداها المحبوب وأفضى إليه برغبته فيها أما ابن حزم ففى فاتحة رسالته مايدل على أنه كتبها متثاقلا لايدفعه إلى تجويدها والتأنق فيها دافع مثل الذى بعث فى ابن داود إقباله على خراج كتابه ذلك الإخراج البديع .

وتغلب طبيعة الملاحظة والمشاهدة على ابن حزم حتى يكاد يخضع لها فتسيره ولا يسيرها وتقيد منه ولا يفيد منها ، والناظر فى بعض أبواب الكتاب مثل باب من أحب فى النوم وباب من أحب بالوصف وباب من أحب صفة لم يستحسن غيرها مما يخالفها . وفى ثنايا بعض الأبواب يكاد يقتنع أن ابن حزم إنما يرمى من وراء ذلك إلى تصنيف مجموعة من المشاهدات والملاحظات والاختبارات مرت به

أو بلغه خبرها عن بعض من يثق فيهم وأن تلك غايته الأولى فى مثل هذه المواضع

وهاهو ذا فى حديثه عن أسباب طى السر يتحدث حديثا جميلا يستوحيه من خبرته بأحوال الحب ونفوس المحبين ثم لا يلبث أن يأتى بسبب من أسبابه ينبو عما حوله فيقول : «وربما كان سبب الكتمان توقى المحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب[1] وهو يستخرج ذلك من خبرين يوردهما فيما بعد أحدهما عن تغزل بعض الشعراء بصبح أم المؤيد بشعر غنت به جارية فى حضرة المنصور محمد بن أبى عامر فقادها ذلك إلى حتفها والآخر تغزل أحمد بن مغيث بإحدى بنات الخلفاء وماجر عليه وعلى أسرته من أذى واضطهاد .

ولا يحسبن أحد أننا نغمط لابن حزم فضله فى دقة الملاحظة والإفادة منها ولكنا نريد أن نقول إن الملاحظة والمشاهدة كان لابد لها فى مثل هذا المقام أن تتصل بالاستبطان والتأمل الذاتى وتتعاون وإياها فى الوصول إلى الحقيقة .

وفى الكتاب مواضع تتصل فيها المشاهدة واستقراء الظواهر بالاستبطان والتأمل الذاتى فجاء بحث ابن حزم فيها جامعا بين الحسنيين . سعة الاستقراء وشموله وعمق التأمل وصدق فراسته . مثال ذلك كلامه على علامات الحب وشواهده وحديثه عن الرقيب والواشى .

## ٣

وبهذا تكون الملاحظة والمشاهدة واستقراء الظواهر جانية على بحث ابن حزم فى الحب جائرة على التأمل والاستبطان اللذين لابد منهما فى مثل هذا البحث لابد للباحث أن يعترف بأنهما من مزايا الكتاب من وجه آخر ذلك أنه يمتاز بالترتيب المحكم والتصنيف المنظم إلى حد بعيد ، وذلك ييسر على دارسه الإلمام بما فيه من الأفكار بسهولة ويسر بخلاف كتاب الزهرة الذى يضطر دارسه إلى أن يجمع أشتات أفكاره المنبثة فى ثنايا الأبواب المختلفة ، ويجد فى ترتيبها وتصنيفها عناء .

وإذا كنا نأخذ عليه إسرافه فى الاعتماد على الملاحظة والمشاهدة فمن الحق أن نذكر أنهما من مميزات البحث العلمى الحديث التى تيسر الوصول إلى الحقيقة وتزيد فى اطمئنان الدارس إلى مايصل إليه من نتائج درسه وبحثه .

---

(١) طوق الحمامة ٣٥ .

# خاتمـــة

الحب العذرى ظاهرة اجتماعية وأدبية كان للإسلام الفضل الأول فى خلقها وفى إخراجها للوجود . فقد بدأ ظهورها بعد أن استقر له الأمر فى بلاد العرب وأخذ مكانه فى نفوسهم .

وهو كذلك ظاهرة نفسية قوامها إعلاء الدافع الجنسى والتسامى بعاطفة الحب حتى تصير عاطفة قوية ثابتة تكاد تختفى فيها الغاية التى يرمى إليها الدافع الغريزى .

وقد بدأ الحب العذرى كما مر بنا فى فصول هذا البحث عاطفة يتغنى بها الشعراء وتشوبها بعض المظاهر التى تتصل بأصل هذه العاطفة وهو الدافع الجنسى وتطور عند الفقهاء حتى صيروه فكرة أدبية فلسفية — إن صح هذا التعبير — ووضعوا لها حدوداً ورسموا لها معالم عامة وشرحوا مبدأها ومنشأها وملابساتها وما يلزم فيها من آداب وما يدخل عليها من آفات وجهدوا فى أن يصفوها مما كان يعلق بها عند من تغنوا بها من الشعراء من الشوائب فأخرجوها فكرة مثالية قد تبعد فى بعض الأحيان عن الواقع وتنوء بها طبيعة النفس الإنسانية المكونة من قوى ودوافع غريزية لاسبيل إلى تجاهلها والإغضاء عليها.

وأكبر الفضل فى ذلك يعود إلى الإمام الفقيه العاشق أبى بكر محمد بن داود الظاهرى الذى استطاع أن يجلوها فى أبدع صورة وأجمل مظهر ومن بعده الفقيه الوزير أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الذى أضاف إليها صوراً جميلة من صور المحب فى بيئته الأندلسية وإن يكن نزل بها بعض الشىء عن العمق الذى نفذ إليه سلفه محمد بن داود والآفاق الرحبة التى حومت فيها نفسه وسمت إليها روحه .

* * *

وقد كان لهذه الفكرة الجميلة فكرة الحب العذرى أثرها فى الشرق وفى الغرب .

فأما الشرق فلم يكتف بهذه النظرة المثالية للحب الإنسانى وإنما تعداها إلى القول بالحب الإلهى وقد كانت هذه الفكرة فكرة الحب العذرى مرحلة لابد منها فى تاريخ العاطفة للوصول إلى مرتبة الحب الإلهى وحسبى فى هذا المقام أن أشير إلى مكانة الحب العذرى عند الصوفية ورمزهم به إلى الحب الإلهى حتى قال فيه أحد المتأخرين من شعرائهم :

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة  منى إليك ولو أنصفت لم تلم

وأن أنوه بكلمة مشهورة عند أهل التصوف لا أعرف قائلها ، مرادها أنه لا يصل إلى الحقيقة من لم يقطع إلى المجاز . والحقيقة عندهم أو عند بعضهم هى الحب الإلهى وما يسلم إليه من الفناء فى الذات الإلهية أو الاتحاد بها والمجاز هو الحب الإنسانى وأقرب الحب الإنسانى إلى الحب الإلهى هو هـذا الحب العذرى الذى كان موضوع بحثنا .

هذه ناحية وهناك ناحية أخرى لا تزال مجالا للدرس والبحث الذى يرجى أن يكشف عن كثير من الحقائق التى تتصل بتاريخ العاطفة عند العرب والمسلمين . وقد بدا لى وأنا أدرس كتاب الزهرة لمحمد بن داود أن هذا الـكتاب وما فيه من أفـكار فى الحب لا بد أنه كان بعيد الأثر فى حياة الصوفية وبخاصة من قال منهم بالحب الالهى . وكلامه فى مراتب الحب وأحواله خليق بأن يكون قد أثر فى الصوفية أو تأثر بهم .

هذه قضية خطيرة يحسن أن يلتفت إليها فى البحث عن نشأة التصوف الإسلامى وما أظن أحدا من الباحثين فيه تنبه إليها أو اهتم بها من علماء الشرق أو الغرب .

* * *

وأما أثر الحب العذرى فى الغرب فحسبنا فى الدلالة عليه شهادة عالمين من جلة علمائه هما الأستاذ المستشرق لوى ماسينيون والأستاذ أندريه موروا عضوا الأكاديمية الفرنسية .

فقد قال أولهما فى ابن داود أنه كان سلفا للزجال الأندلسى ابن قزمان القرطبى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ وتغنى قبله بالحب العذرى وكتب فيه كتاب الزهرة . وابن قزمان هذا هو الذى أثرت موشحاته التى تغنى فيها بالحب العفيف « Amour courtois » فى شـعراء جنوب اللوار Poètes de langue d,oc والغاليين والقطالونيين والبروفنسيين والإيطاليين[1] .

والأستاذ أندريه موروا يتحدث عن نشأة الحب الرومانسى Naiasance de L'Amour Romanesque فيقول إنه لم تبدأ نشأته إلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين أيام التروبادور والتروفير ، حيث نلاحظ فى الأوساط

(١) L. Massignon : La Passion d'Al Hallaj Tome I, p 176.

الشعرية ، ومن ثم فى قصص الفروسية شيئاً يشبه أن يكون عاطفة مركبة يسميها باسكال انفعالات الحب passions de i'amour . وهو يعزو نشأة هذا الحب الرومانسى إلى أمرين : المسيحية بما وضعت من القيود الخلقية وبما منحت المرأة من مكانة فى المجتمع لم تكن لها من قبل وامتزاج التقاليد المسيحية بتيارات أخرى وردت إلى أوروبا عن طريق جنوب فرنسا .

هذه التيارات هى شعر عربى تغنى فيه قائلوه بالحب الأفلاطونى ولم يقتصر ذلك على الجنوب بل لقد عرف فى الشمال فى انكلترا وفى غيرها (١) .

ذلك هو الحب العذرى وتلك هى آثاره فى الآداب العالمية . ولعلى وفقت فى جلاء بعض النواحى من تاريخه وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

(١) A. Maurois : Sept Visages de l'Amour. p p 8—10.

# المراجـــــع

## بالعربية


(١) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف .
(٢) ابن حجلة : ديوان الصبابة .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف .
(٤) « « : رسالة فى الأخلاق والسير .
(٥) ابن خلـكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
(٦) ابن داود : كتاب الزهرة .
(٧) ابن سعد : كتاب الطبقات الـكبرى .
(٨) ابن سينا : رسالة العشق فى ( مجموعة مطبوعة باسم جامع البدائع ) .
(٩) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
(١٠) ابن قتيبة : كتاب المعارف .
(١١) « « : الشعر والشعراء .
(١٢) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين .
(١٣) ابن النديم : الفهرست .
(١٤) ابن هشام : سيرة ابن هشام .
(١٥) أبو بكر السراج : مصارع العشاق .
(١٦) أبو بكر بن دريد : كتاب الاشتقاق .
(١٧) أبو جعفر محمد بن حبيب : كتاب مختلف القبائل ومؤتلفها .
(١٨) أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين .
(١٩) أبو العباس المبرد : كتاب الـكامل .
(٢٠) أبو عبيد البـكرى : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع .
(٢١) أبو على القالى : الأمالى .
(٢٢) أبو الفرج الأصفهانى : كتاب الأغانى .
(٢٣) أبو منصور الثعالبى : فقه اللغة .
(٢٤) أحمد أمين بك : فجر الإسلام .
(٢٥) « « : ضحى الإسلام .
(٢٦) إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفاء .
(٢٧) البغدادى ( عبد القادر ) : الفرق بين الفرق .
(٢٨) البلاذرى : فتوح البلدان .
(٢٩) الجاحظ : رسالة فى العشق والنساء ضمن رسائل الجاحظ .
(٣٠) جب ( وجماعة من المستشرقين ) : تراث الإسلام ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم .

(٣١) جميل بثينة : ديوان جميل بثينة جمعه بشير يموت .
(٣٢) حاجى خليفة : كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون .
(٣٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد .
(٣٤) داود الأنطاكى : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
(٣٥) زكى مبارك ( الدكتور ) : حب ابن أبى ربيعة وشعره .
(٣٦) السبكى ( تقى الدين ) : طبقات الشافعية الكبرى .
(٣٧) السهيلى : الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية .
(٣٨) صاعد ( القاضى صاعد بن أحمد ) : طبقات الأمم .
(٣٩) الضبى : بغية الملتمس في رجال الأندلس فى مجموعة كوديرا وريبيرا .
(٤٠) طه حسين بك ( الدكتور ) : حديث الأربعاء .
(٤١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك .
(٤٢) عياض ( القاضى ) : كتاب الشفا .
(٤٣) فان ارندنك : ابن حزم مقال فى دائرة المعارف الإسلامية ( الترجمة العربية ) .
(٤٤) مجنون ليلى : ديوان مجنون ليلى .
(٤٥) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر .
(٤٦) المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب .
(٤٧) النابغة الذبيانى : ديوان النابغة ضمن المجموعة المطبوعة باسم خمسة دواوين العرب .
(٤٨) النويري : نهاية الأرب .
(٤٩) الوشاء : الموشى المطبوع باسم الظرف والظرفاء .
(٥٠) اليافعى : مرآة الجنان .
(٥١) ياقوت الحموى : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
(٥٢) « « : معجم البلدان .
(٥٣) أحمد امين بك : إمامان فقيهان عاشقان ( سلسلة مقالات فى مجلة الثقافة فى شهر مارس سنة ١٩٤٦ ) .
(٥٤) سعيد الأفغانى : ابن حزم الإمام المحب ( مقال فى العدد ٦٧ من السنة الثانية من مجلة الثقافة ) .
(٥٥) طه حسين بك ( الدكتور ) : فى الحب ( مقال فى المجلد الثانى العدد الخامس من مجلة الكاتب المصرى ) .
(٥٦) الفيروز آبادى : القاموس المحيط .
(٥٧) السيد مرتضى الزبيدى : تاج العروس فى شرح القاموس .

## بالانكليزية

**(1) Boyce Gibson :** Love : Psychologically & Ethically. An Article in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.

**(2) De Cyayangos (Pascal) :** History of the Muhammedan Dynasties in Spain.

**(3) Della Vida :** Udhra. An Article in the Encyclopaedia of Islam.

(4) **Ellis (Havelock)** : Psychology of Sex.

(5) **Fahim** : Ibn Daud. An Article in the Encyclopaedia of Islam.

(6) **Freud S.** : Introductory Lectures on Psychoanalysis.

(7) » » : New Lectures on Psycho-Analysis.

(8) **Mc Dougal, W.** : An Introduction to Social Psychology.

(9) » » : Psycho-Analysis & Social Psychology.

(10) **Massignon, L.** : Udhri. An Article in the Encyclopaedia of Islam.

(11) **Nicholson, R.A.** : A Literary History of the Arabs.

(12) **Nykl, R.A.** : The Dove's Neck Ring about Love and Lovers.

(13) **Pearson, A.C.** : Greeck Love. An Article in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.

(14) **Plato** : Lysis Synposium Gorgias, edited by Lamb.

(15) **Stendhal** : On Love (the English translation).

(16) **Van Arendunk** : Ibn Hazm : An Article in the Encyclopaedia of Islam (Supplement).

بالفرنسية

(17) **Barbier de Meynard (C)** : Prairies d'Or.

(18) » » » » : Surnoms et Sobriquets dans La Litterature Arabe «Vne Article dans le Journal Asiatique Tome X»

(19) **Dozy (R)** : Histoir des Musulmans d'Espagne.

(20) **Freud (S)** : Trois Essais sur La Théorie de La Sexualité.

(21) **Morçais (W)** : Observations sur Le Texte du Tauq (Memorial Henri Basset).

(22) **Massignon (L)** : La Passion d'Al Hallaj.

(23) » » : Al Hallaj : Kitab Al Tawasin.

(24) » » : Recueil de Textes Inédits Relatifs.

(25) **Maurois (André)** : de L'Histoir de La Mystique Musulmane.

(25) **Maurois (André)** : Sept Visages de L'Amour.

(26) **Petrof (D.K.)** : Collier de La Colombe.

بالألمانية

(27) **Brocklmann (Karl)** : Geschichte der Arabischen Literatur.

(28) **Goldziher (Ignaz)** : Die Zahiriten : ihr Lehrsysten und ihr Gesehichte.

بالإيطالية

(29) **Francisco Gabrielli** : Gamil Al Vdri : Studio Crities é Raceolta dei Framenti.

بالإسبانية

(30) **Nykl (R.A.)** : Nuevos Datos Sobre El Kitab El-Zahra. (Al-Andalus Vol. IV 1936 Fasc. I.)

DATE DUE

JAFET LIB.
30 JUN 2001
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
11 JUN 2004
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
26 JUL 2016
Circulation Dept. 2

177.6:J41hA:c.1
الجواري ،احمد عبد الستار
الحب العذري
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002064